

مَبَارَكُ بْنُ
مُحَمَّدٍ الْمِصْلِيُّ

مَبَارَكُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمِصْلِيُّ

تَلَايَحُ الْجَزَائِرِ
فِي
الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ

تَقْدِيمٌ وَتَضَمُّعٌ
مُحَمَّدُ الْمِصْلِيُّ

الجزء الأول

المؤسسة الوطنية للكتاب

تَلَايَحُ
الْجَزَائِرِ
فِي
الْقَدِيمِ
وَالْحَدِيثِ

1

المؤسسة الوطنية
للكتاب

تَلَايَحُ الْجَزَائِرِ
فِي
الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ

مبارك بن محمد الميالي

تَلَايَحُ الْجَزَائِرِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ

تَقْدِيمَ وَتَضَمُّنَ
مُحَمَّدِ الْمِيَالِي

الْمَجْرُؤُ الْأَوَّلُ

الرقم التسلسلي
تاريخ الجزائر

T 1 et 2

3^e 214.89.01.09

أهـدإ الكـتاب

إذا كان المتقدمون يهدون للوك أعصارهم نتائج قرائهم فذلك
لأنهم في أزمة لا ظل فيها لارادة الامة .

اما اليوم ونحن في عصر عمت فيه الديموقراطية كل الشعوب أو كادت
وعرفت الشعوب ان ارادة الحاكم انما تتقوى من جنبهم وجمودهم ،
وأن الارادة الحقيقية التي بيدها رفع مستوى الأمم هي ارادة الشعب
فقد صار الكتاب يهدون كتبهم لشعبهم او لعظيم من عظمائه هو رمز
عظمة ذلك الشعب .

ونحن نهدي كتابنا هذا الى الشعب الجزائري الى شبابه المفكر
ورجاله العاملين المخلصين .

مبارك بن محمد الهادي

إهداء شكر

لا أكون غير معترف بجميل يحتمه علي إخلاصي في هذا التأليف
إذا ما نوهت بشأن من لم أعرف منهم غير النشاط النادر والعزم
الفولاذي في مؤازرتي في هذا العمل الذي فيه بلاغ للشبيبة عن
وطنيتهم •

وما جئت بدعا إذا ما ذكرت بأعجاب ما شاهدت منهم أثناء قيامهم
بما نيط بعهدتهم بغبطة وسرور • على أن الشقة شاقة والمرتقى صعب •

أولئك هم الذين اذكر منهم — وملهء فمي الفخر بهم — الشبان
العاملين الاصدقاء : عيسى الزهار الترجمان بالاغواط ، محمد التهامي
الترجمان بميلة ، عمر دهينة أحد المعلمين بالمكاتب الفرنسية وأفذاذ
نبغاء الرسامين •

هؤلاء هم الذين لهم من اليد في معاضدتي ما يشكرهم عليها
الفن والعلم والتاريخ والوطن •

مبارك بن محمد المياحي

رسالة من الاستاذ عبد الحميد بن باديس إلى المؤلف

إذا كان الكثير من الكتاب مولعين بطلب تقرّيف كتبهم من إخوانهم
لحمل عوام القراء على استحسانها فاني في صف القليل منهم الذين
يكتلون إلى القاريء الحكم فيما قدموه له من غير شرط عالية ولا انصاف .
فلعل ان يقول فيما كتبناه ما شاء . والايام هي التي ستنفل ما يقولون ،
ونميز جيد القول من رديئه .

وإذا كان عظماء كل أمة هم المكونين لتاريخها فالواجب ان لا نهمل نظرائهم
فيما هو من نتائج حياة أمثالهم . وكتابنا هذا من نتائج حياة عظماء الامتين
العربية والبربرية فلا غرو اذ أثبتنا نظرة عظيم من عظماء جيلنا فيه مع
تمسكنا بمبدأنا في التقاريف .

كتب اليانا الاستاذ الجليل عبد الحميد بن باديس احد شيوخنا وزعيم
نهضتنا بنظرة في كتابنا . وهذا نص رسالته :

الحمد لله « حصن الماء » مساء الثلاثاء 1347/1/15

أخي مبارك !

سلام ورحمة ، حياك الله تحية من علم وعمل وعلم ، وقفت على
الجزء الاول من كتابك « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » فقلت
لو سميت « حياة الجزائر » لكان بذلك خليقا . فهو اول كتاب صور

الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوية ، بعد ما كانت تلك الصورة
أشلاء متفرقة هنا وهناك • وقد تفخت في تلك الصورة من روح
إيمانك الديني والوطني ما سيقبها حية على وجه الدهر ، تحفظ اسمك
تاجا لها في سماء العلا ، وتخطه يمينها في كتاب الخالدين •

أخي مبارك !

إذا كان من أحياء نفسا واحدة فكأنما أحياء الناس جميعا ، فكيف
من أحياء أمة كاملة ؟ أحياء ماضيها وحاضرها ، وحياتها عند ابنائها حياة
مستقبلها • فليس — والله — كفاء عملك أن تشكر الأفراد ، ولكن
كفاءه أن تشكر الأجيال • وإذا كان هذا في الجيل المعاصر قليلا ،
فسيكون في الأجيال الغابرة كثيرا • وتلك سنة الله في عطاء الأمم
ونوابغها ، ولن تجد لسنة الله تبديلا •

وأنا — واحدا من هذا الجيل — بلسان من يشعرون شعوري ،
أشكر لأقوم بما علينا من واجب ، لا لأقابل ما لك من حق •
جازاك الله خير ما جازى به العاملين المخلصين للدين والوطن بعلم
وتحقيق وانصاف • والسلام عليك من أخيك •

عبد الحيد بن يادرس

المجلد الأول بين يدي الأمير شكيب أرسلان

اتصل أمير البيان ورأس الشرق المفكر الأمير شكيب أرسلان بالجزء
الأول فكتب إلى صديقنا الشيخ الطيب المقبي رسالة جاء فيها قوله
عن ذلك الجزء :

« وأما تاريخ الجزائر فوالله ما كنت أظن في الجزائر من يفري هذا
الفري • ولقد اعجبت به كثيرا كما اني معجب بكتابة ابن باديس •
فالملي وابن باديس والمقبي والزاهري حملة عرش الادب الجزائري
الاربعة » •

شكر واعتذار

لا شيء أشق على الكاتب العربي من كتابة التاريخ على النهج
العصري • ولا تاريخ اغمض واقل مادة لدى القارئ العربي من تاريخ
الجزائر • ولا كتب أكثر تحريفا من الكتب العربية المؤلفة فيه • وعلى
نسبة أهمية تاريخ ابن خلدون كان حظه من التحريف حتى ذهبت ثقة
القارئ بما فيه من اعلام الناس والامكنة •

وقد قاسيت في تصحيح الاعلام وجمع المواد وايضاح الاغراض
التاريخية وتقريب الاسلوب من النهج العصري ما لا يعلمه الا من عمل
علمي وكان مثلي جاهلا بغير العربية بعيدا عن العواصم العلمية منهوك
الوقت بالاشغال • ولست — علم الله — أمن بهاتيك المقاساة ، وانما
اريد الاعتذار للقراء والادباء عن تأخر نشر هذا الجزء الثاني وعمّا
عسى ان يكون به من نقص علمي او فني •

وكلما اجملت لهم اعتذاري اجمل شكري لمن امدني منهم باعارة
كتاب او دلني عليه • وأخص منهم بالذكر الشابين الادبيين المخلصين
صديقي أحمد توفيق المدني وعمرو دهيّة حامل شهادتي التعليم بالمكتاب
الفرنسية والترجمة بالمحاكم الشرعية • فقد عرّبا لي فصولا من الفرنسية
وبذلا في اعانتني كل ما في استطاعتها الادبية • جازاهما الله احسن
الجزاء وذكرهما الجيل المستقبل بوافر الشاء •

مبارك بن محمد الميلي

الغواط في 1359/2/1

مقدمة الطبعة

طُلبَ الي أن أكتب مقدمة الطبعة الجديدة لكتاب «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» الذي ألفه والذي الشيخ مبارك الميلي منذ أكثر من نصف قرن .

وقد صادف أن تلقيت منذ أيام ، في هذا الشهر أفريل 1986 ، رسالة من وزارة الشؤون الدينية طلبت فيها الي أن اكتب ترجمة لوالدي .

ونفس الاقتراح سمعته منذ شهرين ، من أحد تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس .

تساءلت : كيف لم أفكر في مثل هذا الموضوع قبل اليوم ؟ ليس ذلك واجبا كان يتحتم علي أن اضطلع به قبل هذا الوقت ؟ الواقع أن الفكرة راودتني قبل سنوات . لكنني أحجمت عن تنفيذها لسببين رئيسيين : الأول اني متيقن ان هناك غيري ، من يستطيع ان يكتب مقدمة لكتاب «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» أكثر موضوعية وأدق تحليلا . والثاني أن كتابات الشيخ مبارك نفسها تقدم مادة خصبة لمن يريد الكتابة عنه ، قد تغنى عن اللجوء الى الذكريات الشخصية والمعلومات الخاصة .

لكنني أعدت النظر في هذا الموقف على ضوء الطلبات التي صدرت الي من جهات متعددة ومتباعدة وفي أوقات متقاربة . خصوصا وان هناك جوانب من شخصيته قد لا يستطيع غيري أن يعرف بها .

صحيح انه توفي ، رحمه الله ، ولم أكن قد تجاوزت مرحلة التعليم المتوسط . لكنني استطعت ان اخزن ذكريات تلقي بعض الضوء على شخصيته ، سواء بحكم معاشرتي له ، أو بحكم الأوراق والرسائل الخاصة التي اطلعت عليها بعد وفاته ، والتي كان يحتفظ بها في مكتب له كانت تصدره صور جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ومحمد نصيف .

وقد أتيت لي ، خلال السنوات القليلة التي عشتها جنبه بعد أن أصبحت واعيا بأهمية بعض الاحداث ، ان أخزن في الذاكرة بعض تصرفاته ومواقفه وتعليقاته .

وعلى الرغم من الصورة المهيبة التي كانت تفرض نفسها على من يقترب منه ، وعلى الصرامة التي اشتهر بها ، فقد كان يتوفر على جانب يطفح بالمحبة والمرح والفكاهة .

وقد كان مشهد تحلقنا حوله ، أمي ، اخوتي وأنا ، في ليالي الشتاء قرب مدفأة يشتعل فيها الخطب ، بغرفة نومه ، من بين المشاهد التي رسخت في الذاكرة ، مثلها في ذلك مثل حلقات تدريسه لنا في «مدرسة حياة الشباب» أو املآته الأدبية علي ، عندما كان يتولى تدريسي في البيت بعد وقوع حادث معين ، لا بأس من ان اسوقه في هذا المجال لأنه يكشف عن جانب من شخصيته .

كان بعد ان اشتد عليه مرض السكر ، قد توقف عن القاء الدروس على تلاميذ المدرسة ، وان كان قد استمر في اعطاء الدروس المسجدية ليلا ، وفي إلقاء محاضرات عصرا في النادي حتى يشمل بدعوته الشباب الذي لم يكن يتردد على المسجد .

وقد خطر لي ذات يوم ، وقد شعرت ان مستوى التعليم في المدرسة لم يعد يلبي حاجتي ، ان اطلب منه ان يعطيني دروسا في اللغة والأدب والنحو . فكان جوابه :

- لا أستطيع ان اخصك بدروس دون رفاقك .

قلت له : فليكن . لماذا لا تعطي دروسا لكل الذين بلغوا المستوى الذي بلغته .

وكذلك كان . خصص لنا ساعة كل يوم ، من السابعة صباحا الى الثامنة . كنا حوالي عشرة . وكان على مرضه يحرص على عدم التخلف عن القاء ذلك الدرس . وكان الجميع يحضرون طالما كان الوقت صيفا أو خريفا . حتى اذا دهم الشتاء راح عدد الحاضرين . على قلتهم ينقص . حتى انه لم يجد ذات يوم ، في القاعة سواي . غضب . كان مرض السكر قد جعله شديد الانفعال . لم يلق ذلك اليوم درسه وقال لي : أخبر زملاءك انهم اذا لم يحضروا من الغد ، فلن يسمعوها مني درسا بعدها . وأبلغتهم . ومن الغد لم يحضر أي أحد منهم . آنذاك قرر أن يخصني بالتدريس لكن في المنزل .

كان تحلقنا حوله في السهرة حول المدفأة هي الفترة الوحيدة التي نجتمع فيها اليه فنحن لم نكن نأكل معه . لأن اصابته بداء السكر منذ سنوات شبابه كانت تفرض عليه نظاما خاصا للأكل ، ومن هنا كان يتجنب الجلوس الى مائدتنا خشية ان تمتد يده للمحرمات عليه بسبب المرض . وهذا في الوقت الذي كنت أتصور فيه انه محظوظ بفعل نظام أكله الخاص : فقد كان منظر الخبز الخاص الذي يشتريه من قسنطينة في علب كارتون كبيرة ، والمصنوع من مادة الغلوتان فقط ، يسيل لعابي .

أما في السهرات الشتوية فقد كان يقاسمنا أحيانا أكل البرتقال والجوز . وكانت اجراءات تكسير الجوز وتقشير البرتقال التي تتولاها أمي غالبا من بين الطقوس التي نحرص على حضورها . وكنت اتعجب كيف يفضل أبي أكل البرتقال الحامض ، في الوقت الذي كنا فيه نحن الصغار نتنازع صنفا من البرتقال الحلو ، لم أعد أجد له أثرا في الاسواق اليوم .

وكان استهلاك الأسرة للجوز عاليا : فهو زيادة عن سهرات الشتاء يستعمل في صنع الحلويات ، لأن وجود بعض أصناف الحلوى كان ضروريا على مدار السنة وليس في الاعياد فقط ، فلم

يكن يصح أن يأتي زائر على حين بغتة دون أن يكون في وسع أمي أن تقدم له بعض الحلويات .

لهذا كان والدي يشتري الجوز بكميات كبيرة من مصدرين أساسيين : من أحد الاسواق القريبة ، التي تغذيها بعض مناطق فرجية ، ومن الاوراس الذي كان يزود أسواق باتنة وخنشلة . أذكر أن منظر جوزة بيضاء ، قشرتها ناصعة ، استهواه ذات ليلة ، فأصر على أن يكسرها بنفسه ، وكم كانت دهشته ودهشتنا أيضا - عندما وجد بداخلها كتلة سوداء لا تشبه لب الجوز من بعيد ولا من قريب .

- أعوذ بالله .. هذه الجوزة مثل المنافق .

كان تعليقه . وضحكت أمي لتعليقه . وضحكت معجبا ببداهة التعليق ودقة التشبيه .

وقد أتيج لي أن اكتشف جانبا من جوانب شخصيته وأنا بعد طفل ، وهو جانب المربي ، فهو لم يكن يستعمل الشدة معي الا حيث تكون لازمة ، أي عندما يتعلق الأمر بشيء ، لا يمكن التساهل فيه ، مثل ترك الصلاة . آنذاك لا يتردد في انزال شديد العقاب بي ، لا يشفع في ذلك حبه الشديد لابنه - كما سنرى - ولا تدخل والدتي أو جدتي .

أذكر أنه كان ذات صيف يستعد للسفر الى مسقط رأسه في الجبل ، وكنت شديد الشوق الى مرافقته في تلك السفرة ، فطلبت منه أن يأذن لي بأن أذهب معه . قال لي ما معناه : أنت مخطيء أن كنت تتصور أن «أولاد مبارك» مثل قسنطينة أو مدينة الجزائر . قلت أريد أن أسافر مهما تكن «أولاد مبارك» كان ذلك في صيف 1939 . ونزل عند رغتي .

كانت فرحتي كبيرة . فلم يكن في حياتنا بالقرية ، نحن أطفال ذلك العهد ما يثير . كانت منازل القرية التي يوجد بها «راديو» لا تتجاوز ثلاثة ، منها منزلنا . وكان هناك مقهى واحد له راديو بالإضافة الى النادي . وكان السفر بالنسبة للأطفال آنذاك حدثا

سعيدا يشغل حيزا كبيرا من وقتنا عندما يتقرر مشروعا ، ونظلم نحكي عنه بعد تحقيقه عدة أسابيع من خلال روايات يتدخل فيها الخيال غالبا .

لكن حدث عشية السفر حادث غريب .
كان والدي ، أثناء سفره للإستشفاء من داء السكر في فرنسا حيث عالج في فيشي وباريس عام 1938 ، قد إستصحب معه دليلا مفصلا لمدينة باريس .

كانت مكتبته منظمة تنظيما دقيقا ، بحيث كان يعرف موقع كل كتاب وصفه وترتيبه . وكنت مغرما بتصفح الكتب حتى ولو لم أكن أفهم ما فيها . وكنت أحرص على إعادتها الى مكانها حتى لا يعرف أنني استعملتها .

قبل يومين من السفر ، عثرت على دليل باريس . أعجبت بما فيه من صور ومعالم ، فحملته الى المدرسة حتى أريه لزملائي وأزهو عليهم .

طلب مني أحد الزملاء أن أعيره إياه مقابل أن يعيرني هو مركبة خشبية تسير بـ «الرولما» كما كنا نقول ، ونقصد بذلك عجلات معدنية صغيرة .

وحدث ان والدي عثر على الدليل عنده فسأله من أين جاءه ، فأخبره بالحقيقة . فما كان من أبيه الا ان أخذه منه وأتى به الى خالي حتى يعيده الى والدي . وأعاده بالفعل عشية السفر .

وصادف أنني رأيت الدليل وقد احتل مكانه ، صعقت . كان والدي قد أرجعه حيث كان دون ان يفتحن في الموضوع . قلت في نفسي: لقد اقتضح الأمر . ورحت أتصور صدور العقوبة الصارمة ممثلة في ضرب مبرح ، كذلك الذي ينالني عند التخلف عن الصلاة ، مع الغاء سفري .

لكن شيئا من ذلك لم يحدث . لم يظهر على أبي أي تصرف يدل على أنه عرف بما حدث . لم تصدر عنه أية ملاحظة . كان تصرفه معي عاديا . تعجبت ولم أستفهمه .

وسافرت معه من الغد ، وكانت سفرة من أحلى السفرات التي رسخت في ذاكرتي . دامت حوالي عشرة أيام . تمتعت فيها بركوب البغال ، فقد كانت هي وسيلتنا الوحيدة لنقلنا في بعض أشواط الرحلة . وأتيح لي أن أشهد بعض عادات البادية مثل ذبح خروف أو كبش للضييف ولو وصل في ساعة متأخرة من الليل .
بعد ان عدنا الى ميله ، ناداني من الغد . وبعد أن آذن لي بالجلوس راح يحكي لي ظروف اكتشافه لاختفاء الدليل ، ثم قال لي ما معناه :

- لم أرد أن ألاحظ لك شيئا حتى لا أنقص عليك السفر ، ولا الغي وعدا قعطته لك . وها أنا ذا الآن أعتبرك كبيرا تتعظ بالكلام ، ولم تعد بحاجة الى الضرب . فلا تعد لمثلها .
وقد أتيح لي بعد ذلك أن أعيش مشهدا يدل على مدى تقديره للوعد المقطوع . كان يسافر الى قسنطينة في الصباح ويرجع في المساء ، أحيانا وقد رأى ان يستصحبني في إحدى هذه السفرات اليومية مع اعلامي بأننا سبرجع في نفس اليوم . قبلت رغم ان بعض يوم لم يكن ليشبع نهمي الى المدينة . الا أنه عند الوصول وجد الشيخ العربي التبسي بقسنطينة ، فغير برناجه وقرر أن يقضي بها ثلاثة أيام . ناداني أمام صديقه وقال لي ما معناه :
لقد قلت لك اننا سنرجع في نفس اليوم . لكنني اضطررت الى ان امكث مدة أطول . فان كنت تريد البقاء فليكن ، وان كنت ربت امرك على العودة اليوم ، فاعلمي حتى أرسلك مع أحد المسافرين الى ميله .

وعلى ذكر جانب المربي فيه أذكر أني قرأت فيما قرأت من رسائله التي كان يحتفظ منها بنسخة لديه (والتي ضاع معظمها مع الأسف) رسالة كان وجهها الى الشيخ العربي الذي كان قد طلب منه ان يطلعه على أسلوبه في معاملة التلاميذ (فقد كان والدي قد شرع في التدريس بالاغواط ، قبل ان يلتحق الشيخ العربي ببلدة سيف التي كانت أول بلدة تولى التدريس فيها للتلاميذ) فكتب له والدي رسالة

حفظت منها هذا المقطع .
«إذا وعدت فأنجز . وإذا أوعدت فتغافل . وإن ذكرك أحد التلاميذ بالوعيد فنفضه مع اظهار كراهيتك لمن ذكرك» .
لقد أشرت منذ قليل الى شديد حبه لي . كنت أحس بذلك مثل كل طفل ، لكن لم أكن أعرف مدى ذلك الحب الا عندما عثرت ، بعد وفاته ، على كراسة صغيرة كان قد سجل فيها خواطره عندما سافر للعلاج بفرنسا ، كتب في احدى ورقاتها ، تحت عنوان «لوعة الشوق» ما يلي حرفيا (فالكراصة ما تزال في حوزتي) .
«لا أعلم للشوق سلطانا على عواطفني عجزت عن تخفيف وطأته قوتي الفكرية الا مرتين . أحدهما وأنا شاب علق قلبي فتاة علفتني هي الأخرى . وكانت حرب بين عقلي وهواي ، فاز فيها الهوى بالحب العذري وفاز فيها العقل بالعفة ، مع وجود دواعي الفاحشة وفقد موانعها .

ثانيتهما في سفرتي هاته الى فرنسا لعلاج داء السكر التي دامت من (1357/03/28 هـ) الى (1938/05/28 م) فقد كنت أريد ان انسى كل علاقتي الشخصية والفكرية أيام علاجي . ففرت الا من ناحية ولدي البكر محمد ، فقد كنت أهاج لذكراه حتى تكاد تنفلت دموعي أمام الناس . ولولاه لكان غيابي أطول .

لكن الاسترسال في استعراض كل الجوانب التي أعرفها عن والدي ، قد يبعد بنا عن موضوع الكتاب الذي وضعه منذ أكثر من نصف قرن .

ان تحديد مكانة «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» تتطلب التذكير ، ولو باختصار ، بالظروف الفكرية والسياسية والاجتماعية التي ظهر فيها ذلك الكتاب .

ولد الشيخ مبارك الميلي في النصف الأخير من العشرة الأخيرة من القرن الماضي . نشأ في منطقة فقيرة خاضعة لنظام البلديات المختلطة . وكان هذا النظام ، الى جانب «الاحواز العسكرية» هو

الركيزة الأساسية التي يعتمد عليها الاستعمار في ادارة البلاد والتحكم في المناطق التي يخشى ثورة سكانها .

والبلدية المختلطة تشمل عادة منطقة شاسعة تضم عدة دواوير وقرى يسيطر عليها حاكم فرنسي يساعده عدد من الاعوان الفرنسيين أيضا ، الى جانب بعض الاعوان من «الاهالي» .

واذا كان الاروبيون ممثلين في هذا النظام البلدي بواسطة من ينتخبهم فان الاغلبية الساحقة من سكان الاحواز أو البلديات المختلطة ، أي الجزائريون ، ممثلون « نظريا » بواسطة رجال تعينهم الادارة الفرنسية . ولا يخفى ان الحاكم الفرنسي لا يعين ضمن ادارته الا من يجد لديه الاستعداد لخضوع مطلق وانقياد أعمى في تنفيذ التعليمات . وكان معروفا ان المعيار الذي تقاس به صلاحية المساعد الجزائري هومدى تصديه ضد مطالب من يفترض فيه ان يمثلهم وتقابله في محاربة بني جلدته ، فتلك هي الطريقة التي يزكي بها « القائد » أو « الخوجة » نفسه في أعين سادته ، وهي التي تمكنه في الوقت نفسه من جمع بعض الاموال الحرام على حساب اخوانه وبني عمومته .

ولاحاجة الى التذكير بالصلاحيات الواسعة التي يملكها الحاكم الفرنسي في تعيين اعوانه من بين الجزائريين ، واذا صادف ان « لقائد » أو غيره من اولئك الاعوان لم يرق للمعمرين الاروبيين ، فليس اسهل لديهم من أن يلفقوا ضده تهمة لا يملك ضدها أي طعن ، فعزله يتم بنفس السهولة التي تم بها تعيينه . ومن ثم تجده يضطر الى مجارة الادارة . ونادرا هم اولئك الذين ينجحون في البقاء بمنصبهم دون الاصطدام مع الشرائع الاجتماعية الاكثر تمثيلا لشعبهم .

ولهذا ، بقدر ما يكون « القائد » في البلدية المختلطة مجردا من أي حق في مواجهة المعمرين والفرنسيين ، بقدر ما يتمتع بصلاحيات واسعة في مواجهة ابناء شعبه . أليس هو الذي يملك حق تحديد حصة الضرائب المفروضة على الجزائريين ، دون ان يتحكم في ذلك

الى أية قاعدة ؟ أليس هو الذي يعين عادة ، وخاصة بعد 1902 قاضيا في المحاكم القمعية التي تنصبها الادارة الفرنسية ضد « الاهالي » ؟ أليس هو الذي يفترض فيه ان يمثل منطقته في البلدية دون أن يحتاج الى تزكية الناخبين ؟ فهو يملك كل السلطة على شعبه ، دون ان يملك هؤلاء اية صلاحيات للاقتراع عليه ومحاسبته .

ولاحاجة الى التذكير بأن الشروط التي تطلبها الادارة توفرها في القائد ، لا تتصل من قريب ولا من بعيد بالكفاءة الفنية والمستوى الثقافي والتأهيل المعني .

واذا كان معروفا ان « ماهية » القائد محدودة ، مثل سلطاته الرسمية نظريا ، فقد كان معروفا ايضا انه يستطيع بوسائل عديدة ان يبني ثروة في آجال قصيرة ، لانه كان يعرف كيف ينتزع المال من الناس ويسطو على ما يملكون دون ان يملك هؤلاء حق الشكوى والنظم .

على ان هذه « الخصائص » السلبية التي تختص بها البلدية المختلطة هي نفسها التي ادت عمليا ، ودون ان تقصد لذلك الادارة الفرنسية ، الى استمرار الهوة سحيقة بين الشعب وممثلي الاحتلال .

فممثلو الادارة الفرنسية لم يكن يهمهم ان ينفذوا الى الشعب ويكسبوا وده ، طالما كانوا مدينين بوجودهم وثرواتهم وجاههم لغيره . وكان من جراء ذلك ان تطور الشعب ، وخاصة بالارياض ، في ظل العداء للادارة الاستعمارية . أليست هي التي انتزعت منه الاراضي الخصبة واضطرته الى ان يلجأ الى المناطق القاحلة والاراضي الجذباء ؟

كان عمره ، عندما توفي ابوه ، اربع سنوات . فنزله جده منزله حتى لا يحرم من الميراث . ويا له من ميراث . شجيرات زيتون محدودة العدد ، منبته في نحو من اربع هكتارات ، ينبت فيها شيء من العناب والتين ، ويمكن زراعتها بالشعير .

في مثل هذا المحيط ، لا يحتاج المرء الى اعمال الخيال كثيرا كي يستنتج ان الافاق امامه مسدودة ، وان كل الابواب في وجهه

موصودة ، ان هو رضي بالبقاء في المنطقة مكتفيا بما حفظه في طفولته من قرآن .

لكن الى أين يذهب وكيف ؟

كانت عين عمه الاكبر ، أحمد ، لا تغفو ، كانوا يسمونه الذئب . ومع ذلك فقد عزم الفتى مبارك على ان يغادر ارضه . وكان قد خبر يقظة عمه اكثر من مرة . هل تحدثه نفسه بأن يقطف تينة بعد ان يكون قد تأكد من خلو المكان ؟

انه لا يشعر الا وقد هوت على يديه عصا عمه وكأنه طلع من غار او نزل من سماء .

لذلك اعد خطة محكمة للفرار لن يتفطن لها عمه . قرر ان يكون ذلك يوم شتاء ليس مثل كل الايام . وصادف ان تساقط الثلج بكثرة . ولم نلبث ان تراكمت الثلوج بصورة تردع الحيوان والانسان ان يغامر بأنفه خارج وكره أو كوخه . لم يخطر على بال العم الاكبر مهما تخيل من حيل ان يتوقع فرار ابن اخيه في مثل ذلك اليوم . « ان الثلج يصل الى الركبة » تلك كانت عبارة الشيخ مبارك في وصف يوم الفرار من دواره ووصاية عمه . روى لي القصة في الاسبوع الاول من نوفمبر 1942 . أذكر ذلك جيدا . كنت معه بمدرسة التربية والتعليم في قسنطينة حيث قضينا ليلة في طريقنا من ميلة الى خنشلة . فقد كان على أبي ان يذهب الى هناك ليعود بوالدي التي كانت في زيارة الى شقيقتها . وكان قد استصحبها هناك قبل نحو اسبوعين مع اخوتي وتركني في ميلة وحدي حتى لا انقطع عن دراستي ، ثم عاد هو بعد ثلاثة ايام . وعندما قرر ان يذهب ليعود بأمي واخوتي اليه ان يصحبني ، فتغيب بيومين أو ثلاثة عن الدراسة لا يضر . قضينا الليلة الاولى في قسنطينة ، لانه كان علينا ان نأخذ الحافلة الى خنشلة باكرا من صباح الغد .

خلال تلك السهرة راح يحكي لي قصة فراره ، وقد رسخت القصة في ذهني لانها اقترنت لدى بشعور الاعتزاز ان اصبح والدي يأتمني على اسرار حياته .

كان فراره الى ميله ، حيث درس على الشيخ محمد الميلي ابن معنصر جدي لأمي ، وكان أئمن ما تعلمه عليه هو خشية الله والزهد في الدنيا . فقد كان الشيخ الميلي معروفا بالزهد . كان يعطي من ماله بغير حساب . ذلك ما كنت اسمع عنه منذ صغري . وتروى عنه روايات كثيرة في هذا المجال . منها ان سائلا تقدم منه ذات يوم ، وقد كان عائدا من المسجد الى منزله ، وصادف انه لم يكن لديه ما يعطيه له ، فقال له انتظري . ثم دخل الى سقيفة المنزل ، ونزع صدرته ، وكانت فاخرة واعطاها له ، متأكدا انه سوف يبيعها بأكثر من ثمنها الحقيقي ، فهناك اكثر من شخص يرغب ولاشك في شراء صدرية الشيخ تبركا .

ويروي عنه انه ، وقد عرف انه ميت لا محالة بعد طعنة سكين طعنها به مواطن بحجة انه رفض ان يفتيه بما يوافق هواه ، سامح من اراد قتله وطلب من ابنائه قبل ان يسلم الروح ، ان لا يتتبعوا القاتل قضائيا . لست أشك في ان بعضا من هذه الروح قد ورثها الشيخ مبارك عبر سلوك شيخه اكثر مما ورثها عبر دروسه . لكن التأثير الحاسم الذي تلقاه مؤلف تاريخ الجزائر ، كان هو ذلك الذي تلقاه على الشيخ محمد الميلي ابن باديس .

فقد نصحه الشيخ محمد الميلي ان يتردد على ابن باديس مؤكدا له انه سوف يستفيد بذلك اضعاف مما لو بقي في ميله .

وفعلا فقد كان لقاء مبارك الميلي مع ابن باديس يمثل نقطة تحول هامة في حياة الشيخ مبارك : فقد أخذ عنه روح النقد ، وعزز لديه الجرأة على التمرد على الاوضاع .

وعلى الرغم من انه لم يتح لي ان اعرف من أبي الكثير عن هذه العلاقة فقد أتيج لي ان أشهد ما يدل على عمقها . حدث ذلك بمناسبة موت الشيخ عبد الحميد .

اتصل أبي بمكالمة تليفونية من قسنطينة مفادها ان الشيخ مريض . أبدى تعجبه لانه كان وشيك العودة من هناك وتركه صحيحا . فهرع مسرعا . ولم يكذ يصل الى قسنطينة حتى وجده قد اسلم روحه .

وكان عليه ان يتولى تأيينه في غياب الشيخ البشير الابراهيمي الذي كان بالمنفى آنذاك . وتقدم يتلو : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الاية » لكنه لم يستطع ان يواصل التأيين ، فقام الشيخ العربي بالمهمة . ذلك ما سمعته فيما بعد . لكن الذي شاهدته بنفسى هو حالته حين عودته من الجنازة . كنا نستعد للاحتفال بعيد المولد النبوي . وكان من أحب الاعياد الى الاطفال : فيه نطلق الشواريخ ، ونفجر المحارق ونشهد احتفالات وسهرات في النادي تلقى فيها خطب تأسرنا وتشدنا وان كنا لا نفهم الكثير مما يقال فيها .

كنت أفرح بالمولد فرحا زائدا على اقواني واترابي : فقد كان من عادة أبي ان يقضي اربعة ايام من كل اسبوع في قسنطينة ، ومن ثم كان يأتي لي من هناك بأصناف من الشواريخ والمحارق لا تتوفر في اسواق ميلة ، فتكون لي فرصة للزهو على الاصحاب والاقربان .

كنت انتظر عودته بفارغ صبر . وهرعت اليه كالعادة سائلا عن المحارق ، رغم اني كنت أعرف انه عائد من جنازة الشيخ ، لم أكن مدركا لمدى التأثير الذي خلفه لديه موت الشيخ عبد الحميد . لم يستطع ان يرد علي . فقد القدرة على الكلام . ظل كذلك اياما لا يعبر خلالها عما في نفسه الا اشارة وإيماء .

وقد اطلعت فيما بعد ، على رسالة وجهها الى الشيخ البشير الابراهيمي . وكان هذا الاخير قد طلب منه ان يصف له يوم الجنازة . وقد حفظت جملة وردت في رسالة الشيخ البشير وهي قوله « لقد غبت يوم الختم ، وغبت يوم الاتم » وكان الشيخ البشير يشير الى تغب والدي عن الاحتفال الذي أقيم بقسنطينة في مناسبة الاحد . بختم الشيخ بن باديس لتفسير القرآن ، اذ كان موجودا آنذاك بفرنسا للعلاج .

وقد رد الشيخ مبارك على رسالة صديقه ، يصف له وقع الحادث عليه ويقول له فيها ما اذكر معناه :

- عندما سمعت لدى وصولي الى قسنطينة بموته شعرت ان الدورة

الدموية اصبحت تسير في عكس الاتجاه المعهود . وعرفت في الحين ان داء السكر قد عاودني وانه لن يفارقني حتى يقضي علي . وكذلك كان . فقد تضعضعت صحته بعد موت ابن باديس ولم يتمكن من متابعة القيام بدروس الجامع الاخضر التي كان يتولاها شيخه ، فتحولت الدراسة الى تبسة حيث تكفل بها الشيخ العربي .

اذن فقد كانت العلاقة التي تربط بين الميلي وباديس اكثر من علاقة بين رئيس ومروؤسه ، وبين أستاذ وتلميذه : لقد كان لها طابع روحي بحيث لم يستطع الشيخ مبارك ان يتصور استمراره في الحياة دون ابن باديس .

وتجدر الاشارة في هذا المجال الى انه على الرغم من هذه العلاقة التي كان فيها ابن باديس يمثل الرئيس والاستاذ والنموذج الى جانب الصديق بالنسبة للشيخ مبارك ، فقد كان ابن باديس هو الذي كتب أروع تقدير واشادة بمبارك الميلي عندما صدر الجزء الاول من تاريخه . فقد كتب اثر صدور ذلك الجزء رسالة الى الشيخ مبارك وجهها له من مصيف « حصن الماء » (برج الكيفان حاليا) في صيف 1928 جاء فيها قوله :

الحمد لله .

أخي مبارك ،

سلام ورحمة ، حياك الله تحية من علم وعمل وعلم ، وقفت على الجزء الاول من كتابك ، فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سوية ، بعدما كانت تلك الصورة اشلاء متفرقة هنا وهناك . وقد نفخت في تلك الصورة من روح ايمانك الديني والوطني ما سيقبها حية على وجه الدهر ، تحفظ اسمك تاجا لها في سماء العلا ، وتخطه بيمينها في كتاب الخالدين .

أخي مبارك ،

اذا كان من احيا نفسا واحدة فكأنما احيا الناس جميعا ، فكيف من احيا أمة كلها ؟ احيا ماضيها وحاضرها ، وحياتها عند ابنائها

حياة مستقبله . فليس - والله - كفاء عملك ان تشكر الافراد ،
ولكن كفاءة ان تشكر الاجيال . واذا كان هذا في الجيل المعاصر
قليلا ، فسيكون في الاجيال القادمة كثيرا . وتلك سنة الله في عطاء
الامم ونوابغها ولن تجد لسنة الله تبديلا .
وأنا - واحدا من هذا الجيل - بلسان من يشعرون شعوري ،
اشكرك لاقوم بما علينا من واجب ، لا لأقابل مالك من حق .
جازاك الله خير ما جازى به العاملين المخلصين للدين والوطن
بعلم وتحقيق وانصاف ، والسلام عليك من اخيك عبد الحميد بن
باديس .

وقد حرص الشيخ مبارك على اثبات هذه الرسالة في الجزء الثاني
من تاريخه ، لانه يعتبر ابن باديس عظيما من عظماء الجزائر ، جدير
بأن يثبت نظريته في كتابه في التاريخ الذي هو « من نتائج حياة عظماء
الامتين العربية والبربرية » حسب تعبير الشيخ مبارك نفسه .
ولابأس ان نثبت هنا رسالة لم يسبق ان نشرت ووردت الى الشيخ
مبارك من شيخه وصهره الشيخ محمد الميلي مؤرخة في 24 جويلية
1928 جاء فيها ما نصه :

الحمد لله .

ابنتا العزيز . السلام عليك ورحمة الله .
أما بعد فقد وصلني من ادارة الشهاب الجزء الاول من كتاب
تاريخ الجزائر . فلما سرحت فيه الطرف الفيته فوق ما يرام وقلت فيه
بحق ما قاله الاستاذ باديس ، وابتهجت به ابتهاجا قلبيا خصوصا
زيادة على الابتهاج العام ، لأن لي ان شاء الله من الثواب عليه
قسطا . بارك الله فيكم وأعانكم على اتمامه بمه وكرمه ، والسلام
عليكم .

من والدكم محمد الميلي

ان كلا من تقييم ابن باديس للجزء الاول من التاريخ الذي تجدر
الاشارة الى انه كان مخصصا لفترة ما قبل الاسلام - وتقييم مبارك
الميلي لذلك التقييم ، ورسالة الشيخ محمد بن معنصر الميلي ، كل

ذلك يؤكد المكانة التي كان يعطيها نخبة من مثقفي العربية للتاريخ في حركة النهضة الوطنية خلال العشرينات .

ذلك ان التاريخ كان أحد الاركان الثلاث التي اعتمدها الاستعمار لفرنسة الجزائر الى جنب محاربة الاسلام والقضاء على اللغة العربية . فقد اراد الاستعمار ان يخضع تاريخ الجزائر كما اخضع ارضها ، واراد ان يلغي الخصائص الوطنية للتاريخ ، كما حاول ان ينكر خصائصها الجغرافية عندما اعتبر ذلك ان البحر الابيض المتوسط يشق ارض فرنسا كما يشق السين مدينة باريس .

وهذا ما جعل الاهتمام الفرنسي بتاريخ الجزائر يتركز على عصور ما قبل التاريخ ، وعلى العهد الروماني والحقة الفرنسية واهمال العصور الاسلامية التي اعتبرها غوتي « عصورا مظلمة » .

وعبر المؤرخ الفرنسي المعروف - ستيفان غزيل - الذي تخصص في دراسة التاريخ القديم لمنطقة المغرب العربي - على التوجيه الذي يحرك الدراسات عندما كتب يقول : ان التاريخ يحدد لنا ايضا واجباتنا : فعلينا ان نسلح بارادة لا تقهر في ان نكون اسبادا والى الابد ، كما ان هناك ضرورة تتمثل في اقامة استعمار يعتمد على استيطان ريفي اوروبي ضخم ، وضرورة تقريب الاهالي منا على اساس الرغبة الصارمة والامل في ان يتحقق انصهارهم في مستقبل قريب أو بعيد . فالتاريخ اذن لا يعتبر في افريقية اقل العلوم جدوى .

وشيئا فشيئا ، اعيد تشكيل ماضي الجزائر بما يتلاءم مع هذا الهدف ، حتى اصبحت « فرنسة » الجزائر هي الاصل واعتبر عهدها الاسلامي ، اقتطاعا تعسفيا لهذا « الجزء من الغرب » الذي الحق بالشرق مع الفتح العربي ، حسب تعبير مارسي . بل هناك من المؤرخين الجغرافيين الفرنسيين من لم يتردد في انكار ان يكون لهذه المنطقة تاريخ : فهذا غوتي يقول متحدثا عن المغرب العربي : « هذه بلاد ليس لها اسم معروف عالميا ، مما اضطر الى اعطائها اسما

ما : ذلك انه ليس لها وجود سياسي متميز ، وبناء على ذلك لم يكتب تاريخها »

وهكذا أريد ربط الجزائر (بوصفها قلب المغرب العربي ، اذ يمكن عبرها التأثير على مجموع الشمال الافريقي) بالتاريخ الفرنسي خاصة والتاريخ اللاتيني بصورة عامة . يقول لوى بيرتران في كتابه « دماء الجذور » .

ما ان يضعف الشرق ، حتى تسقط افريقيا الشمالية في الفوضى التي لازمتها منذ الولادة أو تخضع للهيمنة اللاتينية التي وفرت لها قرونا من الازدهار ، والتي اعطتها ، لأول مرة ، شبه وحدة ، كما زودتها بشخصية سياسية وثقافية . (يقصد فرنسية طبعاً) .

ان العربي لم يقدم لها الا البؤس والفوضى والهمجية . ان كل شيء قد اتاها من الخارج من سوريا ، من فارس من اليونان من بيزنطا ، ومن البلاد اللاتينية على الخصوص .

من هنا تتبين ان المعركة التي دارت منذ العشرينات حول التاريخ الوطني ، كانت من اشد المعارك ضراوة .

ذلك ان المنظرين الاستعماريين في مسعاهم الى فرنسة الانسان بعد الارض ، وجدوا ان تزييف التاريخ وحده لا يكفي وانه لابد من اكماله بمسعى معمق على واجهتين اثنتين : تجهيل الجزائريين وحرمانهم من تعلم اللغة العربية بوصفها اداة اساسية في الاطلاع على التاريخ الاسلامي والتفاعل مع نبضه الحضاري ، وفي نفس الوقت السعي الى تجريدهم من الاسلام وتمسيح من يمكن تمسيحه منهم .

وفي اطار هذا المسعى المزدوج والمتكامل لابأس بالابقاء على شكليات وطقوس دينية تفرغ من روحها ، وتجعل الانسان الجزائري عاجزا عن مغالبة المشروع الثقافي الاستعماري الذي يقوم على الثالث المشار اليه : تحريف التاريخ ، التجهيل باللغة العربية ، افراغ الدين من مضمونه الحضاري وقوته الروحية .

وقد مرت عملية تزييف التاريخ الوطني الجزائري من طرف المنظرين الاستعماريين بعدة مراحل يمكن اجمالها فيما يلي :

اولا : محاربة اللغة العربية وتوسيع مجالات الامية . ولا يخفى ان انتشار الامية بالاضافة الى التفقير يهدد بالقضاء على انسانية الانسان فضلا عن ان تبقى لديه تعلقا بتاريخ او تعزز لديه روح البحث عن الجذور .

ثانيا : بعد تحجيف منابع الثقافة الوطنية وانسداد ابواب التعلم في وجه الجزائريين يمكن ان يسمح لهم بقدر محدود من تعلم اللغة الفرنسية التي يضطر الى دخولها بعد عزوفه عنها ومعارضة لها ، فيقبل بها بوصفها اهون الشرين وكونها تمثل شيئا هو خير من لا شيء .

ثالثا : السعي من خلال ذلك التعليم الفرنسي المحدود الى تحقير التاريخ الوطني . فمدارس التعليم المخصصة « للأهالي » لم تكن تستكف من اللجوء الى الاسفاف الظاهر عندما يتعلق بتدريس مادة التاريخ الجزائري ، بل واستعمال الكذب المفضوح .

فقد كانت تلك البرامج في بعض العهود تقدم سقوط الجزائر في 1830 امام الغزو الفرنسي في صورة « مهينة » خلاصتها ان سكان الجزائر العاصمة باعوا الجزائر للفرنسيين في مقابل « قصعة » زلاوية . .

وكان الكتاب الذي يهين التاريخ الوطني هذه الالهانة يشتمل على رسم توضيحي يمثل مجموعة من الجزائريين وقد شكلوا حلقة حول قصعة زلاوية يتنافسون على أكل ما فيها . .

فليس مثل تحقير الجذور وتشويه أعمالهم دفعا للأحفاد على التنصل من تاريخهم والبحث عن هوية جديدة .

رابعا : بعد ذلك كله تنهيا الظروف الملائمة لوضع تاريخ جديد للجزائر يتماشى والمنظور الإستعماري .

فالمسألة لا تتعلق بايجاد قراءة جديدة للتاريخ ، بل صياغة جديدة تبرزه في ثوب لا علاقة له بما كان معروفا حتى ذلك العهد . وتظهر طبيعة هذه المرحلة في نوعين من المحاولات بكمل أحدهما الآخر يتلخص النوع الأول في التأكيد على أن المغرب العربي ، كان

قبل ظهور الإسلام مسيحي الروح ، لاتيني الثقافة .
وعلى هذا الأساس ظهر المسعى الذي عرف بتحقيق « انبعث
افريقيا اللاتينية » وهكذا ظهرت مجلة تحمل عنوان « لافريقيا
اللاتينية » كانت تصدر في الجزائر وتحاول ابراز « الهوية الغربية
اللاتينية المسيحية للعالم البربري » وقد امتدت هذه المحاولة الى
المغرب الأقصى حيث استخلصت بعض الأوساط المسيحية أن سكانه
يمكن بسهولة تحويلهم الى مسيحين لأن بساطة أخلاقهم تقربهم من
المسيحية ، كما جاء في كتاب أوزج كولير الذي يحمل عنوان « بحث
في فكر البربري المغربي » .

أما النوع الثاني من محاولات هذه المرحلة ، فيتمثل بتسليط كل ما
يمكن من أضواء على العهد الروماني وابرازه في صورة العهد المشرق
النير ، وكذلك العهد الفرنسي . أما ما بينهما وهو العهد الإسلامي
على الخصوص - ف يتم تعتيمة ويعتبر عصورا مظلمة ، كما سبقت
الإشارة الى ذلك . وبهذا العمل المزدوج ، عبر هذه المرحلة
الرابعة ، تصبح العهود الإسلامية مجرد جملة اعتراضية في أسفار
تاريخ المنطقة التي تبدأ والحالة هذه بعهد روما التي تمسحت وتنتهي
بفرنسا « البنت الكبرى للكنيسة » .

إذا نحن استحضرننا أهم دعائم وأهداف المشروع الإستعماري
وخاصة ما يتصل منه بالثقافة الوطنية ، أدركنا الدور الذي يؤديه
تجديد العناية بالتاريخ الوطني ، والمغزى العميق الذي يكتسبه ظهور
كتاب باللغة العربية عن تاريخ الجزائر في عام 1928 .
ويؤكد هذه الأهمية ، أن مؤلف « تاريخ الجزائر في القديم
والحديث » ، لم تحف عليه هذه الحقائق ، فهو يؤكد في المدخل الذي
جعل عنوانه « مقدمات » مايلي :

« فإن التاريخ مرآة الغابر ومراقبة الحاضر . فهو دليل وجود الأمم
وديون عزها ومبعث شعورها وسبيل اتحادها وسلم رقيها . متى
درسه أبناء أمه واحاط أخيرا بأدواره شبابها ، عرفوا وجودهم فلم
تبتلع قوميتهم القوميات الحية النهمة المجاورة لهم ، وأدركوا ما

لماضيهم من المجد وما لإسلافهم من الشرف ، فلم يقبلوا تنقيص
المنقسين وعبث المدلسين وقدح الغرضين ، وشعروا بغز السيادة ولذة
الحياة ، فانفخوا من سيطرة المستبدين ولم يخضعوا لذل
المستعبدين »

فالهدف الوطني المتوخى من الكتاب واضح عنده . فهو يرى أن
العناية بالتاريخ تضمن إعادة ربط الشعب بمساره ، وبعث اعتزازه
بماضيه دون تمجيد أعمى ، كما يرى ضرورة اعطاء الأولوية في
الدراسات التاريخية ، للتاريخ الوطني على التاريخ الفرنسي .
ويتعرض الشيخ مبارك في « مقدمات » كتابه لهذه الأهداف ،
عندما يتناول الموضوع من زاوية واجب المثقف الجزائري إزاء
التاريخ . فقد كتب تحت عنوان فرعي هو « المتعلمون الجزائريون
والتاريخ » . يستعرض وينقد المثقفين سواء منهم الذين تعلموا
الفرنسية أو الذين تخرجوا من المعاهد التقليدية للتعليم
العربية - الإسلامي .

فهو يقول منددا بالقطيعة بين كل اصناف المتعلمين الجزائريين
وتاريخهم : « إن المتعلمين اليوم من ابناء الجزائر قطعوا الصلة بينهم
وبين ماضيهم فجهلوا ما فيه عز وذل ونعيم وبؤس ومدنية
وهمجية وسيادة وعبودية .

ثم يحلل المسار الذي أدى الى تجهيل المتعلم الجزائري ، بتاريخه .
فعن خريجي المدارس الفرنسية يقول : « ترى المتعلم بالمدارس يعرف
من تاريخ بعض الأمم الأجنبية وما يجدر به أن العلم مثله من تاريخ
شعبه ولا يحسن منه تقديمه عليه فكيف بالإقتصار عليه والإكتفاء به ؟
إن النسبة بين التاريخين : الشعبي والأجنبي ، مثل النسبة بين
الضروري والكمالي ، انما يحصل له هذا المثل اذا جاء بعد الضروري
فإن سبقه لم يكن كماليا وكان ضرره اكثر من نفعه .

ومن مضار تقديم تاريخ الأمة الأجنبية قصر الكمال والسيادة عليها
وحصر المعارف والحضارة فيها وذلك تزهد للمتعليم في وطنه وتنفيره
من بني جنسه .

ولقد بلغت الحال ببعض هؤلاء المتعلمين أن صار ينظر الى جنسه
نظر المؤرخ الى ما قبل التاريخ . فإذا دار الحديث على الشعوب
وقسطها من الحياة وافضى الى قومه رأيته - من جهله بتاريخهم -
يستدل على حياة الماضين بحياة الموجودين ويستنتج من ذلك أن لا
حضارة للأوائل انما هم قوم عاشوا في الهمجية وسقوط الأخلاق
بعيدين عن نظم الحياة وفقه طبيعة الكون وسنن العمران ، ويرى انه
اعتمد في هذا الحكم القاسي الجائر على أعدل شاهد : قياس الغائب
على الشاهد وانه لقياس فاسد وماذا عسى أن تبلغ قيمة قياس دعامته
الجهل ؟

ثم قد يترقى في حكمه ويلحق المستقبل بالماضي فيقضي على
مستقبل أمته بالشقاوة والتعاسة ويرى أن داءها عياء لا يوجد له دواء
وربما طلب لها من الأدوية ما هو عين الداء .

ومن الواضح أن في هذه الفترة تلميحا مفهوما الى بعض النتائج
التي تترتب على المشروع الثقافي الإستعماري في ما يتعلق بالتجهيل
بالتاريخ الوطني وتعميمه ، والتي تتمثل في الميل إلى الإدماج باعتباره
علاجاً وحيداً في حين أنه « عين الداء »

أما العربون خريجو المعاهد العربية - الإسلامية فقد انتقدتهم
بلجة تساوي في قساوتها اللهجة التي انتقد بها الفرنسيين ، إذ يقول
فيهم ما يلي : « وهناك متعلمون تعلموا بالمساجد مبادئ بعض
العلوم اللسانية والدينية واهملوا من برامج قرأتهم التاريخية فإذا فارقوا
المساجد وقدر لبعضهم أن يحيا حياة علمية ، الفيتة يقتصر على
مراجعة مآدرسه من الكتب ، وأن دعت الهمة احدهم الى التوسع
ففي الفنون التي اخذ مبادئها بالمسجد .

فرطوا بذلك في قراءة علم يعود على اخلاقهم بالتهذيب وعلى
عقولهم بالتدريب على التفكير ، ذلك علم التاريخ وتلك فوائده .
وان منهم لقوم مخربون عقولهم بأيديهم ويطفثون نور الله -
العقل - بأفواههم ، ذلك باشتغالهم بقراءة كتب المناقب والخوارق
وانها لكتب سيئة الأثر في النفوس .

ثم يقول : فلو اشتغل هؤلاء القوم - بدل هذه الكتب سيكتب تاريخ البشر وحياة الأمم لآثاروا عقولهم واطلقوها من ذلك السجن تكتشف من خبايا الأيام وخفايا الطبيعة وما يعود على الإنسانية عامة وبني جنسهم خاصة بالفوائد الجليلة .

إن النفس الوطني في كتاب « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » واضح ، فنحن نشمه ونعثر عليه في كل ابواب الكتاب ، بما فيها الباب الذي خصصه لجغرافية الجزائر الطبيعية .

ففي الفقرة الثامنة من هذا الباب - وهي التي تحمل عنوان « الغابات والنباتات الطبيعية » يقول على الاخص :

« ليس في استطاعة احد أن يحصي نباتات الوطن الجزائري . ولكنها على كثرة اصنافها ، وعظم فوائدها ، لا ينتفع بها الجزائريون إلا انتفاعا بسيطا .

فلو علموا خصائصها واحياو علم الكيمياء لخدموا الطب خدمات جليلة ، وكان لهم البقاء في الميدان الإقتصادي . وليس هذا بالأمر الوحيد الذي فرط فيه شعبنا . فمتى يتنبهون من هذه النومة التي كاد أمرها يجاوز أمد نومه القبر ؟ فيتلافون ما فرطوا فيه ويجدون فيها تكاسلوا عنه » .

وإذا كان القرني قد ستخلص من هذه الفقرة نتيجة يأس مطلق ، فإن الشيخ مبارك يسارع في الفقرة الموالية الى تأكيد الإيمان بالمستقبل ، رغم حاضر مظلم ، فيقول :

« لا يمكن أي أحد أن يتكهن باليوم الذي تبعث فيه الأمة الجزائرية من مرقدها ، فإن المستقبل لله وحده ، ولكن لا نياس من هذا اليوم الميمون فإنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون . ونحتم باب الجغرافية الطبيعية بجملة لا تحتاج الى تعليق ، هي قوله :

« بل كون وطنه (أي الجزائري) بتلك الدرجة من الحسن مما يزيد في حسرته ، ويحملة على تدارك هفوته الى التفكير في غده وبناء صرح سعادته بيده » .

لقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب ، في صيف 1928 ، أي قبل عامين من احتفال الفرنسيين بمرور قرن على الإحتلال ، ومعنى ذلك أن العمل من أجل إيقاظ الروح الوطنية قد بدأ قبل الصدمة التي أحدثتها تلك الإحتفالات الصاخبة . فالقراءة المتمعة لهذا الكتاب تكشف عن بدايات مشروع ثقافي وطني لإحباط المشروع الإستعماري في المجال الثقافي الذي أشرنا اليه ، فالشيخ مبارك ، ينص في أكثر من مكان ، على كل ما من شأنه أن يوحد الشعب ، ويقضي على عناصر التفرقة . فهو يعتز ، في الجزء الأول المخصص للفترة السابقة على دخول الإسلام ، بشخصيات أمازيغية مثل ماسنيسا ويوغرطا وتاكفاريناس . بل أنه ، هو العالم المسلم ، يشيد بشخصية مثل « الكاهنة » مدفوعا بروح وطنية لم ينل منها حماسه للإسلام وتدينه الشديد ، فهو يقول عن الكاهنة ، رغم انها حاربت المسلمين .

« ... وكل من ينظر الى التاريخ بعين الحقيقة يراها دُرَّةً في جيد تاريخ المرأة لما كانت عليه من حسن التدبير وشدة البأس وصدق الدفاع عن الوطن والثبات على المبدأ » .

لأن المسعى الذي اعتمده رجال الإصلاح الديني في مجال التاريخ لم يكن يضع تاريخ الجزائر قبل الإسلام موضع تعارض مع تاريخ الجزائر الإسلامية ، بحيث ينفي احدهما الآخر . لأن هذا المسعى يعتبر ظهور الإسلام بداية تحول عميق في جميع الميادين ، سياسيا وثقافيا واجتماعيا انصهرت به المجتمعات الأمازيغية ، من حضر وبدو في الإسلام عقيدة وثقافة وممارسات .

فالشيخ مبارك الملي مثلًا ، الذي ينسب نفسه الى بني هلال لم يكن يرى أي حرج في أن يطلق على الدول التي استستها اسر وقبائل بربرية في العهد الإسلامي ، عنوان « العصر البربري » لأن الممالك والإمارات التي قامت بالمغرب العربي على سواعد قبائل بربرية ، لم تقم على أساس عرقي ، ولم تكن تمردا على الإسلام ، بل كانت تستمد تبريرها من المذاهب الإسلامية : فالدولة الرسمية والعبودية

والادريسية أو المرابطية كانت كلها محاولات لتجسيم مبادئ حكم وفلسفة ونظام ، نادت بها مذاهب اسلامية نشأت بالشرق . بل أن الدعوة الموحدية التي ظهرت على يد بربري أصيل هو « ابن تومرت » كانت محاولة للجمع بين ما جاء من القول بعصمة الإمام المهدي ، مثلما كانت من بعض الوجوه محاولة لتطبيق بعض تعاليم الغزالي ضد التفريقات الفقهية الجامدة .

إن تحليل تناول الشيخ مبارك للتاريخ الجزائري ، يكشف عن مسعى وطني واضح من أجل توظيف التاريخ في أيقاظ الشعور القومي ، وفي خدمة مفهوم للوطن ومشروع للثقافة لا يمكن إلا أن يكون متناقضا مع استمرار الإستعمار .

ويمكن أن نتبين مقصد الشيخ مبارك من أول صفحة في كتابه وهي التي تتضمن كلمة الإهداء . فهو يهديه الى « الشعب الجزائري » والى « شبابه المفكر ورجاله العاملين والمخلصين » ويعلل سبب الأهداء للشعب بأن الشعوب أصبحت تعرف اليوم « أن ارادة الحاكم انما تتقوى من جنبهم وجودهم ، وأن الإرادة الحقيقية التي بيدها رفع مستوى الأمم هي ارادة الشعوب » .

وهو نفسه ، عندما يناقش اطروحة بعض المؤرخين الإستعماريين الذين يريدون ربط ماضي الجزائر بأوروبا تمهيدا لفرنستها ، يقول عنه أنه يريد أن « يمزق الجنس البربري كل ممزق ويفرقه شذر مذر ويوزعه على أمم أوروبية بالخصوص كي تذهب وحدته ، ويسهل على البلعوم الأوروبي ابتلاعه . . . وتلك امنية يحلم بها بعض مرضى العقول من السياسيين ، ولكن لن يلج الجنس في جنس آخر حتى يلج الجمل في سم الخياط » (أي انه يجعل الإدماج مستحيلا استحالة دخول الجمل في ثقب الإبرة) .

وبعد أن العمل الذي قام به الشيخ مبارك المبلي في تأليفه لهذا الكتاب ، بتلك الروح والإعتزاز بكل الماضي قد أدى خدمة كبيرة الى المسعى الوطني العام من أجل اعطاء مضمون حي لفكرة الوطن

الجزائري الذي تكون عبر التاريخ . ذلك المسعى الذي انتصر في
النهاية على المسعى الإستعماري الذي اراد أن يتجاهل التكامل بين
عهد ما قبل الإسلام وما بعد الإسلام ، وحاول أن ينكر عمق التغيير
الذي أحدثه الإسلام وحضارته العربية اللسان .

أن الشيخ مبارك الميلي في أخذه بالمفهوم الوطني ودفاعه عن وحدة
التاريخ الجزائري كان أكثر تجاوبا مع منطق التاريخ وأنفذ إلى حقائق
الأشياء من أولئك المنظرين الإستعماريين الذين كانوا يحملون باجترار
الماضي اللاتيني ، وتكريس الحاضر الفرنسي ، والذين كانوا
يتصورون أنه في امكانهم تذيب كيان عريق التاريخ ، اسلامي
الروح ، عربي اللسان .

محمد الميلي

الكتاب الأول

في تاريخ الجند قبل الاستيلاء العربي

تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء العربي

يتضمن هذا الكتاب الكلام على قدماء الجزائر أهل العصر الحجري والكلام عن البربر الذين عمروا هذا الوطن منذ دهور لا يعلم مبتدأها إلا العليم الخبير واستقروا به حتى عرف بهم ونسب اليهم ؛ والكلام على الدول التي سادت البربر فيه : وهي : دولة الفينيقيين ودولة الرومان ودولة الفندال ودولة الروم ويتقدم ذلك كله القول في جغرافية هذا الوطن الطبيعية •

فانحصر هذا الكتاب في سبعة ابواب :

الباب الاول في ذكر قدماء الجزائر أهل العصر الحجري •

الباب الثاني في ذكر البربر واصولهم وقبائلهم وما يرتبط بحياتهم

الباب الثالث في ذكر الفينيقيين وأخبارهم •

الباب الرابع في ذكر البربر وملاوكتهم على عهد قرطاجنة ورومة الجمهورية •

الباب الخامس في ذكر الرومان واحوالهم مع البربر •

الباب السادس في ذكر الفندال ومآل أمرهم •

الباب السابع في ذكر الروم ومصير دولتهم •

جغرافية الجزائر الطبيعية

1 - تمهيد

الجزائر اسم لمدينة عظيمة على البحر الرومي ؛ تعرف قبل مجيء العرب باسم اقسيوم (ICOSIUM) .
ولم تكن تطلق على وطن مترامي الاطراف الا منذ العصر العثماني حيث اتخذ العثمانيون هذه المدينة عاصمة لمملكة ذات حدود مقررة فاشتق اسم الوطن من اسم عاصمة دولته الجزائر . هذا المعنى الحديث جزء من وطن كبير عرف من قبل مجيء الفينيقيين باسم ليبية وهو عبارة عن طرابلس وتونس والجزائر ومراكش قال البكري : « ليبية سميت ببنت باقوه بن يونس الذي بني مدينة منفيش⁽¹⁾ بمصر وهي التي ملكت ملك افريقية اجمع فسمى بها⁽²⁾ » ثم انسلخت الجزائر وما والاها غربا من هذا الاسم وكان الجغرافيون اليونانيون واللاتينيون يقسمون هذا الوطن الذي عرف أخيرا باسم الجزائر الى ثلاثة أقسام :

1 - مصيصيليا (MASSESYLIE) وهو عبارة عن سهول سطيف وبرج بوعريريج وتل عمالتى الجزائر ووهران الى وادي ملوية غربا .

2 - مصيليا (MASSILIE) وهو باقي عمالة قسنطينة وغرب عمالة تونس الى طبرقة ثم صارت مصيصيليا تعرف بموريطانيا الشرقية ومصيليا بنوميديا .

3 - جيتولية (GETULIE) وهو عبارة عن صحراء موريطانيا ونوميديا ولما جاء العرب اطلقوا اسم المغرب على ما بين برقة شرقا والمحيط الاطلانتيكي غربا ، والبحر الرومي شمالا والصحراء الكبرى جنوبا . وانما سموه المغرب لوقوعه غرب وطنهم جزيرة العرب . ثم قسم العرب المغرب الى أدنى وأوسط واقصى ؛ وذلك بالنسبة لشرقهم .

(1) - حكم مصر قبل الميلاد (26) أسرة من لدن الألف الخامس الى المائة السادسة ، وكانت منفيش قاعدة الاسر العشر الاولى منها التي عاشت ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة .

(2) - المغرب ص 21 .

- 1 - المغرب الأدنى هو ما بين برقة شرقا وبجاية غربا
- 2 - المغرب الاوسط هو ما بين بجاية شرقا ووادي ملوية غربا
- 3 - المغرب الاقصى هو ما بين وادي ملوية شرقا والبحر المحيط غربا وأطلقوا اسم قسطنطية على ما يعرف اليوم باسم الجريد وهو جزء من جيتولية حسب اصطلاح من قبلهم . فلعل لفظ قسطنطية مأخوذ من جيتولية بضرب من التغيير وقد كان الرومان يسمون عمالة تونس افريقية «AFRIQUE» ولما جاء العرب استعملوا هذا الاسم بازاء معان ثلاث :

قال صاحب المؤنس : تطلق افريقية على القيروان خاصة ؛ وعلى ما بين وادي الطين وبلدة باجة ؛ وعلى المغرب كله .

ولما قسم المتأخرون الكرة الارضية الى قارات خمس اطلقوا اسم افريقية على القارة الواقعة ما بين المحيط الاطلانتيكي غربا ؛ والمحيط الهندي والبحر الأحمر شرقا ؛ والبحر الابيض شمالا ؛ وملتقى المحيطين جنوبا . واذ ذاك اطلقوا على المغرب اسم افريقية الشمالية .

ان المغرب بجميع اقسامه - او افريقية الشمالية - منفصل عن بقية افريقية بصحار يتعذر سلوك بعضها ويتعسر سلوك بعض آخر ؛ لذلك ضعفت الروابط بينه وبين اقسام بقية القارة حتى كاد لا يعد منها ؛ وهو يكون وحدة جغرافية وجنسية ودينية وتاريخية : فان هواه واحد وطبيعة أرضه واحدة ؛ وسكانه من قديم الجنس البربري ؛ وديانته - قديما - الوثنية ثم جاءت المسيحية فكادت تعم عليه ثم جاء الاسلام فلم يدع قلبا الا فتحه واستقر به الاستقرار النهائي ؛ والأمم التي فتحته قبل الاسلام وبعده كان فتحها متحدا وان اختلفت جهته ؛ فالرومان - مثلا - لكونهم بحريين جاءوه من الجهة الشمالية ؛ والعرب لكونهم اهل صحار جاءوه من الجهة الجنوبية .

2 - الحدود

قد علمت ان وطن الجزائر عبارة عن موريطانيا الشرقية ونوميديا وجيتولية فحده الشمالي البحر ؛ وهو الحد الطبيعي للمغرب كله .

وحده الجنوبي العرق وهو عبارة عن سلسلة جبال رملية تبتدىء من المحيط غربا وتنتهي شرقا بالنيل المنحدر من الجنوب الى مصر ؛ وهذا هو الحد الطبيعي لجنوب المغرب ايضا .

وحده الغربي وادي ملوية الذي هو حد موريطانية الشرقية ، وحده الشرقي طبرقة التي هي حد نواميا .

تقرر هذا الوطن على هذه الحدود منذ العصر القرطاجني ، وينقسم داخله انقساما اداريا الى ايلات تختلف باختلاف انظار الدول والملوك .

وربما قام ببعضها امراء مستقلون ولم تزل تلك الحدود مرعية الى ان ملك آل عثمان من الترك هذا الوطن فنقصوا من حدوده الشرقية والغربية .

صار الحد الشرقي للجزائر - اذ ذاك - يمر شرق تبسة وسوق اهراس ومرسى القالة . والحد الغربي يمر غرب للامغنية وجبال ندرومة .

وبهذه الحدود الاخيرة صار الوطن الجزائري يشتمل على (700,000) ميل مربع تقريبا (الميل الفا ذراع) .

فاذا ألقيت نظرة على الحدين الغربي والشرقي الفيتهما غير طبيعيين فلم تكن للوطن الجزائري وحدة جغرافية الا في ضمن المغرب .

واذا نظرت الى قدم حدوده وانها كادت تعاصر فجر التاريخ رأيت ان له شبه وحدة تاريخية وسياسية .

وقلما تجد أرضا ميزتها الطبيعية بتلك الحدود مثل أرض المغرب .
وقلما تجد وطننا ذا حدود عريقة في القدم مثل الوطن الجزائري .

3 - جو الوطن الجزائري

الوطن الجزائري واقع بالمنطقة المعتدلة ولقربه من خط الاستواء كانت برودته اضعف من حرارته . وقد تأثر جوه بالبحر شمالا والصحراء جنوبا ، فكانت الجهات الشمالية على غاية من الاعتدال : اذ البحر يضعف حرارة الصيف بمياهه ويخزنها فاذا كان الشتاء قاوم برودته بابخرته السخنة ؛ فيعتدل الجو - تقريبا - صيفا وشتاء . أما الجهات الجنوبية فهي شديدة الحر لأن الصحراء تدفع حرارة الصيف ولا تخزنها ؛ واذا جاء البرد لم يجد ما يقاومه فيشتد ايضا .

أما من حيث المطر وعدمه فإن الوطن الجزائري ليس له في الحقيقة
 الا فصلان : فصل الامطار ؛ وفصل اليبس ج والاول يتبدى من
 منتصف الخريف الى مضي شهرين من الربيع . واكثر ما يكون المطر في
 الشهر الاخير من الخريف وشهور الشتاء الثلاثة .
 والثاني يتبدى من أواخر الربيع الى منتصف الخريف . وفي بعض
 هذه المدة تشتد الحرارة وتقلق البشر خصوصا اذا هبت ريح السموم .

4 - الشاطئ الجزائري

الشاطئ الجزائري - كشواطئ اقسام المغرب - كاد يكون خطا
 مستويا . ولذلك قلت رؤوسه وخلجانه وكانت مراسيه قليلة العمق .
 وطوله حسب الحدود الحالية (1200) ميل .

والرؤوس الكبار بهذا الشاطئ هي :

رأس فلكون ، رأس إيفي ، رأس كاكسين ، رأس مطيفو ، رأس
 كربون ، رأس بوقرعون ، رأس الحديد ، رأس القارد .
 والخلجان الكبار هي :

خليج وهران ، خليج رزيو ، خليج الجزائر ، خليج بجاية ، خليج
 استورة ، وخليج بونة .
 ومراسيه المشهورة هي :

مرسى وهران ، مرسى تنس ، مرسى شرشال ، مرسى الجزائر ،
 مرسى الرجاج ، (وهو مقابل لجزيرة ميورقة) ، مرسى بجاية ، مرسى
 جيجل ، مرسى القل ، مرسى استورة ، (قرب سكيكدة) ، مرسى
 بونة ، مرسى مدينة الخرز (وهي القالة) .

وقد ذكر البكري⁽¹⁾ مراسي كثيرة اضربنا عن بعضها لقلة اهميتها كما
 اضربنا عن رؤوس كثيرة وخلجان غير قليلة لضعف فائدة تعدادها .
 وتوجد للجزائر جزائر ذكرها البكري⁽¹⁾ أيضا ولكن لم ارداعيا لسردها .
 واما شبه الجزائر فأهمها شبه جزيرة سيدي فرج التي نزلها الفرنسيون في
 ذي الحجة ويوبيه (جوان) عام 1245 - 1830 .

(1) المغرب ص 81 - 83 .

5 - جبال الجزائر

تتكون جبال الجزائر من سلسلتين متوازيتين آخذتين من الغرب الى الشرق . تفرق بينهما الهضاب غربا وتكادان تتلاقيان بعمالة تونس . تعرف السلسلة الشمالية منها بالاطلس التلي ؛ والجنوبية بالاطلس الصحراوي . ولا يتجاوز ارتفاع السلسلتين عن البحر الميلين الا قليلا . وجبال الاطلس التلي اكثر ارتفاعا من جبال الاطلس الصحراوي .

وتتفرق جبال الاطلس كليهما أما بسهول واما بمضائق . وتختلف اسماءهما باختلاف القبائل المجاورة لها . ففي كل مكان يطلق اسم خاص على جبال تينك السلسلتين .

فمن جبال الاطلس التلي جبل تنوشي ، بجهات تلمسان ارتفاعه (2680) ذراعا . جبال الضاية ، جبال سعيدة ، جبال وانشريس ما بين وادي مينة ونهر واصل اعلاها جبل عين الدنيا . ارتفاعه (3070) ذراعا . في سمتها شمالا جبال الظهرة ، ارتفاعها ميل وجبال زكار ارتفاعها ميل ونصف . جبل كزول (او جزول) مشرف على تاهرت وهي في سفحه . جبال تيطري (3200) ، ما بين منعطف وادي شلف الى الغرب وسهل وادي الساحل ، والى شمالها سهول متيجة ، جبل شنوة . جبال جرجرة . منها جبل لالا خديجة ارتفاعه ميلان وستائة وست عشرة ذراعا . جبال سور الغزلان يبلغ بعضها (3600) . جبال بابور ، يقرب بعضها من ميلين ، جبال الرحمن . وهي ما بين مرسى الزيتونة (شرق مرسى جيجل) ومرسى القل . قال البكري «وهو كثير الثمار والانهار ، يسكنه قبائل من كتامة وغيرها ، وفيه مزارع كثيرة ومراع مربعة ، ومنه يحمل عمود الخرط الى افريقية وما والاها ، وفيه اسواق كثيرة ومراسي»⁽¹⁾ ، جبل ايدوغ ناحية بونة يبلغ ميلا .

ومن جبال الاطلس الصحراوي جبل بني راشد (وهو جبل عمور) من قننه ما يبلغ (3600) ، جبال الصحاري ، جبل أوراس ، به أعلى

(1) المغرب ص 83 .

جبل في الجزائر يعرف بشلية يبلغ علوه ميلين وستمائة وستا وخمسين ذراعا . وجبال أوراس لها شبه بجبال القبائل ، ويجمع بين الاطلسين جبال الحضنة .

6 - مياه الجزائر

ان للجبال دخلا في كثرة المياه وقلتها . فمتى ارتفعت الجبال جلبت اليها السحاب فينزل المطر وكلما ازدادت الجبال علوا ازداد المطر كثرة . وجبال الجزائر ليست متناهية في الصعود كما في بعض اوطان جنوب أوروبا فكان المطر بها غير متناه في الكثرة . ولكنه واف بغرض أهل الوطن . فقد تكونت منه أودية كثيرة وبحيرات كبيرة وحمامات شهيرة . وهي مفيدة للوطن .

فان من الأودية ما تقام فيه السدود وينتفع بمياهه في سقي البساتين والحقول وتجعل عليه الارحاء لطحن الحبوب ، ومن البحيرات ما يستخرج منه الملح خصوصا في الصيف عند ما تيبس ، ومن الحمامات ما يقصد للترهة والخلاعة والتداوي من بعض الامراض .

اما الأودية فليست من الانهار العظيمة ولا يكثر الماء بها الا شتاء بعد نزول الامطار الغزيرة ، وفي الصيف بعضها ييبس وبعضها تبقى به مياه قليلة . ولذلك لا تقل السفن العصرية الضخمة ولكن السفن القديمة كانت بعض الأودية تتحملها مثل وادي شلف ووادي سيبوس وقد ذكر البكري⁽¹⁾ عن وادي قسنطينة انه تجري فيه السفن ، وذكر مثل ذلك عن نهر تافنا⁽²⁾ .

ومن الأودية الكبرى التي تصب في البحر : نهر تافنا ونهر المقطع (ويظن بعض المؤرخين انه هو الذي كان يدعى مولوشات) (MOLOCHATH) نهر سيك ، (واظنه نهر سيرات) . وادي شلف وهو اطول أودية الجزائر اذ يبلغ طوله (700) ميل ، ومنبعه من جبل بني راشد ويذهب شمالا مع ميلان الى الشرق أو الغرب في بعض الاماكن ، يمر ببوغار ثم ينعطف الى الغرب ويصب في البحر

(1) المغرب ص 63

(2) المغرب ص 77

شرقي مستغانم . وتمده في طريقه أودية أخرى ويسمى في أوله وادي الطويل . وادي اسر . وادي سيباو . وادي الساحل يجتمع بوادي بوسلام ويسمى بعد ذلك سهام ؛ ويقسم القبائل قسمين : القبائل العظيمة - لارتفاع جبالها - غربا ، والقبائل الصغيرة شرقا . وادي الرمل - او الواد الكبير - (ويعرف قديما وادي مساغا) (AMSAGA) ومنبعه قال البكري : «من عيون تعرف بعيون أشقار . تفسيره سود»^(١) يأتي من غرب قسنطينة ويمر بشرقها ثم يذهب شمالا وتمده أودية كثيرة في طريقه . وادي سيبوس يمر بقالة ويعظم في آخره . ومن الاودية التي لا تصب بالبحر : وادي الشعير . منبعه بشمال جبل بوكجيل ويصب في شط الحضنة .

نهر سهر منبعه من نواحي برج الغدير ومصبه في شط الحضنة ايضا ويعرف اليوم بوادي القصاب . وادي مزي منبعه بجبل بني راشد وتطلع فيه عيون ثرارة قرب قرية الاغواط بمكان يعرف برأس العيون ومنها شراب الاغواطيين ويسقي بساكنهم . ويعرف في شرقه بوادي جدي . ويصب بشط ملغيغ جنوب بسكرة . وأما البحيرات فهي ملححة ولا يوجد بها الماء الا فصل الامطار . ولا نجاس مياهها قد تنشأ عنها الحمى ، ولذلك غوروا مياه بعضها كبحيرة عنابة وتعرف ببخيرة فزارة ، وبحيرة هلولة بسهول متيجة ، وسبخة وهران .

وبحيرات الجزائر منها ما هو متسع جدا ومنها ما هو قليل الاتساع . ويعبر عن المتسع منها بالشط وعن قليل الاتساع بسبخة او زاغر او ضائه .

اما الشطوط فتكون بالمضاب والصحاري ومن أشهرها : الشط الغربي في حدود الجزائر غربا ، الشط الشرقي فيما بين جبل بني راشد وجبال سعيدة ، شط الحضنة جنوب المسيلة ، شط ملغيغ جنوب بسكرة ، أما البحيرات الصغيرة فمنها زاغر الغربي بالشمال الغربي من الجلفة ، زاغر الشرقي بالشمال الشرقي منها ، البحيرة في عمالة قسنطينة تقطعها السكة الحديدية الذاهبة من قسنطينة الى باتنة . وأما الحمات

الطبيعية فهي كثيرة وموجودة بجميع جهات الوطن الجزائر . منها بعمالة
وهران حمام بوحجر ، حمام بن حنيفة . وبعمالة الجزائر حمام ألوان ،
حمام ريغة . وبعمالة قسنطينة حمام أولاد زاير غرب ميله ، حمام بني
هارون شالها ، حمام المسخوطين قرب قالمة . حمام بسكرة .

والعجائز ومن في معانهم من ضعفة العقول ومعبدي الجهل يعتقدون
ان لهذه الحمامات ميزة وفيها سرا الالهيا فيدعونها حمامات الصالحين
ويقصدونها للتبرك ؛ والعواقير يستحمن بها رجاء النسل . ومن سخافة
عقول هؤلاء المساكين - رجالا ونساء - اعتقادهم أن الجن هم الذين
يتولون تسخين تلك المياه ليستحم فيها سليمان عليه السلام لجهلهم
موته . والقرآن ذكر ان الجن جهلوا موت سليمان ثم علموه عندما أكلت
دابة الارض من منساته وخر على الارض . ولكن الجهال ينسبون الى
الجن كل ما جهلوا اصله من الامراض وغيرها .

7 - مناظر الجزائر

تنقسم الجزائر الى ثلاث مناطق طبيعية متوازنة آخذة من الغرب الى
الشرق :

المنطقة الاولى التل والثانية الهضاب والثالثة الصحراء .
1 - التل : هو المنطقة التي على ساحل ابحر وتأخذ في الارتفاع حتى
تبلغ الاطلس التلي . وما يلي البحر منها يدعى السواحل . وبمجاورته
للبحر صار جوه متوسطا بين الحرارة والبرودة . والشتاء فيه حسن
جدا . وأرضه ذات سهول وجبال فكانت صالحة لضروب كثيرة من
الفلاحة . اما جباله فقد تقدمت ، وأما سهوله فهي خصبة مأمونة
الري . منها سهل وهران مغموور شطره بسبخة وهران . سهل سيك
ويسقي من واديه⁽¹⁾ . سهل شلف وهو حار وله مواد كافية لسقيه
مستطيل قليل العرض واقع بين جبال الظهرة وزكار شمالا ، وجبال
وانشريس جنوبا . سهل متيجة (تعرف قديما بقزرونة) وهو اخصب
سهول الجزائر واقع بين ساحل الجزائر شمالا ووطن القبائل شرقا وجبال
البليدة ومليانة جنوبا . سهل حمزة بوطن القبائل . سهل عنابة وهو شبيه
بسهل متيجة لولا ما به من كثرة الحمى الناشئة عن بحيرة فزارة .

2 - الهضاب : وهي المنطقة الوسطى ذات سهول عالية يبلغ متوسط ارتفاعها (1600) ذراعا ؛ وقد تصل (1800) . وبها منخفضات تتكون في بعضها بحيرات . هواؤها جاف : لأن جبال الاطلس التلي تمسك عنها السحاب وجبال الاطلس الصحراوي - لتفرقها - لا تمسك عنها الرياح السائم . وتختلف حالها صيفا وشتاء اختلافا كبيرا وكذلك لا تجد المناسبة بين ليالها ونهارها : الشتاء بارد جدا وفي بعض الاماكن تسقط الثلوج بكثرة ؛ والصيف حار ولكن لياليه معتدلة حسنة . والرياح بالهضاب كثيرة والحمى نادرة . ومن الهضاب الواسعة هضبة الحضنة تكثر بها الرمال وهي في جفاف هوائها وحرارة طقسها شبيهة بالصحراء .

3 - الصحراء : هي المنطقة الجنوبية وغالب أرضها رمال تذررها الرياح . ولكن بها واحات جميلة ذات مياه مطردة يغرس عليها النخيل وانواع من الاشجار ويسقى بها بعض الخضر وقليل من الزرع . وبها هضاب لا تنبت شيئا تدعى «الحمادة» وكثبان من الرمل تمسك الندى فينبت بها بعض الاعشاب ترعاها الجمال . وبها أودية لا تجري بالماء الا بعد نزول المطر الغزير . ومن واحاتها قرارة بوطن توات واكبر قراها عين صالح ؛ واحة فجيج شمال توات ؛ واحة المنيعه ؛ واحة ورجلة .

8 - الغابات والنباتات الطبيعية

الجبال الجزائرية كلها ذات اشجار متنوعة ونجوم مختلفة . وليست الاشجار والنجوم مختصة بالجبال بل توجد في غيرها ايضا . ومن الغابات الشهيرة غابة ثنية الأحد ، غابة عزازقة بوطن القبائل ، غابة بابور ، غابة سوق اهراس ، غابة أوراس . ومن الاشجار البطم ، والبلوط ، والخروع ، الخرنوب ، الخلاف (وهو الصفصاف) الدردار ، الدفلى ، الضال ، الضرو ، السرو ، الصنوبر ، الارز ، العرعر ، العشرق ، الطرفاء ، القصب ، الكافور ، الكرم ، النبق ، النشم ، الريحان ، الكروش ، ومن النجوم لبهار ، الحرشف (والعامة تقول الحرشف) الحرمل ، الحسك .

الحنظل ، الخبازي ، السلق ، شقائق النعمان ، عنب الثعلب ،
العرفج ، الكراث ، الكرفس ، البرجس ، الصعتر ، الديس ،
الحلفاء ، الدرين ، والثلاثة الاخيرة كل منها مختص بمنطقة : الديس
بالتل ، الحلفا بالهضاب ، الدرين بالصحراء .
ليس في استطاعة احد ان يحصي نباتات الوطن الجزائري . ولكنها
على كثرة اصنافها وعظم فوائدها لا يتفجع بها الجزائريون الا انتفاعا
بسيطا .

فلو علموا خصائصها واحبوا علم الكيمياء لخدموا الطب خدمات
جليلة وكان لهم السبق في الميدان الاقتصادي . وليس هذا بالأمر
الوحيد الذي فرط فيه شعبنا . فمتى ينتبهون من هذه النومة التي كاد
امرها يجاوز امد نومة القبر ؟ فيتلافون ما فرطوا فيه ويجدون فيما تكاسلوا
عنه .

لا يمكن أي احد ان يتكهن باليوم الذي تبعث فيه الأمة الجزائرية من
مرقدها فان المستقبل لله وحده ، ولكن لا نياس من هذا اليوم الميمون
فانه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون . أليس الله بقادر على
ان يحيي الموتى بلى انه على كل شيء قدير .

9 - الحيوانات الوحشية

يعيش في غابات الجزائر وفلواتها حيوانات كثيرة لا يأتي عليها العد .
ولكن اذكر بعضا من ذوات الاربع والطيور والحيات .
فمن ذوات الاربع الأرنب ، الأسد ، ابن عرس ، ابن آوى ،
الثعلب ، الخنزير ، الذئب ، سنور البر ، الضبع ، القرد ، الكركند ،
كلب الماء ، النمر ، اليربوع ، القنفذ ، الضربوب ، الغزال ،
الوعل .

ومن الطيور البازي ، البيغاء ، الليل ، البوم ، الحباري ، الحدأة ،
الحمام ، الحجل ، الخفاش ، الرخمة ، الزرزور ، الساني ، الصقر ،
العصفور ، العقبا ، الغراب ، القنبرة ، القطا ، الكروان ، النعامة ،
النسر ، الهدهد .

ومن الحيات الافعى ، الثعبان ، العقرب ، الحرباء ، الضب ،
الورل .

ان في وفور السباع العادية والحيات السامة ما يقوي الذكاء ويعين
على الاختراع لأن مجاورها مضطر الى وقاية نفسه منها ومحتاج الى تدبير
حيل للانتقام منها . وقدما قيل : « الحاجة أم الاختراع » .
وفي وفور الصيد من الطير وغيرها ما يحمل على تعلم الرماية والحدق
فيها . اذن فالشعب الجزائري - بطبيعة وطنه - من انبل الشعوب
واحكمها رماية .

10 - المعادن

الجزائر مشهورة من قديم بالمعادن وخصوصا معادن الحديد

1 - الذهب : من معادنها الذهب ولكنه قليل

2 - الفضة : ومنها الفضة

3 - الالماس : ومنها حجر الالماس

4 - الزرنيخ : ومنها الزرنيخ

5 - الخيلدون : ومنها الخيلدون ، وهو نوع من العقيق الجيد

6 - الرخام : ومنها الرخام ، وهو موجود بجهات كثيرة ولكن نتيجته

ضعيفة لأنه لا يصدر الى الخارج لغلاء مؤنة حمله . والمشهور من

معادنه . معدن فليفلة قرب اسكيكدة ، معدن شنوة قرب شرشال ،

معدن عين تاكبال قرب وهران . ورخام هذه المعادن رفيع جدا .

7 - النحاس : ومنها النحاس ، يوجد بكثرة في عين بربار قرب عنابة ،

وفي جبال كتامة ، وفي غيرها .

8 - الرصاص : ومنها الرصاص ، يوجد قرب الحد التونسي بكهف ام

الطبول ، وقرب الحد الغربي بغار اويان .

9 - الزانك : ومنها الزانك يوجد بجبال وانشريس ، وبو ثعلب بعمالة

قسنطينة وغيرها من النواحي .

10 - الحديد : ومنها الحديد . وهو اكثر معادنها واشهرها . والمشهور

من معادنه اثنان ، مقطع الحديد قرب عنابة ، معدن بني صاف بالشاطئء الوهراني .

11 - الجبس : ومنها حجر الجبس . وهو موجود بجهات كثيرة . اشهرها وادي تافنا ، أربعاء بني موسى قرب الجزائر .

12 - الجير : ومنها حجر الجير . وهو موجود بجميع النواحي .

13 - الغاز : ومنها الغاز . يوجد بجبال الظهرة ونواحي غليزان .

14 - الملح : ومنها الملح . يوجد الملح الحجري بجهات ميلة والجلفة . ويستخرج غير الحجري من البحيرات والسياح .

15 - الفسفاط : ومنها الفسفاط . وهو زبل طبيعي يستعمل لتطبيب الارض الفلاحية والغراسية . يوجد منه كثير بنواحي تبسة وسطيف .

11 - الفلاحة

أرض الجزائر كريمة البقعة طيبة التربة منبجسة العيون والانهار آخذة حقها من الشمس فكانت لذلك خصبة الجبال والبسائط صالحة لضروب كثيرة من الفلاحة . ولكن عماد ثروتها ودعامه غناها شيثان : الحبوب وهي في الدرجة الاولى معروفة بذلك من قديم . وقد كان الرومان يدعون الجزائر - وغيرها من التراب الافريقي - «مخزن حبوب رومة» والزيتون وهو في الدرجة الثانية . وهو شجر جبال كتامة والقبائل وبلاد تلمسان .

ان وطن الجزائر وطن خيرات كثيرة ليس من المستطاع احصاؤها . ولكن نذكر بعض ما يحرت به أو يغرس .

فمن زروعها الحنطة وهي انواع متفاوتة في الجودة . الشعير . السلت . وقشرته قشرة الشعير وحبته حبة القمح وتدعوه العامة «شعير النبي» . الحمص ، الفول ، الأرز ، الدخن ، الذرة وهي نوعان ، العدس ، الكتان ، القطن ، التبغ . وهو مما جلب اليها أخيرا بخلاف ما قبله فانها قديمة العهد .

ومن اشجارها الزيتون وهو اعظمها فائدة . التين . وهو انواع كثيرة ويدخر للاقتيات ببلاد القبائل ، الكرم وهو ضروب كثيرة

وجودته مشهورة . النخيل وهو بصحرائها ذو انواع يعسر عدها منها
 مالا نظير له في سائر البلاد طعما ونكهة . التفاح وهو انواع مختلفة
 طعما وريحا . الاجاص وهو انواع مختلفة طعما وحجا . اللوز وهو
 نوعان صلب ولين . البورتقال (الشينة - الشين) الليمون وهو
 انواع . الزنبوع . الاترج ، الجوز . الموز . الخوخ . وفيه
 اصناف . المشمش وفيه اصناف تبلغ ثمرة بعضها حجم ثمرة
 الخوخ . الفستق . العناب وهو كثير بناحية بونة حتى سميت من
 اجل ذلك عنابة . بوفريوة . السفرجل وهو موجود بجميع جهات
 الوطن ولكن لسفرجل تيهرت شهرة على غيره ، قال البكري - اثناء
 الكلام على تيهرت - : «وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما
 ومشها»^(١) .

التوت وهو انواع . حب الملوك
 وتنتب الجزائر غير ما ذكر من ضرور الحبوب والاشجار ضرورا
 من الخضر والبقول ، وكل ذلك يدل على أرض خصبة طيبة . ولكن
 هل ذلك مدح لها أم ذم ؟
 ما من أحد الا وهو يرى ان الارض الخصبة افضل من الارض
 الجدية . ولكني اراني مضطرا لمخالفة الناس في ذلك والذهاب الى
 غير ما يذهبون اليه حاكما بعكس حكمهم . فاذا رأى القارئ
 حكمي هذا غريبا فليتأمل مستندي فيه وماذا أرمي اليه فعساه وافقني
 او يعذرني على الأقل .

ذلك ان الجنس الذي يكون بالاراضي التي غضبت عليها الطبيعة
 فجردتها من روعة الجمال وتركته عجوزا شمطاء يجد نفسه في حاجة
 الى التوسع وطلب الرزق في غير وطنه . وليس له من زاد يبلغه الى
 امنيته ولا معين يعينه على تنفيذ طبعه الا الشجاعة والدهاء . والدهاء
 عضده الايمن ووزيره الايمن .

الرأي قبل شجاعة الشجعان
 فيقرأ في مدرسة الحاجة دروسا من الدهاء ؛ وتكسبه منازل الاهوال
 من صفة الشجاعة على نسبة الخطوب التي قارعها في تحصيل

مطلوبه .

أما الجنس الذي يكون بالارياضي التي منحتها الطبيعة سلطان الجمال وخلعت عليها ضروب الزينة فأضححت عروسا ترمقها الاعين من كل جانب وهي في عزتها لا تحتفل بأحد - هذا الجنس تجده راضيا عن وطنه مستغنيا بخطه الوافر عن ان يمد عينه الى غيره . فلا يضطره تحصيل رزقه الى دهاء بعيد القعر - عياذا بالله من الافراط - ولا يكتسب الشجاعة الا من مطاردة الحيوانات الوحشية ترويضاً لنفسه وتتمياً للذته .

ولهذه النظرية شواهد عملية فليست النظرة خيالية بل واقعية . انظر الى الأمة العربية النابتة بتلك الصحاري الموحشة المقفرة لما عرفت كيف تتحد وطعمت لذة الاتحاد بجدها قد ملكت نصف المعمور او جلّه في أمد لا يكفي غيرها من الامم لافهامهم فائدة الاتحاد .

وهذه الأمة الانكليزية الناشئة بتلك الاراضي الصخرية امتد ملكها في جميع القارات الخمس على أمم كثيرة . وليقس ما لم يقل . فالاراضي الجذبة أيّاست غير سكانها من الطمع فيها ودفعت باهلها الى مشاركة الغير في خيرات وطنه او تجريده منها .

والاراضي الخصبة الفتت انظار الاجانب عنها اليها وشغلت اهلها عن النظر الى غيرها . وربما علمتهم الكرم ففسحوا لنزيلهم الذي لم يروا منه مكروها كما فسحت افريقية للفينيقيين . وربما دعتهم الى القناعة فتركوا بعض الاماكن للهاجم عليها من غير ان يستنفدوا قوتهم في الدفاع عنها .

وبديهي ان هذه المساوي للاوطان الخصبة الى جانب محاسنها تنطبق على الوطن الجزائري ، فكيف تجد نفسك يا ابن الجزائر اذا انت فكرت تفكيرى ووافقتى في بحثى واستنتاجى ؟

أتسب وطنك ان جاد عليك بخيراته حتى انغمست في الملاذ واهملت واجباته ؟ ام ترى ذلك عذرا يفسل عنك عار الكسل ويبيح لك الخمول والازواء عن العمل ؟ لا - لا تنقص وطنك الكريم فان ذلك من خلق اللثيم ؛ ولا ترتد بالكسل وترتض الجمود فانك بذلك تسلم في نصيبك

من الحياة لذوي الحدود ؛ ولا يحملنك ذلك النظر على الاستسلام
للقدر . فان ذلك البحث انما يصلح متكاً للأمم التي لم تنزل على الفطرة
لا تعرف غير وطنها ولا عرفت شيئاً من احوال غيرها ليس لها كتاب
يرشدها ولا فلاسفة توسع انطاق عقلها ولا ماضي زاهرا يذكى بنفوسها
جذوة الحماس ويبعثها على استعادته .

أما ابن الجزائر فلا متكاً له في ذلك البحث . بل كون وطنه بتلك
الدرجة من الحسن مما يزيد في حسرته ويحمله على تدارك هفوته ويوقظه
الى التفكير في غده وبناء صرح سعادته بيده .

الْبَيْتُ الْاَوَّلُ

في ذكر قداماء اجزاء

أهل العصر الحجري

تمهيد

كان الانسان في ابتداء وجوده واول عهده بهذه الحياة لا يعرف الكتابة ولا الصنائع والحرف ، ولا يهتدي الى ما اودع الله في الارض من المنافع ، فجهل الفلاحة والغراسة واستخراج المعادن •

انما عرف الحجارة فاستخدمها لصيد الوحوش لقوته ، او رد عاديته عنه ، ثم في دفاع المعتدين عليه من بني جنسه ، او الهجوم عليهم • ولبت على ذلك دهورا طويلا — ولكن مع ترقى في صناعتهما وتقن في وجوه استخدامهما — حتى اخترع الكتابة وعرف المعادن ودخل حظيرة الحياة النظامية •

ويعرف ذلك الدهر الطويل بالعصر الحجري لأن مدنيته مشتقة من الحجارة • ويدعى أيضا « ما قبل التاريخ » لأن الكتابة لم توجد بعد حتى يدون ما على عهده من الحوادث والوقائع وسير العمران والحضارة فالمؤرخ لا يستطيع أن يتحدث عن اهل هذا العصر حديثا مفصلا مستندا من النقل ، فكان هذا العصر جديرا بان يدعى ما قبل التاريخ •

ان المؤرخين — وان لم يكن لهم نقل عن اهل هذا العصر — لم يعدموا سيلا للبحث عنه فقد وجدوا من الآثار العريقة في القدم التي حفظها بطن الارض اساسا للكلام عن حياة الانسان الاول • وانا ر امامهم مذهب النشوء والارتقاء دياجي هذا العصر الحالكة •

ان مذهب النشوء والارتقاء قديم ليس من بنات افكار المتأخرين • والناس ازاءه فريقان : مثبت له معجب به ، ونافٍ له نافر منه •

والحق الذي تشهد له الضرورة ويؤيده القرآن الكريم ان المذهب نفسه — بصرف النظر عن بعض الجزئيات — معقول مقبول •

اما الضرورة فيكفي لاستحضارها نظرة في النبات والحيوان والاجتماع وال عمران : فانك ترى النبات كيف يبدو عقب ماء المطر او غيره ثم يأخذ في الرقي حتى يبلغ شبابه المقدر له ، وترى الحيوان يكون نطفة ثم يترقى حتى يوضع ويأخذ في النمو حتى يبلغ أشده ، وترى الرجل يؤسس البيت او الملك ثم يأخذ ذلك التأسيس في الرقي حتى ينال الشرف ويحوز السيادة وينتهي الى درجة من العظمة • ثم ينشأ غيره ويزاحمه ويترقى على حساب انحطاط الاول حتى يضمحل ويحل الثاني محله • وهكذا الشأن دواليك في كل زمان ومكان ، وترى مثل ذلك في العمران أيضا •

واما القرآن فقد قال تعالى — في شأن النبات — : « والذي أخرج المرعى فجعله غثاء احوى » ، وقال في شأن الحيوان — : « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين » ، وقال تعالى في شأن الاجتماع — ومثله العمران — : « وتلك الايام نداولها بين الناس » •

واذا ثبت لديك ان المذهب نفسه لا مغمز فيه فلا يضيقن صدرك لبعض الجزئيات التي يقصر بعض الماديين عقلاء البشر على قبولها ويحاولون بها هدم الاديان — مثل ترقى الفرد الى نوع الانسان — فان تلك الجزئيات لم تزل وهما ولن تزال خيالا فكيف يصح الحاقها بذلك المذهب الصحيح ؟

وزبدة القول ان الضرورة والدين متفقان على اثبات النشوء والارتقاء في النوع الواحد : اما الارتقاء من نوع الى آخر فاقرب من تحقيقه الجمع بين النقيضين •

ولا معارضة بين دعوى ان انسان العصر الحجري كان جاهلا الى

تلك الدرجة ، وما اخبر به الكتاب الحكيم من ان الله علم آدم الاسماء كلها لانه لم يخبرنا انه علم علمه لاولاده بل فيه ما يرشدنا الى ان ذلك خصوصية لآدم اذ ذكر قصة ابني آدم — وهما لصلبه في رأي بعض المفسرين — وعدم اعتداء القاتل لدفن المقتول • وعلى تقدير ان يكون علم اولاده فان مرور الايام وانتقال البشر من وطن الى آخر مما ينسي ذلك العلم ويذهب به • بل قد تكون الامة العالمة في مكانها لم تبحر وتذهب الايام والليالي بعلمها حتى يظن الجاهل بتاريخها ان لا سلف لها في العلم • والشواهد على ذلك لا تحصى •

ا - اصل قدماء الجزائر

دل الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على ان البشر كلهم من نسل آدم عليه السلام ، وانه هلك جميعه في الطوفان على عهد نوح عليه السلام ولم ينج الا من ركب معه في السفينة ولم يعقب منهم الا ابناؤه « وجعلنا ذريته هم الباقين » •

واتفق المؤرخون على ان ابناء نوح الذين تفرعت عنهم جميع امم الدنيا ثلاثة : سام ، حام ، يافث •

وقد ذكر ابن خلدون في ابناء يافث قطوبال ثم ذكر الامم المتفرعة عنه فقال : « واما قطوبال فهم أهل الصين من المشرق ، والمان من المغرب ويقال ان أهل افريقية قبل البربر منهم ، وان الافرنج ايضا منهم • ويقال أيضا أن أهل الاندلس قديما منهم » (1) •

فاذا صحت هذه الرواية — ولصحتها شواهد سترها — كان قدماء شمال افريقية وبلاد الفرنجة والاندلس ذوي رحم • ولهم اخوة مع الصين بالشرق •

وعلى هذه الرواية يكون شمال افريقية اقدم عمارة من جنوب أوروبا ، لان ابناء قطوبال لا شك انهم مروا بمصر — حسبما هدت اليه الآثار — ثم نزلوا افريقية الشمالية • وقد كان البحر الرومي — اذ ذاك — قليل الماء ومتصلا بأوروبا من جهة صقلية ومضيق جبل طارق • (وقد ذكروا ان الذي حفر بوغاز جبل طارق هو هرقل وقيل الاسكندر) ⁽¹⁾ •

والاول اصح فان هرقل متقدم الزمن جدا • اما الاسكندر فمن المحقق ان الفينيقيين — وهم اقدم منه — اجتازوا الى الاندلس في سفن (اواخر الالف الثاني قبل الميلاد) فانتقل بعض ابناء قطوبال من افريقيا الى جنوب أوروبا برا — اذ لا سفن لهم في ذلك الحين — سالكين تينك السيلين • وسنقف على الآثار المؤيدة لهذا الرأي •

2 — آثار قدماء الجزائر

عثر الباحثون في الوطن الجزائري على آثار لاهل العصر الحجري ، وهي اما منازل لحياتهم ، واما قبور لموتاهم • واما آلات لحياتهم من مصنوعاتهم ، واما اشياء من مقتنياتهم •

1 — المنازل : أما المنازل فقد وجدت آثارها بالاماكن المرتفعة والكهوف على مقربة من العيون والودية • وعلّة نزول الهضاب والكهوف التمكّن من حماية انفسهم من الحيوانات الضارية ، والامتناع من الاعداء الهاجمين • وحكمة الاقتراب من الماء البارز على سطح الارض سهولة التزود منه ، لبساطة حياتهم وقلة اختبارهم للطبيعة • ومن المنازل المكتشفة منزل قرب معسكر ومنازل اخرى بجهات وهران ، الجزائر ، سعيدة ، عين مليلة ، سطيف ، العين البيضاء ، تبسة •

(1) الاستقصاء ج 1 ص 32 •

2 - القبور : واما القبور فقد وجدت متفرقة ومجموعة فوق الكهوف والهضاب . وهي مبنية بحجارة غير مصنوعة او بها أثر ضعيف من الصنع ، وملتبقة من غير ربط بطين ونحوها . يتخذون عليها صومعة من حجر كقالب السكر . وكثيرا ما يجعلون عليها صفيا عريضة ويحوطنونها بصف من الحجارة . ثم أخذ من خلف الاولين منهم يقلل من هذه الاعمال القبورية حتى صاروا يكتفون بحياطتها بدائرة حجرية ويدعون الصندوق الحجري بارزا على سطح الارض بعد ما كانوا يضعون عليه حجارة كثيرة .

ولهم في الدفن طريقتان : الاولى وضع الميت بمحل وقتي حتى يفصل لحمه عن عظمه ثم يجمعون عظام الاموات ويضعونها في قبر واحد ، الثانية ان يفصلوا اللحم عن العظم ما عدا المختلط بالعظام ثم يدفنون الهالك جالسا ملتصقا بطنه بفخذه ولحاه بركبتيه ويجعلون معه اواني بعضها طعام ويضعون معه أيضا اسلحة واشياء من زينتهم . وقبور اهل هذا العصر كثيرة بوطن الجزائر ، والبربر يدعونها قبور الجهلاء . وهي ترجع في تاريخها الى العصر الحجري الذي انقرض اصحابه منذ امد بعيد .

3 - الآلات الحيوية : واما مصنوعاتهم الآلية لحياتهم : فمنها هراوي حجرية عديمة الاتقان ، مساحي ، مناقير ، وجدت هذه الاشياء بطلل دار قرب معسكر . ومنها آلات واسلحة مثل الاولى ، عثر عليها قرب الرمشي (مونتانيك) .

ومنها فؤوس كثيرة حجرية متقنة الصنع ، ابر من عظام متقنة أيضا ومنها أوانٍ من طين مزينة بصور . اكتشفت بجهات سطيف وعين مليلة والعين البيضاء ، ووجد معها اشياء من الاسلحة والآلات ومنها محركات لدبغ الجلود واشاف واوعية من خشب .

وهذه الآثار مختلفة في درجة الاتقان حسب اختلاف ازمنتها .

4 — المقتنيات : واما الآثار التي جلبوها للاقتناء من غير ان يكون لهم فيها عمل فمنها اصداف كثيرة برية وبحرية • عثر عليها بجهات وهران والجزائر وسعيدة وعين مليلة ونواح أخرى • وهذه الاصداف يتخذونها للزينة • ومنها عظام حيوانات وحشية وانسية منها فرس الماء والكركدن ونوع من الفيلة عظيم انقطع نسله منذ قرون عديدة ، عثر على عظام هذه الحيوانات قرب معسكر تحت كثيب رمل ارتفاعه ستون ذراعا • ومن تلك الحيوانات الوعل ، الغزال ، الخنزير ، الحمار ، البقر ، الضان ، العنز ، عثر على عظامها بجهات وهران والجزائر وسعيدة وعين مليلة ، ومنها بيض النعام ، عثر على شيء كثير منه بجهات متعددة • وهو مما يتزينون به •

هذه الآثار منها ما هو محلي محض غير مجلوب من وطن آخر ولا مشابه لآثار الامم الاخرى • ومنها ما يشبه مصنوعات قدماء المصريين خاصة ، ومنها ما له شبه بآثار قدماء مصر واروبا الغربية • فان الآلات الحجرية متشابهة في هذه الاوطان • ووجد بمغارات في نواحي وهران اوانٍ من الفخار وحجر الصوان والعظم شبيهة بما وجد في مغارات بجبل طارق • وبناء القبور بالاحجار موجود بغرب اروبا • والطريقة الاولى في دفن الاموات موجودة بصقلية ايضا • واكثر آثار قدماء الجزائر شبيهة بآثار قدماء مصر •

ان المشابهة بين آثار افريقية وآثار اروبا الغربية دليل لصحة رواية ابن خلدون — وان لم يجزم هو بصحتها — بان سكان هذه الاوطان من اصل واحد • ثم في كثرة مشابهة آثار افريقية لآثار مصر دليل على ان ابناء قطوبال دخلوا افريقية من ناحية مصر • ثم في مشابهة آثار افريقية بعضها لآثار صقلية وبعضها لآثار جبل طارق دليل على ان هذه الامة دخلت اروبا من تينك الجهتين •

ومؤرخو الافرنج احاطوا علما بهذه الآثار وما بينها من المشابهات ولكنهم لم يهتدوا لرواية ابن خلدون .

فأثبتوا بطريق البحث والنظر ان سكان افريقية وصقلية واروبا الجنوبية والغربية متفرع بعضهم عن بعض . ثم افترقوا في تعيين الاصل والفرع : فمنهم من قال : انه لا يعلم — لقدّم الزمن جدا — من هي الامة التي بقيت بوطنها والتي انتقلت عنه ؟ ولا متى وقع انتقال المنتقل ؟ ومنهم من جزم — من غير دليل — بان الانتقال وقع من اروبا الى افريقية الشمالية . وانا لا اقف موقف الطائفة الاولى ، ولا اخضع لجزم الطائفة الثانية ، بل أجزم بان الانتقال وقع من افريقية الشمالية الى اروبا الجنوبية والغربية . ومستندي في ذلك الآثار السابقة فانها متصلة من المشرق الى المغرب . ولم تجد طريقا أخرى متصلة بالشرق من جهة اروبا مملوءة بالآثار التي لها شبه بآثار قدماء افريقية .

3 — حياة قدماء الجزائر

تختلف حياة الامم بساطة ورفاهية باختلاف درجتها في معرفة وسائلها المادية والادبية . والاستاذ الاول لتلقين تلك المعرفة هي الضرورة والحاجة . وقديما قيل : « الحاجة ام الاختراع » .

وقد هدت الحاجة الانسان الاول الى اتخاذ مسكن يأوي اليه ، وملبس يقيه حرارة القيط أو زمهرير القر ، ومطعم يحفظ عليه حياته ويقوي بدنه على تحمل عبء الحياة . ومكسب يقتنيه ويدخره ليستعين به في وجه من وجوه الحياة .

1 — المسكن : اما المساكن فقد دلت الآثار المكتشفة في غير ما موضع على ان قدماء الجزائر اتخذوها في الاكمام والهضاب واختاروا لها مواضع المياه . وقد قدمنا الوجه في ذلك . ومن وجوه اختيارهم

الهضاب على الوهاد الفرار من تراكم الثلوج على بيوتهم المفضي الى القضاء عليهم تحتها . ذلك بان الرياح تنسف الثلوج عن الامكنة المرتفعة وتنقلها الى الامكنة المنخفضة ، ولم يزل هذا الغرض ببعض جهات الجزائر معروفا معمولا به الى اليوم وقد اتخذوا مدنا وقرى واحاطوها بأسوار من الحجارة الضخمة غير منحوتة الا قليلا . وكانت مساكنهم داخل المدينة او القرية في اول عهدهم بالعمارة متخذة من اخشاب ومركبة بكيفية وقتية ليسهل عليهم نقلها حيث ساروا .

وكانت لهم عربات تحمل تلك البيوت تجرها الخيل . وهم لا يأوون الى مدنهم الا متى حز بهم أمر وداهمهم مكروه لا يستطيعون مقاومته بباديتهم .

2 — الملبس : واما لباسهم فكان من جلود الحيوانات التي يصطادونها ، يدل على ذلك وجود محكات لدبغ تلك الجلود واشاف لثقبها وابر لخياطتها .

واتخذوا زينتهم وحليهم من بيض النعام والاصداف . وكانت رؤوسهم غير مكشوفة . يدل على ذلك وجود تماثيل حجرية تشخص انسان ذلك العصر مكسو الرأس بالجلد أو الريش وماسك ثوبه الجلدي على كتفه بزر .

3 — المطعم : واما مطعمهم فكان من البقول وثمار بعض الاشجار الطبيعية وخشاشات الارض ولحوم الحيوانات التي يصطادونها من ظباء ووعول ونعام وخنازير وغير ذلك مما هدت اليه بقية عظامه وما ذهب ولم يبق له أثر .

4 — المكسب : واما مكسبهم فهو حيوانات يقومون بتربيتها او حفظها من عادات السباع وينتجعون بها مواضع الكلا ومواقع المياه . وأهل الاراضي الخصبة منهم لا يبعدون عن النجعة بل ان منهم قبائل

اختصت بجهات لزمته ولم تخرج عنها الى غيرها • قال اغسال Gsell في قوم وجدت لهم آثار بجهات سطيف وعين مليلة والعين البيضاء : « والظن ان بيوتهم كانت من خشب وكثير منها طالت عمارتها • ويظهر ان هؤلاء السكان كانوا قليلي الانتقال » • وذكر في موضع آخر : ان هناك قبائل لم ترح اوطانها • وسكان الصحراء ابعد القبائل نجمة واكثرهم انتقالا لجذب اراضيهم وقلة العشب والماء الكافيين لمواشيهم •

ومن حيواناتهم الانسية الحمار والضأن والعنز ، وقد عرفت هذه الحيوانات لقدماء المصريين فربما نقلها هؤلاء الافريقيون من هناك حين مروا بمصر او جلبوها من بعد • ومنها الخيل ، ويحتمل ان تكون مجلوبة من الشام لتحقق وجودها به منذ احقاب عريقة في القدم • ومنها البقر ، ويحتمل ان يكون اصله البقر الوحشي وراضه أهل هذا العصر حتى تأنس وتناسل • ومنها الفيل العظيم ، وهذا انقطع نسله كما انقرض اهله وانما بقي أثره حسبما سبق • ومنها الكلب ، وظنه بعض المؤرخين من المتأخرين متفرعا من الذئب • وهو من اغراقهم في الاندفاع خلف تيار مذهب النشوء والارتقاء وعدم تحريمهم في تطبيقه ولو اتقنوا درس الطبيعة لما حملوا على هذا المذهب أكثر مما يتحمل ، ولما الصقوا به جزئيات جهلوا أصلها وهو لا يتسع لها • وقد نطقت التجربة والاختبار بان الذئب — ولو ربي — لا يصير كلبا • والله صفاء اذهان العرب اذ تقول امرأة منهم أخذت جرو ذئب وارضعته نعجة لها فلما كبر أكلها :

بقرت شويهتي وفجعت قلبي وانت لشاتنا ولد ريب
غذيت بدورها وربيت فينا فمن انباك ان اباك ذئب ؟
اذا كان الطباع طباع سوء فلا لبن يفيد ولا حليب

ولم يوجد اي أثر يدل على معرفة هذا الجيل للفلاحة • اما المعادن

فكانوا يجهلون بها بناتا . وانما عرف من بعدهم النحاس فسمي عصرهم بالعصر النحاسي ، ثم ترقوا الى معرفة الحديد فسمي هذا العصر بالعصر الحديدي . وما زال العالم في هذا العصر الى اليوم لوفور منافع الحديد ولذلك ذكره الله من بين سائر المعادن بأسلوب يدل على عموم حاجة البشر اليه في جميع الازمان اذ قال : « وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » .

4 – ادوار مدنية قدماء الجزائر

مكث قدماء الجزائر – كغيرهم – احقابا لا يعلم تقديرها الا العزيز العليم ومدنيتهم محصورة في الحجارة : يستخدمونها في جميع شئونهم الضرورية والكمالية . غير انهم كانوا يترقون – وفق ناموس النشوء والارتقاء – في احكام صنع الحجارة وتقانها ، ويتقنون في نقشها وتنميقها .

وقد قسم المؤرخون ذلك العصر السحيق الطويل – حسبما هدتههم الآثار المختلفة صنعا وزمنا – الى ثلاثة انوار :

1 – عصر الحجارة القديم . كان الانسان فيه في اول عهده بالطبيعة جاهلا بطرق الاستفادة منها مقتصر في حياته على استعمال ما اهتدى اليه فكره الابتدائي من المواد الطبيعية التي يسهل تناولها من غير حاجة الى حذق في صناعتها . استعمل من الحجارة مع تهذيبها قليلا جهازه الحيوي .

وقد عثر الباحثون على شيء من هذا الجهاز بجهات من الجزائر تقدم ذكرها . من ذلك هراوي ومناقير ومساح . وهي من اقدم ما عرف من مدنية الجزائريين في ذلك العصر .

2 – عصر الحجارة الاوسط . تقدم الانسان في هذا الدور قليلا

فرقى الصناعة الحجرية ، ومد يده الى غير الحجارة أيضا : اتخذ من مغارات الكهوف اكثانا ؛ وصنع الفؤوس الحجرية ، وجعل ابرا وخناجر من العظام ؛ وأواني من بيض النعام •

وأثار هذا الدور متوفرة فيما بين قابس شرقا وسطيف غربا •

3 — عصر الحجارة الحديث • في هذا الدور اتقن الانسان صناعة الحجارة وتفنن فيها وتوسع في الاستفادة منها ولم يقف عندها فقط : اتخذ بعض جهازه الحربي — مثل السهام — من الحجارة ، ورسم عليها الرسوم المعجبة •

وقد عثروا على بعض تلك الرسوم بجبل بني راشد ووادي ايتل وجهات قالمة واتخذ الاواني الطينية للطبخ (مما يدل على تعرفه الى النار) •

وصنع الاوعية من الخشب ، والعربات تقودها الخيل لنقل الآلات الحربية والسيوت الخشبية • واتقن التصوير فرسم صور الحيوانات ومناظر الاصطياد • واشرف على المبادئ التاريخية فرسم على اواني الفخار اشكالا هندسية تمثل الكتابة • وقدر علماء الآثار قدم تلك الاواني الفخارية بنحو ستة آلاف سنة قبل المسيح عليه السلام •

مدنية أية أمة من الامم مستمدة استمدادا علميا من معقولها ودرجة تفكيرها ، واستمدادا علميا من كسب ابنائها وجهودهم ، ويتكون عقلها وعملها من طبيعة المكان الذي تقطنه ؛ وتتأثر بما تشاهده من جيرانها او يبلغها من اخبار الامم الاخرى •

ولهذا كانت مدينة قدماء الجزائر ذات اقسام ثلاثة :

1 — مدينة محلية لا مشابهة بينها وبين مدنات الامم المجاورة لها • من ذلك مدينة اطلق عليها اسم « الصناعة الجيتولية » وأثارها تبتدىء

من قابس شرقا وتذهب جنوبا الى جهات قمصنة وتنتهي غربا بنواحي
سطيف •

ومدينة اطلق عليها اسم « الحضارة الصحراوية » وآثارها قائمة
الى اليوم بوادي ريغ ووادي مزاب •

2 — مدينة تشبه مدينة قدماء مصر وشمال افريقية الشرقي •

3 — مدينة تحاكي مدينة جنوب اروبا والاندلس المجاورة
لها غربا •

من تأمل الآثار الجزائرية — وسائر افريقية الشمالية — وامعن
النظر فيها، الفى ان مدينة هذا الوطن كانت شديدة التأثر من ناحية الشرق
قليته من جهة الغرب • بل قد تكون مدينة هذا الوطن هي التي اثرت
في مدنات جنوب اروبا وغربها حسب البحث السابق •

والقضايا التاريخية ناطقة بانسراح صدور الافريقيين عمومًا للحضارات
الشرقية وسرعة تأثرهم بها ، ومحاربة المدنات الغربية وتقززهم منها •
وقد يعثر الباحث في بطون التاريخ على جزئيات لا تؤيد هذا الحكم ،
ولكنها نادرة لا تقوى على مضادته او نقضه •

وهكذا ترى الجزائر (وجارتها) من حين مهدها معترفة بفضل
الشرق مهبط الوحي ووطن النبوءة ومعدن الحكمة •

5 — لغة قدماء الجزائر

ذكر غسال في كتابه الجزائر في القديم : « ان لغة قدماء مصر والنوبة
والحبشة والبربر ترجع الى أصل واحد • » وقد لخص بيروني في كتابه
« المسألة الافريقية » كلام غسال • وبيرنار Bernard في هذه المجلة :
« وتشبه لغتهم (البربر) لغات الشمال الشرقي من افريقية ولغات اروبا
الجنوبية والغربية » •

وقد عبر هؤلاء المؤرخون عن قدماء افريقية الشمالية بالبربر لاعتقاد جمهور المؤرخين انهم اول من عمرها • والصواب انهم مسبقون بأمة العصر الحجري وهي غير أمة البربر • افصححت عن ذلك رواية ابن خلدون ، وبعضها قول غسال نفسه أثناء الحديث عن القبور الاثرية : « والبربر ينسبون هذه القبور الى الجهلاء • وهؤلاء كانوا وثنيين وانقرضوا منذ دهر بعيد جدا » • اذ لا يخفى ان البربر لم ينقرضوا وانما انقرضت الامة التي سبقتهم الى شمال افريقية وهي أمة العصر الحجري •

وتشابه لغات هذه الامم شاهد آخر يضاف الى ما تقدم من الشواهد على صحة رواية ابن خلدون التي صدرنا بها الكلام على أصل قدماء الجزائر • ثم وقوف الشبه من جهة الغرب في جنوب اروبا وامتداده من جهة الشرق مما يؤيد رأينا السابق ان ابناء قطوبال اتوا على مصر الى افريقية ومنها ذهبوا الى ما يليهم من اروبا •

6 - ديانة قدماء الجزائر

اثبت الباحثون على الآثار ان لهؤلاء القوم ديانة : والديانات اصلها الوحي • فلا بد ان تكون هذه الامة اخذت اصول دياتنها عن رسول من الرسل •

وقد قال تعالى : « وان من امة الا خلا فيها نذير » ثم دخلها التحريف والتبديل والعلو في تعظيم بعض المخلوقات حتى أمست وثنية • ولا أظن أمة تنشأ على فطرتها تكون وثنية تعتقد النفع والاضرار الناشئين عن الاختيار في الشمس او القمر او أي مظهر آخر •

وانما تخضع الامم ذوات الفطر التي لا عهد لها بأي نزعة ، للدين الصحيح • فاذا ألقت الاذعان للدين وتمكن منها الايمان باشياء من

المغيبات ، ثم طراً عليها الجهل — ظهر فيها من الدجاجة من لهم اغراض شخصية يعملون لتحصيلها باسم الدين والدين هداية عامة لا آلة يستخدمها اصحاب الغايات الذميمة لبلوغ غاياتهم • لا جرم اضطر كل دجال من البشر في أي عصر الى تحريف الدين بالغلو احياناً والابتداع تارة • واذ ذاك يغرس اشجار الوثنية في تربة الجهل الشرية ، تسقيها تلك الامة الجاهلة بخيالاتها واوهامها حتى تعظم وتنتشر فتحجب شمس الدين الصحيح وتغطي بدور العقول النيرة •

وفي ظلام هذه الاشجار الحالك تعيش الامة عيشة وثنية : لا هي من الانعام عديمة الشعور بغير حاجتها الى ما يحفظ حياتها الاولى ، ولا هي من البشر تحكم العقل وتتقاضى اليه فيما تأتية من ضروب الاعمال • « اولئك كالانعام بل هم أضل سبيلاً » •

أما الديانة التي عرفها الاثريون لقدماء الجزائر فهي عبادة الشمس والقمر (وهما من معبودات المصريين) ، وعبادة بعض الحيوانات منها القرد والثور والكبش والتمسك • وجد بجبل بني راشد تمثال يدعى « أتون » كانوا يتخذونه الهاً وهو صورة تيس على رأسه دائرة الشمس • وكانوا يعظمون العيون والاشجار والجبال ، ويحترمون الاموات يشيدون لهم قبوراً ضخمة •

وقد وقع شعبنا فيما يقرب من هذه الوثنية « والتاريخ يعيد نفسه » فمن آثار عبادتهم للشمس ان الولد حينما يثغر وتسقط سنه يرمي بها الى الشمس ، ويقول لها في بعض الجهات الشمالية « اعطيتك فضة اعطني ذهب » وفي بعض الجهات الجنوبية : « اعطيتك سن حمار اعطني سن غزال » •

ومن تعظيمهم لبعض العيون انهم يتبركون بياهاها ويستشفون بالشرب منها ويرجون منها النسل ويقربون لها القرابين الدجاجية •

ومن تعظيمهم لبعض الاشجار انهم يجتنبون قطعها واحتطاب ما سقط من عيدانها ويعلقون بها الخيوط رجاء ان تقضي حاجاتهم ، كما يعلق احدا باصبعه خيطا كي يذكر به ما يخشى نسيانه •

ومن تعظيمهم للجبال تقديم النذر من الاطعمة والانعام لبعض الكهوف وزيارتها زرافات ووحدانا • وتطيب رائحتها بالبخور ومياه الرياحين • وقد يتأولون ذلك بان احد الصلحاء مر بهذا الكهف او جلس عنده • وعلاوة على كون هذا التأويل غير مبرر لفعالهم فان الصلحاء جلسوا في غير الكهوف أيضا ومشوا في السهول والبساتين •

اما تشييد القبور الضخمة للاموات واتخاذ الحرم لها فقد بالغوا فيه اكثر مما تقدم واربوا في ذلك عن كل امة حتى صاروا يشيدون القباب لا على ضريح ولا على أثر من مواقع اقدام صلحائهم • وشرح هذا المقام يوسع دائرة خروجنا عن موضوع الكلام •

وكان قداماء الجزائر يعتقدون بحياة أخرى غير الحياة الاولى ، ويرون ان الميت في قبره اكمل منهم علما •

يدل على ذلك ما تقدم من ان منهم من يضع الميت في قبره جالسا ملتصقا بطنه بفخذه ولحاه بركبتيه ، يمثلون بهذا الوضع هيئة الجنين في بطن أمه • كأنه بموته ولد في عالم آخر ، ولذلك يضعون معه أطعمة واشياء من الزينة • واذا اهتمهم أمر لم يهتدوا الى وجهه استشاروا الموتى من اسلافهم :

ينام أحدهم على قبر سلفه وما رآه في منامه عمل بمقتضاه في يقظته وللجزائريين اليوم حظ وافر من هذه العقيدة المباركة على الانحطاط والتقهقر •



قروش من تاسيلي



البَیِّنَاتُ الثَّانِيَّةُ

— فِي ذِكْرِ الْبَرِّ —

تمهيد

البربر أمة من أقدم أمم العالم واشهر أجياله • عاصرت العرب
والفرس واليونان والروم • معروفة بعز الجانب واباية الضيم والدفاع
عن الشرف •

وقد زاحمت الامم ودافعت الملوك عدة آلاف من السنين • حاربت
بني اسرائيل بالشام • وهاجرت الى وطن افريقية والمغرب فاستولت
عليه في اعصار لا يعلم مبتداها الا العليم الخبير ، واستوطنته بطونها
وقبائلها ، وكانت ذات كثرة ومنعة فملأت وهاد المغرب ونجاده ، واعفت
ذكر الامة التي سبقتها اليه ، ثم كانت لها مواقف مع الدول العظمى
ذات المطامع في وطنها • هاجر الفينيقيون جيرانهم بالشام الى وطن
البربر ونزلوا عليهم ضيوفا كراما فآكروهم • وعاشت الامتان في وئام
قرونا ، البربر يعضدون الفينيقيين في حروبهم خلف البحار ، والفينيقيون
يحترمون حرمة البربر — خصوصا بربر نوميدا — فلا يسومونهم
بذل ولا ينالون من شرفهم ولا يمدون ايديهم الى ما تحت تصرفهم •
وقد وقعت بين الامتين حروب الا انها كانت في مباديها من قبيل الثورات
التي لا تخلو منها الامة الواحدة ، وفي الاخير تمشت حيل اروبا بين
البربر وانطلت عليهم دسائسها فعضدوا الرومان في حروب قرطاجنة
طمعا في الاستقلال بحكم وطنهم واسترداد ما أخذته منهم قرطاجنة
معلمتهم الحياة والنظام •

ولما انكشف لهم الحجاب عن مقاصد الرومان اخذوا يحاربونهم
— والظفر حليفهم — ولم يجن الرومان من تعنتهم في محاربة البربر
غير الاستيلاء على بعض المدن وما حولها من البسائط على طول المدة
وكمال العدة •

ولم تزل هذه الأمة النشيطة الحربية — قبل الاسلام وبعده — تقف في وجوه المهاجمين وتثور على الظلمة المستبدين وتنهض للتخلص من وطأة الاجنبي على حريتها وازاحة كابوس المستعمرين عن مقتلتي حياتها .

ملأت بذلك تاريخها منذ سطوع فجر التاريخ ولكن لم تكن الحروب بمناعتها عن مجارة الامم الاخرى في الحضارة والرقى والتخلق بالاخلاق الجليلة والخلال النبيلة ، فقد عرف التاريخ لها حضارة عظمى ومدنية مثلى ، وظهر منها علماء حكماء وعظماء خبراء في الدين والسياسة والعرمان قبل الاسلام وبعده وسترى — ان شاء الله — في الصفائف التالية ما ينير امامك حقيقة هذه الأمة العظيمة .

ا — اصل البربر

الحديث في أصل البربر من اكثر الاحاديث اضطرابا واوسعها خلافا بحث فيه المؤرخون قديما وحديثا واطالوا البحث ولكن لم يحصلوا الا على روايات متضاربة وآراء متناقضة .

ولهم في البحث طريقتان : طريق المتقدمين من مؤرخي اليونان والرومان والعرب تعتمد على الرواية والنقل ، وطريق المتأخرين من مؤرخي الافرنج تعتمد على الدراية والنظر الى اللغة والخلقة والصناعة .

ونحن لا يسعنا ان نتبع كل ما وقفنا عليه ولكننا نحرس على افادة المطالع باقرب طريق فلنخص أقوال الطائفتين ثم تتبعها بنظرة تؤيد ما كان من هاتيك الاقوال اقرب الى الصواب ونزيف ما كان منها خرافة او خيالا .

ا = الطريقة الاولى : انقسم اصحاب هذه الطريقة الى فرق :

1 — فرقة ترى ان البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين من وطن

آخر . ومن هذه الفرقة افلاطون من القدماء وفورنال Fournal من المتأخرين .

2 — وفرقة تقول انهم ايجيون من سكان ضفاف بحر ايجيه Egée وهو بحر الارخبيل . ومن هذه الفرقة هيرودوتس ، ديودور الصقلي ، بلوتارك .

3 — وفرقة تقول انهم ساميون انساب العرب . ثم اختلفوا من بعد . فذكر بروكوبس — وهو من مؤرخي الدولة البيزنطية عاش في المائة السادسة للميلاد — انهم من العبرانيين واليونانيين، وروى الطبراني انهم من نسل نقشان — او نفسان — بن ابراهيم عليه السلام . وهي موافقة لقول بروكوس .

وروى ابو عمر عبد البر عن بعض نسابة البربر انهم من ولد النعمان بن حمير ابن سبا . واذن فهم عرب .
وقيل انهم اوزاع من اليمن : قال المسعودي من غسان وغيرهم ، وقال غيره من لخم وجذام .
وقيل من عملاق بن لاوذ بن ارم بن سام . هذا ملخص اقوال الفرقة الثالثة .

4 — وفرقة تقول انهم حاميون : قيل من مصرايم بن حام ، وقيل من مازيغ بن كنعان بن حام .

5 — وفرقة تقول انهم من الفرس — وفارس قيل من سام وقيل من يافث — روى المؤرخ الروماني سالوستس Salluste عن كتب فينيقية : ان الميد والارمن والفرس جاءوا الى الاندلس في جملة جنود احد ملوك اليونان فلما توفي ذلك الملك عبر هؤلاء الاقوام الى افريقية الشمالية — وكانت عامرة بالجيتولين والليبيين — واختلط الارمن (وهم من يافث) بالليبيين وكذلك الميد (اخوان الفرس) فغيرت كلمة الميد

بكلمة « المور » وتنقل الفرس في هذا الوطن فلقبوا انفسهم « النوماد » ومعناه الرحل . ثم استولوا على البلاد القريبة من قرطاجنة واستوطنوها فسميت « نوميديا » نسبة اليهم . واندمج من كان قبلهم بهذه الناحية فيهم وامتزج بهم وسمي باسمهم . ومثل هذه الرواية رواية من روى ان البربر من ولد جالوت ، فقد نسب ابن خلدون جالوت الى فارس .

6 — وفرقة تقول انهم من الهند . منها استرابون من متقدمي المؤرخين .

7 — وفرقة تقول انهم اخلاط من أصول : ففي بعض روايات الطبري انهم من العمالقة وهم ساميون ومن كنعان بن حام ، وقال مالك بن المرحل : البربر من العمالقة وحمير ومضر وقريش (قبائل سامية) والقبط وكنعان (قبيلتان حاميتان باتفاق) .

هذا ملخص اقوال اهل الطريقة الاولى وتركنا بعضا منها اشارة للاختصار .

ب = الطريقة الثانية : وهي تبحث عن اصل البربر من طريق الخلقة واللغة والصناعة :

1 — اما الخلقة فيوجد في كثير من البربر عرض الاكتاف وضيق الخصر وهذا الضرب قديم بافريقية وموجود بالجزائر وتونس . وهذه الصفة معروفة بقدماء مصر والاسبان والباسك (قوم من السلتين يسكنون شمال الاندلس وجنوب فرنسا الغربي) .

ويوجد فيهم الشقر بالجبال مثل جرجرة واوراس بالجزائر والريف بالمغرب . ادعى بعضهم ان اصحاب هذه الصفة من بقايا الرومان والفندال ولكن غسال يقول : انه لم يبق من هاتين الامتين عدد يمكن ان يؤثر في البربر بل الظاهر انهم بالمغرب من قديم . وقال مرسى ايضا انهم سكنوا هذا الوطن قديما ، ثم قال ولهم مشابهاة كثيرة — خلقا وخلقاً — بامم اروبية .

ومنهم اقوام سمر اللون قصار القامة سخنوا الطبع • قال غسال :
وهذه الصفات توجد في سكان الاندلس وايطاليا وجنوب فرنسا وجزيرتي
الكورس وسردانيا •

2 — اما الصناعة فمنها اوان طينية تصنع بوطن القبائل وينقش
عليها تماثيل ، قال غسال : وقد عثر على نظيرها في قبور مصرية يرجع
تاريخها الى نحو اربعة او خمسة آلاف سنة قبل الميلاد • قال بيروني
ويوجد نظيرها أيضا بجزر صقلية ومالطة • ومنها تماثيل للحيوانات
تصنع بالجزائر ومراكش والصحراء • قال غسال : ويوجد نظيرها قديما
بمصر والنوبة • ومنها بناءات للمعابد • قال بيروني : ولها شبه ببناءات
معابد اوروبا الغربية •

3 — واما اللغة فانه لا مشابهة بين لغات البربر واللغات السامية
نحو وتصريفا ، ولها مشابهة من حيث التركيب بلغة قدماء مصر والنوبة
والحبشة والصومال والهوسا ، وفيها الفاظ اوروبية وهندية •
وقد اعتنى رين بالبحث فيما بين لغة البربر وبقية اللغات من المشابهات
اعتناء لم يشاركه فيه غيره •

وصدر بحثه في أصل البربر بقوله : « ومن الادلة للبحث عن اصل
امة لغتها » ثم أخذ يذكر الفاظا بربرية وينظر بينها وبين سائر اللغات
خصوصا لغات اوروبا والهند ، مثل لغة السكسونيين (الالمان والانكليز)
ولغة السكندنافيين اهل شمال اوروبا (السويد والنرويج) ولغة الاترسك
(قدماء ايطاليا) قال وتوجد قبائل من قدماء ايطاليا مسماة باسماء
قبائل بربرية • ومعاني تلك الاعلام متعددة عند الفريقين وذكر أيضا
قبائل اوروبية من امتي الغوط والسكيت (ويقال ايضا السكلوت)
اعلامها متحدة باعلام قبائل بربرية • ثم سرد تلك القبائل بأسمائها عند
الفريقين •

وخلاصة بحث رين : ان اكثر البربر هنديون وارويون اصلا

ولغة ، وليس في الوطن البربري من الاصل السامي الا قليل ، حتى ان بني هلال الذين جاءوا في العصر الاسلامي اكثرهم طورانيون وآريون !!

وملخص ابحاث هذه الطائفة ان البربر ليسوا امة مستقلة وانما

هي مزيج من امم شرقية واوروبية وحد بينها الوطن .

ج = نظرة فيما تقدم من الروايات والابحاث .

قد علمت ان ابحاث المتأخرين تعتمد على الصفات والصنائع واللغة وليس شيء من ذلك بمفيد في معرفة اصالة امة لاخرى او تفرعها عنها وذلك ان للامكنة دخلا في الصفات . فالاقوام الذين يسكنون اماكن متحدة في الطبيعة يتحدثون او يتقاربون في الصفات وان اختلفت اصولهم وقد أشار بيروني الى هذه الحقيقة بقوله : « ان مسألة الاوصاف لم تفدنا في أصول البربر شيئا » .

والصنائع اضعف من الصفات في ذلك لانها مما يسهل تعلمه وتنقله خصوصا بين الامم المتجاورة التي كانت بينها علاقات .

وقد اثبت التاريخ ان سكان ضفاف البحر الرومي شمالا وجنوبا تعارفوا ودخل بعضهم تراب بعض : فقد كان الجند الفينيقي مركبا من عدة اجناس كانت حوالي هذا البحر وكذلك من جاء بعد الفينيقيين من الدول ، وقد أقام الجند النوميدي مع رئيسه حنبعل سنين بجنوب اروبا .

واللغات انما تعتبر المشابهات بينها اذا كانت من حيث التراكيب لامن حيث وجود بعض المفردات فيها خصوصا اذا احتيج في تقرير المشابهة الى تغيير بعض الحروف او حذفها وقد ذكر بيروني انه توجد مشابهات بعيدة بين اللغة البربرية ولغات قدماء مصر والنوبة والحشة والصومال والهوصا ، وقال : « وهي ترجع الى أصل حامي » يريد ان المشابهة بين هذه اللغات كالمشابهة بين اللغات السامية من عربية وفينيقية وعبرية،

ولم يعتبر بيروني مشابهة اللغة البربرية للغات الاروية وذلك لانها مشابهة في بعض الالفاظ . قال : « واللغة ايضا لا يمكن الاعتماد عليها في اصالة امة لاخرى » .

ولم ار من اعتمد اللغة اصلا للبحث في جنس البربر مثل رين Rinn وقد بالغ في البحث والتنقيب مبالغة لا تجديه في الغرض الذي يقصد اليه شيئا ولكنها تدل على سعة اطلاعه على اللغات وقوة جرائته على الانساب . ناهيك انه لم يبال بوضوح اصل العرب وصراحة نسبها فجعل الهالين — على نصوص نسبهم العربي كسائر القبائل العربية — طورانيين وآرين . أي ثقة تبقى في كلام رين بعد اقامه على العبث بنسب قبيلة من اصرح القبائل العربية نسبا ؟ وهل تثق النفس بما يديه من المشابهات بين الالفاظ المختلفة الاصول ؟ اما العربية — ولا اعرف غيرها — فقد رأته عبث بكثير من معاني الالفاظ التي اوردها منها .

لم يكتف رين بالمقارنة بين الفاظ البربر والامم المجاورة لها على ضفاف البحر الرومي حتى طار الى روسيا واتانا منها بمفردات اتعب نفسه في تقريبها من مفردات بربرية !

أي أمة تستطيع ان تحصن وحدتها الجنسية للنجاة من تكلفات هذا الكاتب وفلسفته اللفظية ؟ اذا لم تستطع قبيلة الهالين ذلك فليس لاي قبيلة ولا شعب آخر طمع في النجاة من تفرقة هذه الفلسفة المتحطة .

لو كان لي شيء من جرأة هذا الكاتب لاتهمته بانه لم يكتب ما كتب بقلم علمي وانما كتبه بقلم سياسي : يريد ان يمزق الجنس البربري كل ممزق ويفرقه شذر مذر ويوزعه على أمم اروية — بالخصوص — كي تذهب وحدته ويسهل على العلوم الاروبي ابتلاعه .

وتلك امنية يحلم بها بعض مرضى العقول من السياسيين ولكن لن يلج الجنس البربري في جنس آخر حتى يلج الجمل في سم الخياط .

وهنا اودع طائفة الاعتماد على الابحاث التي لا نتيجة لها غير الشكوك والاهام ، وارجع الى تمحيص تلك الروايات لاستخراج ما تطمئن اليه النفس منها .

1 — اما القائلون باصالة البربر في افريقية وعدم انتقالهم اليه من وطن آخر فظاهر انهم لم يذهبوا هذا المذهب الا لكونهم لم يعرفوا للبربر وطننا قبل هذا الوطن . ولكن من المعلوم ان آسيا هي مهد الاصول الاولى للبشر ، وانهم لما كثروا وضاق بهم وطنهم الاول أخذوا يتوسعون فيما حولهم من الاوطان ويكتشفونها وطننا بعد آخر .

فهذا غير صحيح ولا معقول الا ان يكون اصحابه لا يعترفون بابوة آدم للبشر ولا باستقلال نوعهم وانما هم منحدرون او صاعدون من سلالة القروذ مثلا . وهو رأي أفن او حلم طائش لا يعقل الاخذ به بدلا مما تواتر في التواريخ القديمة ان الوطن الاصلي للبشر هو بعض جهات آسيا ، او اشارا له عما جاء في الكتاب الحكيم ان البشر من آدم .

2 — واما القائلون بان البربر هنديون فهم ابعد عن الصواب من الاولين اذ البربر معروفون بافريقية من قبل التاريخ — كما ذكره غير واحد من المؤرخين — فكيف يكونون منقولين من الهند ؟ واي طريق سلكوها من الهند الى افريقية ؟

ان قالوا طريق البحر قلنا انها لطولها وعظمة البحر في بعضها يتوقف سلوكها على بسطة في علمي الجغرافية والنجوم ومعرفة مهاب الرياح وتقدم في صناعة المراكب البحرية . وكل ذلك مفقود في ذلك العصر السحيق .

وان قالوا طريق البر قلنا ان سلوكها يتوقف على جيوش جرارة واسلحة ممتازة ليتمكنوا من مغالبة الامم التي يمرون بها ، ثم لا يصلون الى افريقية الا بعد سنين طوال مملوءة من الحروب والاهوال . وذلك مما

تتوفر الدواعي لنقله وانتشاره ثم تدوينه في الكتب • ولم تحو كتب التاريخ شيئا عن هذه الرحلة الشعبية التي لا تيسر حتى اليوم •

3 — اما القائلون بان البربر ايجيون فانما نسبوهم الى وطن ولم ينسبوهم الى أصل بشري • ثم انه وطن ضيق والبربر امة من اوفر الامم عددا • على ان افلاطون اليوناني ادعى — كما سبق — انهم اصليون بوطنهم فلو كانوا منقولين من جهات بحر هيجاي لما خفي ذلك عليه • واهل مكة ادرى بشعابها •

ويصعب على النفس تكذيب هذه الطائفة بتاتا فالذي يظهر ان عرقا ايجيا موجود بوطن البربر ، وهو الذي اوقعهم في تلك الشبهة • ولكن البربر اقدم في هذا الوطن من الايجيين واكثر عددا وأعز نفرا •

4 — واما القائلون بان البربر ساميون فقد علمت اختلاف رواياتهم وقد رد ابن خلدون رواية الطبري انهم من ولد ابراهيم عليه السلام بما محصله : ان البربر كانت لهم من الكثرة في زمن داوود عليه السلام ما يبعد كونهم من نسل ابراهيم لعدم طول المدة بين ابراهيم وداوود طولاً يتشعب معه البربر ذلك الشعب •

ورواية بروكوبس بمعنى رواية الطبري وقد علمت ما فيها ، ولو قال هؤلاء بانه يوجد بين البربر عرق عبري لكان صحيحا فقد اثبت الباحثون وحققوا وجود طائفة من اليهود بين البربر من قديم ، حتى انهم لقدمهم لا يعرفهم قدماء مؤرخي الاسرائيليين • ومعايدهم مخالفة تماما لمعايد سائر اليهود • وللعلامة شلوش اليهودي في هذا الموضوع كلام في غاية التحقيق •

والفينيقيون معلوم انهم طارئون على البربر وليسوا مجتمعين معهم في الاصل قطعاً • وانكر ابن خلدون ايضا القول بانهم من ولد جالوت أو عملاق وقال فيه ، « قول ساقط يكاد يكون من احاديث خرافة » •

ورواية ابن عبد البر عن بعض نسابة البربر انكرها هو نفسه ،
وانكرها ابن حزم ايضا وهمم — ابن حزم — في الانكار اذ لم يقبل
كونهم من اليمن قائلا : « وهذا كله باطل لا شك فيه » وقال ابن خلدون
« انه منكر من القول » ولكنه نقل عن المحققين من نسابة العرب مثل
الطبري والسهيلي : ان قبيلتي كتامة وصنهاجة من حمير تركهما افريقش
بالمغرب لما قتل من غزوه • قال السلاوي : « وهو قول جميع النسابين
من العرب ⁽¹⁾ » •

5 — واما القائلون انهم من الفرس فقد فسرت قولهم رواية سلومستس :
ان ليبية (افريقية) كانت عامرة بالبربر ، وان الفرس انما نزلوا في
جوارهم بعد وفاة ملكهم اليوناني •
وعليه فلا تصح دعوى ان الفرس أصل للبربر ، ولا انكار وجود
الفرس بافريقية اذ لا منافاة بين الامرين •

6 — واما القول بانهم اخلاط من اصول فقول فاسد التعبير •
وصواب الحديث ان يقال : ان الوطن البربري فيه أصول غير بربرية •
وهذا مسلم لكن غير مفيد في معرفة اصل البربر •
7 — واما القول بانهم حاميون من مصر ايم فغير صحيح ايضا
ولكن لا ننكر وجود عرق منهم في الوطن البربري •

والصحيح من هذه الروايات كلها انهم حاميون من مازيغ بن كنعان
ابن حام • هذا الذي صححه ابن خلدون قائلا : « والحق الذي لا ينبغي
التعويل على غيره في شأنهم انهم من ولد كنعان بن حام بن نوح ...
وان اسم ابيهم مازيغ » •

واعتمد كاريت رأي ابن خلدون : ان البربر أمة مستقلة منذ أجيال

(1) استقصاء ج 1 ص 29 •

عديدة • وقال الجنرال دوماس : « ان لنا أدلة كثيرة على ان البربر من كنعان • نكتفي منها بدليل واحد : احد اعقاب حام يدعى مازينغ ، والى يومنا هذا يسمى البربر انفسهم امازينغ • الا يكون هذا التواطؤ بين الاعلام مفتاحا لاصل البربر ؟ » •

— خلاصة البحث :

يمكننا ان نستصفي من تلك الروايات ونستنتج من هاتيك الابحاث النقط الآتية :

1 — الجنس البربري جنس مستقل في أصله يرجع الى مازينغ بن كنعان ابن حام • انتقل من الشام الى افريقية في أزمان قديمة جدا فصح ان ينسب هذا الوطن لهم •

2 — وقعت مهاجرات الى هذا الوطن في اوقات مختلفة من أمم متعددة منها ابناء مصرائيم بن حام • قال دوماس : جاءوا مع البر واجتازوا الى افريقية وتسموا « مور » ومعنى ذلك مغاربة • وتقدم عن سلوستس خلاف ما يقول دوماس في كلمة « مور » • ومنها قبائل فلسطينية فرت امام يوشع • ذكر ذلك دوماس وفي ابن خلدون ما يؤيده •

ومنها الفينيقيون (وهم ساميون) وقد جاوروا البربر قرونا عديدة فقد اسسوا عويقة عاصمتهم الاولى سنة 1101 ق — م • ومنها عرب يمنيون جاءوا مع افريقش • ومنها قوم ايجيون ومنها قوم من الفرس • ومنها العبريون على ما حققه شلوش Schlousch • كل هذا تظافرت عليه اقوال جماهير من المؤرخين • وليس في العقل ما ينافي هذا النقل •

3 — البربر أخذوا حظا من لغات هذه الامم وطبائعهم ولكن بعد صبغها صبغة بربرية • قال مرسيي : البربر تأثروا بعدة أمم نزلت بوطنهم

او استولت عليهم ولكنهم بقوا بربرا • وقال بيروني : ان الوطن البربري جمع اما مختلفة ولكنها اصطفت جميعا بصبغة بربرية •

واذن لا نقول في سكان افريقية غير انهم امة بربرية اذ لا يمكن تمييز ما عدا البربر عنهم لغلبة البربرية على غيرها • وهذا لا يחדش في أصل البربر شيئا بل انه يرشد تمسك البربر بجنسيتهم ولذلك لم يندمجوا في غيرهم ، والى كثرتهم ووفور عددهم ولذلك ابتلعوا الجنسيات التي حلت بوطنهم •

وهكذا اصبحت الامة البربرية بنجوة من وصمة التهاون بجنسها وحازت الشرف على الامم التي ابتلعتها ، فان أمة لا تندمج في غيرها الا وقد سجلت على نفسها الوضيعة والحطيطة ونقت عنها كل وجه من وجوه الكرم والفضيلة ، وكتبت للامة المندمجة فيها اسطرا من الفخر والشرف والميزة عليها لا يحوها الا تداركها بنفسها لجمع شتات قوميتها والعمل باسم امته •

2 — هجرة البربر الى ليبيا

علمت من الفصل السابق ان البربر أمة ذات وحدة جنسية كباقي الامم التي عرف التاريخ عصبيتها وعظمتها •

وكان موطنها الشام ثم انتقلت الى ليبيا • ونزح ايضا الى هذا الوطن طوائف من أمم أخرى • وحصل الاختلاط والامتزاج بين جميع سكان هذا الوطن تحت اسم البربرية • واذا ذاك صارت الامة البربرية ذات وحدة وطنية مركبة من عناصر متعددة ومفرغة في قالب بربري •

ليس العنصر البربري الاصلي اول من عمر ليبيا فقد مر في الباب الاول ان أمة سبقت البربر الى هذا الوطن • وقد عبر ابن خلدون عن

البربر في ترجمة الكتاب الثالث من تاريخه الهام بقوله : « الامة الثانية من اهل المغرب » •

اما الروايات في تاريخ هجرتهم الى ليبيا فكثيرة واحسنها ما نقله يحيى ابن خلدون عن ابن قتيبة : ان خروجهم كان ايام البلبلة ⁽¹⁾ والبلبلية هي اختلاف اللهجات وتعدد اللغات فكأنه يقول : قبل حدوث الخط والكتابة •

وهذه الرواية متفقة مع ما يقوله متأخرو المؤرخين من ان البربر هاجروا الى ليبيا قبل التاريخ • وهذا عذر من ظن انهم اصليون بهذا الوطن غير منقولين •

وقد ذكر عبد الرحمن بن خلدون روايات اخرى نعرض عن بعضها لظهور سقوطه ، وننقل بعضها ثم نقفي عليه بما يزيل شبهة الاعتماد عليه .
1 — نقل عن المسعودي والطبري والسهيلي : « ان افريقش استجاشهم لفتح افريقية وسماهم البربر • وينشدون من شعره :
بربرت كنعان لما سقتها من اراضي الضنك للعيش الخصيب ⁽²⁾

2 — ونقل عن بعضهم : ان يوشع رئيس بني اسرائيل بعد موسى عليه السلام هو الذي اخرجهم من الشام •
3 — ويقول بعضهم : ان داوود عليه السلام هو الذي اخرجهم وان الله هو الذي اوحى اليه بذلك : « قيل يا داوود اخرج البربر من الشام فانهم جذام الارض ⁽²⁾ » •

وقد ابطال ابن خلدون نفسه قول من قال : ان افريقش هو الذي اخرجهم من الشام الى المغرب بان هناك رواية أخرى تقول : « انه وجدهم به وانه تعجب من كثرتهم وعجمتهم وقال ما اكثر بربرتكم »

(1) بغية الرواد : ج 1 ص 91 ، وقد عبر فيها بلفظ البلبلة وفي نسخة بلفظ البلبلة . وكل ذلك تحريف البلبلة

(2) ج 6 ص 94 •

وافريقش هذا من ملوك اليمن التابعة وهو مختلف في زمنه ففي بعض المواضع من ابن خلدون ما يدل على انه قريب من عهد موسى عليه السلام ، وفي بعضها ما يدل على انه بعد سليمان عليه السلام وبين هذين الرسولين نحو من سبعة قرون . وذكر ابن خلدون عن ابن حزم : ان التابعة « في انسابهم اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة » ⁽¹⁾ وسواء ارتقى عهد هذا الملك الى ما يقرب من عهد موسى أم تأخر الى ما بعد سليمان فان البربر بوطنهم الثاني اقدم من ذلك كله وفاقا لرواية ابن قتيبة المؤيدة بآراء الاثريين المتأخرين .

ومن قال ان يوشع هو الذي اجلاهم الى المغرب فقد اخطأ واشتبه عليه الامر . ذكر دوماس ان من القبائل التي اضيفت الى البربر قبائل فلسطينية فرت أمام يوشع وفلسطين وذكر ابن خلدون ⁽²⁾ انهم اخوان البربر .

وبهذا يتبين ما في هذه الرواية الثانية حيث خلط اصحابها بين البربر وفلسطين .

واما قول من قال ان داوود (ص) هو الذي اجلى البربر الى افريقية بالوحي فقول ساقط ورواية سخيصة ، لان داوود عليه السلام عاش في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، وقد علمت ان الفينيقيين كانوا أسموا عاصمتهم الاولى عام (1101) ، وهم انما جاءوا بعد الفلسطينيين ، والفلسطينيون انما جاءوا بعد البربر . وايضا فان البربر ليسوا جذام الارض ، بل هم أمة عاملة نشيطة من اقدر الامم على تعمير الارض واستدراار خيراتها . ومن فطر الى ما كانت عليه افريقية من للعمران المستبحر : مدن عظيمة ، مياه مطردة ، بساتين متصلة ، حقول مزروعة ، علم سخافة تلك الرواية التي لم يستح واضعها حتى جعلها وحيا .

(1) ج 2 ص 58

(2) ج 6 ص 97 .

هذا ما نقوله عن تاريخ انتقال البربر الى ليبيا اما ما انضاف اليهم من الامم فقد كان في اوقات مختلفة يصير الوقوف عليها جميعها ، ومنهم من كانوا جاليات قليلة لا يهتم المؤرخ بذكر تاريخ استيطانهم لافريقية .

ومن هذه الامم التي كان لهجرتها الى افريقية ضرب من الوضوح أمة الفرس فانهم نزلوا افريقية لما مات ملكهم اليوناني ، هرقليس . ولم اعثر على تاريخ هذا الملك .

ومنهم الفلسطينيون فقد علمت انهم فروا امام يوشع . والمظنون ان يوشع كان في القرن السادس عشر قبل الميلاد . لان داوود عاش في القرن الحادي عشر . وقد ذكر ابن خلدون ان بين خروج بني اسرائيل من مصر وملك داوود (ص) (600) باتفاق . ويوشع انما رأس بني اسرائيل بعد خروجهم من التيه الذي مكثوا فيه (40) سنة . ومنهم العرب المينيون قبيلتنا كتامة وصنهاجة اللتان تركهما افريقش بافريقية . وقد علمت ما في زمنه من الاضطراب .

3 — اوصاف البربر واخلاقهم

اذا كان للامكنة دخل في صبغ البشر بما تشاء من الالوان فان منها اوصافا خلقية لا بد للامكنة فيها وانما ترجع الى خاصة جنسية .

وهذا ما دعا بعض المتأخرين الى اضافة هذا المبحث الى مواد البحث عن جنس البربر ولكنه وضع للشيء في غير محله وطلب للنتيجة من غير شكلها فان هذا المبحث انما يفيد في قرابة الامم بعضها من بعض لا في في اصالة امة لاخرى .

والاخلاق من الاشياء التي تتوارث باتفاق الفلاسفة وانما اختلفوا في انها تتوارث عن الاصل ام الوسط ، وهذا الخلاف انما تظهر ثمرته في الاشخاص دون الامم ، لان الامة اصلها هو وسطها ومجتمعها .

اما اوصاف البربر فمنها اوصاف عامة لكل بربري وهي : ان البربري وجهه معتدل ، خط عينيه مستو ليس كبعض الامم التي يكون خطأ عينيها عندما يتلاقيان بالانف زاوية منفرجة ، عيناه غير ناتئتين ، انفه متوسط الطول والعرض ، اعضاؤه متناسبة ، قوي البنية ، مستطيع لتحمل الالتهاب وغير السريع التأثر من تغيرات الهواء ، بشرته بيضاء وانما تؤثر فيها الشمس بالسمرة .

1 — ومن الاوصاف ما يختص ببعض الفرق : ففرقة منهم طوال القامة ، مستطيلا الرؤوس والوجوه حواجبهم ناتئة ، انوفهم طوال رقائق . قليلوا شعر اللحية ، اكتافهم عريضة ، خصورهم ضيقة ، ضعاف البنية . وهذه الفرقة موجودة بكثرة .

2 — ومنهم صنف قصير القامة ، طويل الرأس وبه عظام ناتئة ، عريض الوجه ، ناتئ الوجنتين ، عريض الانف ، واسع الفم ، غليظ الشفتين ، ناتئ الذقن ، كثير شعر اللحية ، عريض الصدر والرفخ .

3 — ومنهم صنف ربعة الى القصر ، مستدير الرأس ، عريض الوجه مستدير الجبهة ، غليظ الحاجبين ، قصير الانف ، واسع الفم ، مستدير الذقن ، عريض الصدر . والصنفان الاولان معروفان بالمغرب من قديم الازمنة . وثلاثتها توجد بالجزائر وتونس ، والثالث منها مشهور بجزيرة ومزاب .

واما اخلاق البربري مطلقا فانه فلاح مقيم ، عامل كناز ، تاجر حاذق حربي شجاع ، وقد يكون لصا متمردا ، حار ينتقم ممن اغضبه بأكثر مما يستحق . حر متطرف في الحرية الى درجة انه يكره الرأسة عليه ويتقزز منها الى ان تسنح له الفرصة لهدم تلك الرأسة وتخريب سلطاتها فخور باصله وعشيرته ، هائم بمسقط رأسه حتى اذا فارقه لضرورة بقي حنينه اليه لا يضعف منه طول الاغتراب بل يزيده قوة التهاب فتمنى امكنه العود عاد الى وطنه .

وهذه الاخلاق ترشد الى ان البربري محب لجنسه ووطنه مستكمل لصفات العمل لسعادتهما ودفاع الاجنبي عنهما او على الاقل عدم الرضى عن سلطته ولو طال امدها • وقد ذكر بيروني — وعنه اخذنا مادة هذا الفصل — ان من اخلاق البربري كونه شحيحا جلفا منقادا للخرافات ومؤثرا لها •

وهذا من هناته فان كونه شحيحا جلفا خلاف الواقع المشاهد والمتواتر والمسطر في كتب التاريخ ، وسترى ما يقوله ابن خلدون عنهم من صفات الكمال ، وهو رجل عرفهم وعاشرهم في اواخر ايام عزهم ودخل بجاية احدى عواصمهم •

واما انقيادهم للخرافات واithارهم لها فهو واقع مشاهد في زمننا هذا ولكنه ليس من طبيعتهم بل من طبيعة الجهل الذي ثار منهم وبالنسبة في الانتقام وامدته في ذلك عوامل من الايام •

وقد كان منهم قبل اليوم عظماء في العلوم والمعارف • منهم بوغورطة الموجود قبل الميلاد ، ابدى في كفاحه للرومان مقدرة فائقة في الحرب والسياسة ، ومنهم يوبا الثاني الموجود قبيل الميلاد ، كان من اعظم الفلاسفة وامهر المؤلفين ، ومنهم القديس اوغسطين الموجود في عصر الانحطاط الروماني ، كان نادرة الوجود علما وفصاحة وتقوى واخلاصا وتقانيا في خدمة دينه وجنسه وغير هؤلاء كثير قبل الاسلام منهم من قسمهم علينا التاريخ ومنهم من لم يقصصهم علينا •

اما بعد الاسلام فيكفي المرتاب ان يلقي نظرة على بعض عواصمهم التي كانت من عواصم العلم الكبرى مثل تيهرت وبجاية وتلمسان هذا بالقطر الجزائري فقط • ولا اظيل بذكر المدن الثانوية بله الرجال العظام •

ودونك ما يقوله ابن خلدون عن اخلاق البربر باختصار وتصرف لفظي : واما تخلصهم بالفضائل الانسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة

وما جبلوا عليه من الخلق الكريم فلمهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف • لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون اسوة لتبعيةهم من الامم • فمن خلقهم عز الجوار وحماية النزيل ورعاية الذمة والوفاء بالمهد وبر الكبير وتوقير اهل العلم ورحمة المسكين وحمل الكل وكسب المعدوم وقرى الضيف والصبر على المكارم والاعانة على النوائب ومقارعة الخطوب واباية الضيم ومشاقة الدول⁽¹⁾ وقد اطال ابن خلدون في هذا الغرض ولكننا اقتصرنا على ما اليه الحاجة امس •

4 — القبائل البربرية الكبرى

البربر أمة ذات قبائل وبطون وعشائر لا ينالها الاحصاء • فانهم كانوا يعبرون افريقية من آخر ايام مصر الى المحيط الاطالنتيقي ، ويتصلون من ناحية الصحراء بأرض السودان • وذكر بعض مؤرخي الفرنجة ان البربر في منتصف القرن السادس للميلاد خسروا في حروبهم من البيزنطيين خمسة ملايين من الانفس ، هذا مع انه لم يحارب البيزنطيين جميع البربر كما هو معلوم • وعلاوة على ذلك فقد جاء العرب عقب هذه الخسارة الفادحة ونزلوا على بقية البربر فالفوهم على غاية العزة والمنعة وذاقوا من بأسهم ما يحل عزائم غير العرب اولي الاتحاد المتين في ذلك الحين • لعل هذا الضرب من الاجمال في عظمة البربر وكثرتهم يقيم لي عذرا في عدم تتبع قبائل هذا الجيل ، فلنكتف بذكر القبائل الكبرى التي تعد اصولا لقبائل عديدة • ومتى سنحت لنا فرصة — اثناء مرورنا بادوار التاريخ — بزيادة تفصيل ودعا المقام الى ضرب من البسط فاننا نشرح ما يحتاج القاريء الى شرحه ونبين ما يفيد المطالع ان شاء الله •

اتفق النسابون من العرب والبربر وتابعهم المحققون من الافرنج — دون المتعثرين في شبه الالفاظ — على ان البربر يجمعهم جذمان عظيمان هما برنس ومادغيس (ويلقب مادغيس بالابتر) ، ويقال في شعوب برنس : البرانس ، وفي شعوب مادغيس الابتر : البتر .

واختلفوا بعد هل هذان الجذمان لاب واحد : فعن بن حزم — وهو من نقدة النسابين — انهما لاب واحد ، والجميع من نسل كنعان بن حام ، وعن بعض نسابه البربر ان البرانس فقط من نسل كنعان ، واما البتر فهم بنو بر ابن قيس بن عيلان بن مضر .

وذكر رين قول من قال ان البربر كلهم من بر وأيد ذلك بأن لفظ برانس كلمة مركبة من ثلاث كلمات وهي : اير = بر ، ان = اله ، اس = له = بر اله له .

وهذا الضرب من فلسفة رين اللفظية يذكرنا فلسفة العوام في كلمة فرعون ، اذ يقولون : كان اسمه « عون » وفر عن امه فلما سئلت عنه قالت : فر عون ، فعلق به هذا اللفظ وعرف به .

ومنهم من يدعي ان يبارين من الامم الاروبية وانهم هم الذين يسميهم ابن خلدون البرانس . وهذا من البعد بمكان . ذكر ابن خلدون في بطون مكناسة قبيلة « ابا يرون » فلو اعملنا التشابهات اللفظية مطية لادراك حقائق الانساب لقلنا : ان يبارين هي ابايرون وكان ذلك اقرب من دعوى انها البرانس .

والقائلون بان البتر من سلالة بر بن قيس يروون في التحاق بر بالبربر روايات واشعارا لا احب ان اطيل بجلبها فليس شيء منها بمطمنة له النفس ، ومن كان له ذوق سليم أدرك اثر الصنعة في تلك الاشعار . والصحيح عند حذاق النسابين ان البرانس والبتر جميعا من ولد مازيغ ابن كنعان بن حام .

اما البرانس فيتفرعون الى فروع كثيرة تجمعها سبعة اصول كبيرة وهي : كتامة ، عجيسة ، اوربة ، صنهاجة ، ازداجة ، اوريفة ، مصودة •

قال ابن خلدون : وزاد سابق بن سليم المطماطي وغيره ثلاث قبائل آخر وهي : لمطة ، هسكورة ، كزولة (ويقال لها ايضا جزولة) •
واما البتر فيجمع شعوبهم اربع قبائل كبرى وهي :
ضريسة ، لواتة ، نفوسة ، اداسة •

ومن هذه القبائل او بعض بطونها من يتنصل من البربرية ويعتزى الى العرب • ولكننا تبعا للجمهور في عدها جميعها بربرية ، ومتى دعانا المقام الى زيادة بسط في انساب بعض القبائل فاننا نعيد القارئ بمبلغ علمنا في نسب تلك القبيلة والله المسؤول في بلوغ المأمول •

5 — برابرة وطن الجزائر ومراكزهم به

لم يعن المؤرخون اليونانيون واللاتينيون بتفصيل قبائل البربر وبيان مراكزهم • وانما كانوا يميزونهم بأوطانهم : يقولون في أهل نوميديا : نوميدي ، وفي أهل موريطانيا : مور ، وفي أهل جيتوليا : جيتول • وهكذا في أهل بقية اوطان البربر •

ولعل ذلك يرشدنا الى انهم — وان كان منهم من استولى على الوطن البربري قرونا طويلا — لم يمتزجوا بالبربر امتزاجا يؤهلهم لهذا الضرب من البيان وينير امامهم سبيل هذا النحت من البحث •

ولما جاء العرب امتزجوا بالبربر بسرعة تضاهي سرعة فتوحاتهم ، فأخذوا عن نسابة البربر تفصيل قبائلهم ، وجاسوا خلال ديارهم ، فعرفوا مركز كل قبيلة منهم •

كان وطن ليبية او المغرب او افريقية الشمالية وطنا للبربر وقبائلهم ،

وكان بعض القبائل مختصا بجهات من شرق هذا الوطن او غربه او وسطه ، وبعضها تعددت بطاونه وكثرت شعوبه ، فانتشرت تلك القبيلة بشعوبها وبطونها على الوطن كله ، وكان لها في كل قسم من اقسامه بطن أو شعب •

ونحن نذكر الآن ما كان من تلك القبائل او البطون والشعوب مستوطنا بالوطن الجزائري مع بيان الجهات التي اختص بها كل قبيل حسبما كان في اول الاستيلاء العربي •

تقدم ان البربر يجمعهم جذمان عظيمان : برنس ومادغيس ، وان الجذم الاول يشتمل على عشر قبائل عظمى والثاني على اربع •

وقد اختص من تلك القبائل العظمى بسكنى الوطن الجزائري دون سواه ثلاث قبائل : كتامة ، عجيسة ، ازداجة •

وكان بهذا الوطن ايضا بطون وشعوب من بقية القبائل الاخرى ما عدا قبيلتين من قبائل البرانس وهما: هسكورة، كزولة، فانهما استوطنتا المغرب الاقصى ، وما عدا قبيلتين من البتر وهما : نفوسة واداسة فانهما اقتصرتا على سكنى طرابلس •

فاما كتامة فهي من اكثر قبائل البربر عددا واشدهم قوة واطولهم باعا في الملك وهي احدى قبائل البرانس عند نسابة البربر ، ونسابة العرب يقولون : انها من قبائل حمير تركها بالمغرب افريقش احد ملوك التباغة. ولهذه القبيلة بطون كثيرة المعروف منها عند ابن خلدون ثمانية عشر بطنا • ومن تلك البطون ما يتفرع الى فروع وافخاذ •

وحوالي القرن العاشر الهجري اختلطت كتامة بمصمودة وامتزجت بها فعفا رسما واندرست تلك الاسماء التي عرفها ابن خلدون • من اسماء تلك البطون التي بقيت لعهدنا هذا جميلة • ومما ذكره ابن خلدون من تلك البطون مصالة • والظاهر انها مزالة

التي صارت اليوم علما لقرية بعد اضافة كلمة فج اليها فيقال فج مزالة .
وهي تبعد عن ميلة غربا بأزيد من ثلاثين ميلا .

ومن الافخاذ الصغيرة التي ذكرها ابن خلدون بنو تليلان . وعين
مركزهم بقوله : « أهل الجبل المطل على القل ما بينه وبين قسنطينة ⁽¹⁾ » .

ولم يزل بنو تليلان معروفين بهذا الاسم الى اليوم ومركزهم لهذا
العهد بجبال بين قسنطينة والقل كما قال ابن خلدون .

وكتامة بجميع بطونها وافخاذها كانت تقطن الساحل البحري من
بونة الى بجاية وتتقدم في داخل الوطن الى حدود جبل اوراس .

ومن مدنها بلزمة ، باغاية ، سطيف ، قسنطينة ، جيجل ، القل ،
السيكدة ⁽²⁾ في مدن اخرى .

واما عجيسة فهي قبيلة عظيمة من قبائل البرانس . كان لها بين
البربر كثرة وظهور كان موطنهم شرق صنهاجة وجنوب زاوية بجبال
المسيلة وقلعة عجيسة التي صارت من بعد حاضرة آل حماد .

وقد انكسرت شوكتهم في عهد آل حماد وزاحمهم الهالليون
وازاحوهم من موطنهم ففرقوا اوزاعا في قبائل البربر منهم من ذهب
الى تونس ومنهم من ذهب الى المغرب الاقصى .

وفي ارض بني تليلان اليوم قرية بدوية تدعى عجيسة فلعل اهلها
من بعض افخاذ عجيسة ساكنوا بني تليلان .

واما ازداجة (ويقال ايضا وزداجة) فقبيلة عظيمة من قبائل البرانس
« وكثير من نسابة البربر يعدونهم في بطون زناتة » . وقد يقال : ان

(1) ج 6 ص 150

(2) ذكر ابن خلدون من مدن كتامة : « السيكرة » واظنها تحريف
السيكدة .

ازداجة من زناتة • وزداجة من هواره • وانهما بطنان مفترقان • وكان
لهم وفرة وكثرة ⁽¹⁾ » •

ومركزهم بالمغرب الاوسط بنواحي وهران منه •

وفي القرن الرابع للهجرة اضعفتهم الفتن فذهبت ريعهم وانتقل أهل
الرياسة منهم الى الاندلس •

واما اوربة فقد كان بعضها بالمغرب الاقصى وبعضها بالمغرب الاوسط
— على ما يفهم من حديث ابن خلدون عنهم — فليست من القبائل
المختصة بوطن الجزائر •

وهي ذات بطون كثيرة عد ابن خلدون منها سبعة • وكانت لمهد
الفتح العربي اكثر القبائل البربرية عددا واشدها قوة واقواها بأسا
وكانوا مستوطنين شمال الزاب • وذكر البكري منهم طائفة حوالي بونة
وفي اوائل الفتح العربي ايام عبد الملك ابن مروان دحر الجيش العربي
هذه القبيلة الى المغرب الاقصى •

واما صنهاجة فقبيل عظيم من قبائل البرانس • وزعم بعضهم : انها
ثلث البربر ونسابة العرب ينسبونهم الى عرب اليمن وانهم تركهم افريقش
بالمغرب لما قتل من غزوه • ويقول مرسى وبيروني : انهم من المور
والجيتول • وهم ذوو بطون عديدة • نقل ابن خلدون عن بعض مؤرخي
البربر انها تنتهي الى سبعين بطنا •

ومواطنهم بالصحراء الى السودان والمغرب الاقصى ، وبالمغرب
الاوسط على ساحل البحر من عمالة الجزائر وهران ويتقدمون في
داخل الوطن الى سهول شلف ينتهون غربا بمصب وادي شلف في البحر
ويختلطون شرقا بزواوة في سهول حمزة • وذكر البكري او زقور

(1) ابن خلدون ج 6 ص 144 •

شمال المسيلة فقال : « وهي عين عذبة باردة عليها شجرة عظيمة • وهذا
(1) آخر حد بلد صنهاجة » •

ومن قبائل صنهاجة المعروفة الى اليوم بنو مزغنة اصحاب مدينة
الجزائر قبلا وذكر ابن خلدون منها لمدينة ولها مدينة بهذا الاسم •
ولعلها لمدينة ، واهلها الى اليوم ينسبون اليها بلفظ لمداني •
واما مصمودة فقبيلة عظيمة ذات بطون تبلغ اربعة عشر ولبعض
تلك البطون افخاذ وفروع •

مواطنهم بالمغرب الاقصى منذ الاحقاب المتطاولة • وذكر البكري
عند الكلام على بونة : ان حولها قبائل كثيرة منها مصمودة •

واما لمطة فقبيلة كبيرة ذات شعوب كثيرة • وهم اخوة صنهاجة ،
مواطنهم بالسوس وما يليه من بلاد الصحراء • واكثرهم مجاورون
للملثمين من صنهاجة • قال ابن خلدون : ومنهم قبيلة بين تلمسان وافريقية •
واما اوريعة فاحدى قبائل البرانس العظيمة ذات بطون كثيرة منها
هواره • وهم ولد هواره بن اوريغ بن برنس ، باتفاق نسابة العرب
والبربر ويتفرعون الى سبعة فروع •
ومواطن الجمهور من هواره لاول الفتح بنواحي طرابلس وبرقة •

وذكر البكري قبائل بربرية تسكن حول تاهرت ، منها هواره
تسكن قبلتها وذكر منهم شعبا يسكن مدينة الغدير • وذكر ابن خلدون
موطنا آخر لهواره وهو جبل اوراس مع كتامة ولواتة • هذا آخر ما
قصدنا اليه من الكلام على قبائل البرانس •

وقد كان للواتة وضريسة من قبائل البتر بطون استوطنت الجزائر
ايضا • ولواتة قبيلة عظيمة تنتسب الى لوا الاصغر — وهو نزاو —
بن لوا الاكبر بن زحيك • ولها بطون سبعة منها مزاتة وهي اوسعها

ومنها صدراتة ، ومنها نفزاوة • ومواطن لواتة في القديم بنواحي برقة
وطرابلس الى قابس •

قال ابن خلدون : « وكان منهم بجبل اوراس أمة عظيمة • ولم
يزالوا باوراس لهذا العهد مع من به من قبائل هوارة وكنامة⁽¹⁾ » •

وقال أيضا : « وكان من لواتة هؤلاء أمة عظيمة بضواحي تيمرت
الى ناحية القبلة وكانوا ظواعن هناك على وادي میناس » •

وقال أيضا : « ومنهم أيضا بضواحي بجاية قبيلة يعرفون بلواتة
ينزلون ببسيط تاكرات⁽²⁾ » •

وبطن مزاته منهم كانت له مدينة بلزمه على ما ذكر البكري • وبطن
صدراته ذكر البكري انهم حول بسكرة ولصدراته اليوم قرية معروفة
بهم في أعالي وادي سيوس • ونفزاوة هم بنو تطوفت بن نفزاو بن
لوا الأكبر بن زحيك •

وكانت لعهد الفتح العربي من القبائل ذات الكثرة والقوة ، ولها
تسعة بطون منتشرة في جهات من طرابلس وتونس ومركزها بالجزائر
في شرق عمالة قسنطينة •

ومن بطون نفزاوة ولهاصة • وهي تقطن حيث تقطن كومية •
واما ضريسة فمن بطونها بوطن الجزائر : بنو فاتن ، زواغة ، زواوه ،
مكناسة ، زفاتة •

بنو فاتن هم أبناء فاتن بن مصيب بن ضريس ، ويتشعبون الى
عشرة شعوب : مطفرة ، لماية ، مطماطة ، مديونة ، كومية ، مغيلة ،
ملزوزه ، دونة ، كشانة ، صدينة •

وبنو فاتن منتشرون في المغرب تلولة وصحرائه يلون صنهاجة غربا
على الساحل الوهراني ومنتشرون في داخل العمالة •

(1) ج 6 ص 117 •

(2) ج 6 ص 118 •

فاما مطهرة فقد كانت ذات قوة وكثرة لعهد الفتح العربي تقطن ما بين فاس وتلمسان ، وتتقدم الى جهات شلف وجبل بني راشد . ومن مدن مطهرة قرية تدعى « جليداسن » وهي على مرحلة من تنس مطلة على فحص شلف ، ومنها تابحريت قرية على البحر الرومي بساحل وجدة ، وذكر ابن خلدون منهم رهطا بالصحراء يقطنون قليعة والي . وهي المعروفة اليوم بالقليلة ويقولون فيها أيضا : المنبعة .

واما لماية فلها افخاذ كثيرة ، كانوا ظواعن بافريقية وجمهورهم بالمغرب الاوسط . ومن مراكزهم به جبل جزول ونواحي وانشريس . وبطن لماية هو الذي نزل عليه عبد الرحمن بن رستم حينما فر من القيروان الى المغرب الاوسط ، وأسس دولة فيما بعد من غرر دول الجزائر .

وقد انقرضت لماية بانقراض ملك الرستميين وتفرقت اوزاعا في القبائل .

قال ابن خلدون : « ومنهم جربة الذين سميت بهم الجزيرة البحرية تجاه ساحل قابس . وهم بها لهذا العهد ⁽¹⁾ » .

واما مطماطة فهم شعوب كثيرة ايضا ومتفرقة في نواحي المغرب كله . و مركزهم بالجزائر بتلول منداس عند جبل وانشريس وجبل جزول من نواحي تيمرت .

واما مديونة فانها تقطن نواحي تلمسان الى جبل مديونة غربا وجبل بني راشد شرقا . وفي جوارهم شرقا بنو يلومي وبنو يفرن ، وغربا مكناسة ، وشمالا على السواحل كومية وولهاصة .
واما كومية — ويعرفون قديما بصطفورة — فلهم بطون ثلاث : ندرومة ، مغارة ، بنويلول ، ومن هذه البطون تفرعت شعوب كومية

وتعددت قبائلهم ومواطنهم قال ابن خلدون : على ساحل تلمسان
وارسكول •

ولعل ارسكول هي القرية التي ذكرها البكري بلفظ ارشقول عند
مصب نهر تافنا في البحر • وذكر البكري من حصونهم حصن هنين
على البحر •

واما مغيلة فانها تقطن بالشاطئ الايمن من شلف عند مقبى في
البحر ولهم مدينة على البحر تدعى « آسلن » بساحل تلمسان • قال
البكري : « وهي مدينة قديمة عليها سور صخر • • ولها نهر يصب في
البحر من شرقها » ⁽¹⁾ •

ويسكن مغيلة اخوتهم من ملزوزة ودونة وكشانة • ومن ساحلهم
اجتاز عبد الرحمن الداخل الى الاندلس وبذر بذور حضارة كانت
من بعد المثل الاعلى •

هذا آخر قول في ابناء فاتن ملتزما فيه الايجاز •

واما زواغة فهم من ولد سمكان بن يحيى بن ضري او (ضريس)
واقرب ما اليهم من البربر زناتة ، لان ابا زناتة جانا وهو اخو سمكان
ابن ابيه • ولزواغة بطون ثلاثة متفرقة في القبائل بطرابلس والجزائر
والمغرب الاقصى • وذكر ابن خلدون منهم رهطين بالجزائر : احدهما
بجبال وبسائط غرب ميلة على القرب منها ، وهم معروفون حتى اليوم
باسم زواغة ، وهذه عبارة ابن خلدون :

« وفي جهات قسنطينة ايضا رهط من زواغة » ⁽²⁾

ثانيهما بجبال شلف غرب تاهرت • وذكر البكري مدينة شلف
فقال : وتعرف بشلف بني واطيل • وهي لزواغة •

واما زواوه فهي قبيلة عظيمة تشعب الى شعوب عظيمة عرف منها

(1) المغرب ص 79 •

(2) ج 7 ص 7 - 8 •

قديما احد عشر بطنا • وهم اخوة زواغة من ولد سسكان بن يحيى •
وقال ابن حزم : انهم من قبائل كتامة • قال ابن خلدون : « والصحيح
عندي ما ذكره ابن حزم • ويشهد له الموطن ونحلة التشيع مع كتامة ⁽¹⁾ » •

وقال في موضع آخر : « والمحققون من النسابة مثل ابن حزم
وانظاره انما يعدونهم في بطون كتامة • وهو الاصب والمواطن اوضح
دليل عليه • » ⁽²⁾ وغلط من جعلهم اخوة زواغة بان القبيلة التي هي
أخت زواغة تدعى زواوة • والقارئ صحف زاي زواوة بواو زواوة
فطن زواوة أخت زواغة ⁽³⁾ •

وقد اشتهرت مواطن زواوة باسم القبائل وهذه اللفظة تطلق ايضا
حتى اليوم على مواطن كتامة ، وان لم تشتهر فيها اشتهارها في وطن
زواوة • وقد يكون هذا الاطلاق عاضدا آخر لما يستصوبه ابن خلدون •

وطون زواوة بجمال القبائل الكبرى ما بين كتامة شرقا وصنهاجة
غربا وعجيسة جنوبا •

واما مكناسة فبطن عظيم من بطون ورسطيف • وورسطيف اخو
جانا وسمكان فالثلاثة ابناء يحيى بن ضري •

والمعروف قديما من بطون مكناسة ثمانية

وكانت مواطنهم على وادي ملوية من لدن سجلماسة اعلاه الى
مصبه في البحر •

وذكر البكري ان من القبائل التي تسكن حول تاهرت مكناسة
بجوفها •

واما زناتة فقبيلة عظيمة من القبائل العريقة في القدم • وبما كان لها
من الكثرة تغلبت فيما بعد على بقية بطون ضريسة •

(2) ج 6 ص 151 •

(3) المعروف بطرابلس اليوم زواوة بالراء لا بالزاي •

ويرى ديكلوس من متأخري المؤرخين : ان الجيتول اصل صنهاجة
زناتة .

قال ابن خلدون : « وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات
طرابلس الى جبل اوراس والزاب الى قبلة تلمسان ثم الى وادي
ملوية » ⁽¹⁾ قال : « والاكثر منهم بالمغرب الاوسط حتى انه ينسب
اليهم ويعرف بهم ، فيقال : وطن زناتة » ⁽²⁾ .

قال ابن خلدون : وشعوب هذه القبيلة اكثر من ان تحصى . وعليه
فانا تقتصر على ذكر الشعوب التي كانت لها شهرة في التاريخ ، وهي
هذه العشرة : جراوة ، اوغمرت ، يفرن ، مغراوة ، واسين ، يرنيان ،
ورجلة ، ورنيدين ، يلومي ، ومانو .

اما جراوة فهم ولد كراو بن الديرت بن جانا (وهو زناتة) وكانوا
قبل الاسلام اهل كثرة وقوة وفيهم رئاسة زناتة .
مواطنهم لعهد الفتح بجبل اوراس . ثم تفرقوا من بعد اوزاعا في
قبائل البربر بالمغرب الاقصى وغيره .

واما اوغمرت (ويقال غمرت ايضا) فهم من ولد ورتنيص بن جانا،
وكانوا من اوفر بطون زناتة عددا .

قال ابن خلدون : « ومواطنهم متفرقة ، وجبهورهم بالجهال الى
قبلة بلاد صنهاجة » ⁽³⁾ وذكر مرسبي من مواطنهم جبل بني راشد .
واما ورجلة (ويقال ايضا وركلة) فهم من ولد وركلة بن فرني بن
جانا . وموطنهم بالصحراء جنوب بسكرة . ولهم مصر اختطوه معروف
باسمهم الى اليوم .

(1) ج 7 ص 7 - 8 .

(2) ج 7 ص 2 .

(3) ج 7 ص 50 .

واما يفرن فهم بنو يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا •

وهم من اوسع بطون زفانة • وكانت لهم الرئاسة من بعد جراوة • ومواطنهم فيما بين تلمسان وتاهرت وفي الحضنة وجنوب اوراس • وكان لهم ملك في العصر الاسلامي بالمغرب الاوسط ثم الاقصى •

واما مغراوة فهم بنو يصلتين بن مسرا • فهم أخوة يفرن كانوا اوسع بطون زفانة وأهل البأس والعلب منهم • وشعوبهم كثيرة • ذكر ابن خلدون منها ثمانية (منها ديفة والاعواط) ثم قال : وغيرهم ممن لم تحضرني أسماؤهم •

وكان لهم في العصر الاسلامي ملك بفاس وسجلماسة (تفيلاط) وتلمسان وطرابلس وغيرها •

وموطنهم بالمغرب الاوسط من شلف الى تلمسان • ولهم مراكز ايضا من اخوانهم بني يفرن بالحضنة وجنوب اوراس •

واما واسين فهم بنو واسين بن يصلتين ابي يفرن ومغراوة • ولهم افخاذ عظمت وصارت ذات كثرة وقوة • منها بنو مرين ملوك المغرب في الاسلام ، وبنو عبد الواد ملوك المغرب الاوسط ، وبنو توجين ، وبنو مصاب (مزاب) ، وبنو راشد ، وبنو رزدال في قبائل أخرى • ومواطنهم بالزاب ووادي ريغ وجبل راشد الى ملوية •

واما يرنيان فهم اخوة مغراوة • لهم بطون كثيرة وافخاذ عديدة • وهم منبثون في مواطن زفانة ، واختطوا قصورا كثيرة على وادي ملوية • واما ورنيدين فهم بطن من بطون دمر • ولهم شعوب كثيرة وفصائل عديدة منها بنو برزال •

وهم بنو ورنيدين بن واثن بن واردير بن دمر بن ورسيك بن الديرت • وكانت مواطنهم غرب جبل بني راشد قبلة تلمسان في البساط

والسهول • ثم انزاحوا عندما غلبهم بنو راشد الى الجبل المطل على تلمسان ، وبنو برزال منهم كانوا بجبل سالات وما اليه من نواحي المسيلة •

واما ومانو فقبيلة من اوفر قبائل زناتة عددا واشدها شوكة • وكانت تقطن الجهة الشرقية من اسفل وادي شلف على نهر میناس •
واما بنو يلومي فهم أيضا من اوفر قبائل زناتة عددا واشدها بأسا كانوا يقطنون العدو الغريبة من شلف الى جبل هواره وفحص سيرات ويذهبون جنوبا الى جبل بني راشد •

هذا ما اردنا ايراده من قبائل بربر الجزائر ومواطنهم على ما عرف لهم العرب لاول استيلائهم على المغرب • ولم يزالوا بها الى القرن الخامس الهجري حينما حمل الهلاليون على هذا الوطن حملة ازاحت كثيرا من قبائل البربر عن مواطنها ، وحل الهلاليون محلها •

والظاهر ان المراكز التي ادركها العرب للبربر وعرفوها لهم هي مراكزهم القديمة • اذ لا يعرف التاريخ هاجما غير خريطة افريقية وملك على البربر اوطانهم وحل محلهم بصفة دائمة غير الهلايين ومن انضاف اليهم من عرب المائة الخامسة • وعندما يحين القول في هؤلاء العرب وتتكلم على شعوبهم ومراكزهم نذكر — ان شاء الله — المراكز الجديدة للبربر • ونزيد القول في شعوبهم وافخاذهم بيانا وشرحا •

6 — الحياة البربرية

عمر البربر وطنهم الثاني لبيبة (المغرب) قبل التاريخ • فلا جرم كانت حياتهم في البساطة شبيهة بحياة بقية أهل العصر الحجري في المسكن والملبس والمطعم والمكسب • ولكنهم ترقوا — وفق طبيعة النشوء والارتقاء — في ذلك • وتأثروا بمجاورة الاغريق اولا ثم بمعاشرة

الفينيقيين • وكانوا أسبق من الرومان الى الاقتباس من حضارتي هاتين الامتين •

عرف البربر — كسائر البشر — معدن النحاس فانتقلوا من مدينة العصر الحجري الى حضارة العصر النحاسي • ولكنهم لم يلجوا هذا العصر الثاني الا حين اكتشاف معدن الحديد • فاندمج هذان العصران عند البربر في عصر واحد • على أن عصر الحجارة طال امده بدواخل وطنهم • فعاصر الحديد حيناً من الدهر •

من الآثار النحاسية المكتشفة بالوطن الجزائري قطع بضواحي مدينة قيسرية ، واخرى بضواحي مدينة اقسيوم • ووجدت ايضا صفائح نحاسية بمنزل في مغارة قرب مدينة صلداي ، ومعها قطع بصددالتكوين لم يزل بها اثر الفحم • وذلك يدل على انها مصنوعة هنالك وليست منقولة من وطن آخر •

1 — المسكن : كان البربر منهم الرحل اهل البيوت التي يخف حملها مهما ارادوا الظعن لاتتجاع الكلا والعشب بمواشيهم ، ومنهم المقيمون اهل القرى والمدن ، يتخذون بيوتهم اما من الخشب واما من الحجارة ويعطون سقوفها بالديس او غيره من النباتات • ولهم في هندسة البيوت اشكال وفي بنائها كيفيات • منها بناء جدارين متوازيين بالحجارة ثم صب الحصى خلالهما حتى يمتليء ما بينهما من الفضاء •

وقد أسس البربر مدنا عظيمة • منها ما طوى عنا التاريخ خبره واعفى كره الغداة والعشي أثره ، ومنها ما بقى ذكره مرعيا لو حوفظ على موقعه فلم يزل موضع عمارته مرئيا •
وستتکلم على ما حفظ التاريخ للبربر من المدن حسبما تدعونا المناسبات •

2 — الملابس : كان ملابس البربر من الصوف بعد ما عرفوا

الحياكة • منها البرنس • وهو ثوب أعلى يسلك في العنق او يوضع على الاكتاف ينسج قطعة واحدة ويترك من أمام مفتوحا ، لا يخط الا ما يقابل الصدر منه • وهو قديم بينهم ومعروف عند غيرهم ايضا . فقد كان لباسه شائعا بين اليونان والرومان • ووصف ابن خلدون برانس البربر بأنها كحل • والبربر معروفون بالمحافظة على العوائد العتيقة فلعل هذا الوصف قديم ايضا • ولم يزلوا حتى اليوم بوطن القبائل ينسجون برانس في غاية المتانة والاحكام • ولونها في الغالب أزرق • فاما ان يكون هذا اللون حدث بعد ابن خلدون واما ان يكون هو الذي تساهل فعبر بالكحولة مكان الزرقة • والعرب تتساهل في الالوان المتقاربة •

ومنها القشائية • وهي ثوب اعلى ايضا له اكمام يسلك في العنق ويخط من أمام ، لا يترك منه الا الجيب (الرقبة) ولا يلبس البرنس فوقها الا نادرا • وهي قديمة جدا • وكانت من ملابس الرومان ايضا . ومنها الكساء • وهو قطعة صوف غير مخيطة يشتمل بها الرجال والنساء اشتمال الصماء • وهو قديم أيضا ، ومعروف عند قدماء المصريين • ولم يزل لباسه حتى اليوم شائعا في بعض الجهات • وفي اغلب الوطن الجزائري تفننوا في نسجه ورققوه وزينوه بالحرير فصار من ملابس الزينة يختص به أهل الهياآت ويعبر عنه عرب الجزائر بالحاءك •

ومنها السراويل القصيرة او الطويلة ، وهي معروفة ايضا عند الغالين قدماء الافرنج •

ويلبسون غير ذلك جلود الحيوانات بعد دبقها • وهي من ملابس الغالين ايضا ما زلنا نشاهدها اليوم عند اعقابهم المتمدنين • أما البربر فقد تركوا هذا اللباس من قديم ، ولم يحافظوا عليه خلافا لعاداتهم في غيره •

وقد احسنوا في رفض لباس يقرب صاحبه في المنظر من الحيوانات الوحشية ، ويذكر بأخلاقتها في المجتمع صباح مساء .

وكانوا يضعون على رؤوسهم « القنور » . ويرجع عهده الى الالف الثالث او الثاني قبل الميلاد . وقد قدر له ان يعيش — على ثقله حسا ومعنى — هذا العمر الطويل . ولكنه اليوم ادركه الهرم ودب فيه ديب الفناء ولا ندري متى يحين الوقت الذي يوضع فيه بدار الآثار . وعلى كل حال فلم يكن لباسه عاما . فقد قال ابن خلدون — متحدثا عن عموم البربر — : « ورؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلقي » ⁽¹⁾ وذكر عن زناتة — وهم من سكان جيتولية على ما سبق — انهم يلبسون العمائم « يلفون الليت والاخلدع قبل لبسها ثم يتلثمون بما تحت أذقانه من فضلها » ⁽²⁾ وكان بربر نوميديا لا يحلقون رؤوسهم ويفرقون شعرها غديرتين يرسلون مع كل جانب غديرة .

واتخذوا الحلبي من النحاس والفضة والذهب خواتم واساور وخلاخل وغير ذلك .

ولم يغيروا الى اليوم لباسهم القديم الا سيرا خصوصا البادين منهم .

3 — المطعم : لا شك ان البربر كانوا قبل معرفتهم للزراعة يقتاتون من لحوم الصيد والحيوانات الانسية وبعض النباتات الطبيعية التي لا تضر بمعدتهم . اما بعد ان عرفوا الزراعة فلا ريب انهم استعملوا من الجبوب ضروبا من الاطعمة ، نقلوا بعضها عن غيرهم من الامم . ومن الاطعمة المنسوبة لهم « الكسكس » وهو اليوم من أهم أغذيتهم . يواظبون عليه للعشاء . وقليل ما يستعملونه غداء . وقد أثروا على عرب الجزائر في اقتنياته فصاروا سواسية في اعتماده غداء لابدانهم .

(1) ج 6 ص 89

(2) ج 2 ص 15 .

4 — المكسب : كان البربر من قديم يكسبون الغنم والبقر والخيـل
الغنم والبقر لنتاجها والبانها وغير ذلك من فوائدها ، والخيـل لركوبها
اما للصيد واللهو واما للحرب والغزو .

واشتهر في الفروسية بربر نوميديا . وخیلهم كانت قصيرة سريعة
العدو . تصلح لاستطلاع احوال العدو ورد الفارين من الجيش .
يلبس الفارس منهم لباسا خفيفا ويحمل سلاحا خفيفا ايضا ، ويعتلي
صهوة فرسه من غير سرج ولا لجام . وانما يمسك بيده قضيبا من خشب
يصرف به الفرس طوع ارادته . وهذا دليل على حذقهم في سياسة الخيل
ومهارتهم في تربيتها .



ش - ١ - (رسم فارس نوميدي)

ومن مكاسبهم الابل وهي معروفة قديما بآسيا • ولكنها لم تدخل الوطن البربري الا حوالي سنة 66 (ق.م) قال ابن خلدون : وهي من مكاسب أهل النجعة منهم شان العرب •

وكانت لهم معرفة بالصناعات المعدنية وزراعة الحبوب ، فكانوا يزرعون الفول • قال بيروني : ويظهر ان أصله من ارض البربر • ويزرعون الشعير ، وهو اكثر فلاحتهم ، والقمح وجوبا أخرى • قال بيروني : ولا نعلم أهذه الحبوب محلية ام مجلوبة ؟ وكان بوطنهم العنب والزيتون ، ولكنه طبيعي غير مغروس •

وصنعوا من المعادن ما كانوا يصنعونه من الحجارة وبذلك سقطت الصناعة الحجرية الا بدواخل الوطن فقد عاشت وترقت حتى صارت في غاية الاتقان •

واتفقت كلمة من وقفنا على كلامهم من المؤرخين ان البربر لم يتعلموا الفراسة الا من الفينيقيين • اما الفلاحة واستخراج المعادن فقد قال اغسال : ان البربر تعلموها من قدماء المصريين وسكان جزر البحر الابيض المتوسط • كانوا اولاً يقتنون مصنوعات هذه الامم ويستوردونها ثم تولوا صناعتها بانفسهم •

7 — نظام المجتمع البربري

كان البربر مقتنعين — منذ نزلوا ليلية — في حياتهم بما منحهم الطبيعة من خصب اراضيهم التي كانت — على كثرتهم ووفور عدد قبائلهم — تفي بحاجتهم وحاجة حيواناتهم • فلم يكن لهم من غرض في استعمار وطن آخر ، ولا بلغ بهم الجشع ان يسفكوا دماء محترمة ، ويصبغوا بلونها القاني تراباً تنسبط نفوسهم من بعد للتمتع فوقه بخيراته وجهود ابنائه المظلومين • وانما كانت تقع منهم بعضهم على بعض هجومات

اما لصيانة حرمة انتهكت واما لدالة الشرف حيث يكون منهم ذو عزة بعشيرته فيريد ان يفرض سيادته على جيرانه • وهي سيادة اديسة شرفية غير مشوبة بطمع في مغرم او انتزاع ارض •

لذلك لم يكن لهم في القديم ملوك عظام ودول فخام وانما كان منهم امراء على قبائل وسادات على عشائر •

وكانت السلطة المنزلية بيد الرجل ولذلك كانت انسابهم تابعة لآبائهم لا لامهاتهم ، وروى هيرودوتس⁽¹⁾ — على ما ذكر الكعاك — ان نظام الامومة كان أيضا حالة من حالات المجتمع البربري • تكون السلطة فيه للام ، والاب غير معترف به شرعا والابناء تابعون لخالهم في الميراث ، وعلى هذه الرواية يكون البربر اسبق الامم الى الاعتراف بحرية المرأة • ويؤيدها ان ابن خلدون ذكر قبائل منهم تنسب الى امهاتهم • وذكر رين قبائل عبر عنها بأولاد امهاتهم • وقد بقي أثر ذلك اليوم عند « اليقاشين » فانهم اذا حسبوا لمريض او غيره توصلا للغيب عدوا حروف اسمه واسم امه دون أبيه • وكذلك اذا رقوا لاحد رقيتهم كتبوا بها اسمه واسم امه لا أبيه •

ونحن — اذا أيدنا وجود نظام الامومة قديما — لا نريد انه عام بين البربر بل خاص ببعض الاوساط ونظام الابوة هو الغالب •

قال مرسبي : « ومن غير شك ان لكل قبيلة قوانين تخضع لها • ولم يزل أثرها الى اليوم في وطن القبائل » •

وقال أغسال : ويؤخذ من الكتابات الحجرية الاثرية ان فراغة مصر كانت لهم علاقات بالليبيين وكان الليبيون ينتهزون فرصة ضعف الفراعنة ليغيروا على سواحل النيل ويملؤا ايديهم من الغنائم • واحيانا يكونون

(1) مؤرخ يوناني شهير يلقبونه شيخ التاريخ واما التاريخ عاش قبل الميلاد بنحو 450 سنة •

جندا مرتزقين لدى الفراعنة • وفي القرن الرابع عشر والثالث عشر (ق.م) كادوا يستولون على مصر •

هذا كلام أغسال • وهو — وان كان تاريخه خاصا بالجزائر — لا يصح حمل كلامه هذا على الجزائريين • وان كانت الجزائر من ليبيا • وانما يصدق على البربر المجاورين لمصر • اما بربر الجزائر فان لهم من وطنهم ما يغنيهم عن مزاحمة القبط على النيل •

لذلك عاشوا دهورا متمتعين بلذة البساطة في مجتمعهم اغنياء عن النظام الدولي ، اذ لا تحتاج اليه الا امة اضطرها ضيق عيشها الى تعدي بعضها على بعض او التوسع على حساب أمة أخرى •

عاش بربر الجزائر ما شاء الله ان يعيشوا في راحة من تحمل عبء الملوك ودلثهم ، اعزاء عن الخنوع لشهوات الامراء وجبروتهم حتى الجأئهم حروب قرطاجنة مع رومة الى تجشم مرارات النظام الدولي •

يقظتهم تلك الحروب الى أن من الامم ما لها مطاعم في استعباد غيرها • فضخموا ملكهم ووجدوا امارتهم كي يحفظوا وطنهم من عاديات عشاق الزعامة العامة والسيادة السامة • وكان منهم اذ ذاك ملوك سنأتي — ان شاء الله — فيما بعد على تفصيل حياتهم وبيان اعمالهم الجليلة بقدر ما تسمح به المادة التي بأيدينا •

8 — لغة البربر وكتابتهم

البربر يسمون لغتهم « تماشغت » ولهم لهجات مختلفة • ففي ابن خلدون : ان زناة منهم لها رطانة خاصة بها • ونرى اليوم فرقا بين لغة زواوه احدى بطون ضريسة ، ولغة مصاب (مزاب) من زناة وغيرهم •

اما أصلها فهو تابع لاصل الناطقين بها • ويقول بيروني : انها غريبة مجهولة الاصل ، كما ان البربري نفسه مجهول النسب •

والصواب خلاف ما يقول فقد قدمنا ما عليه محققو المؤرخين من ان البربر جنس حامي • ووطنهم الثاني (ليلية) ساكنهم به طوائف من أمم مختلفة • واذن فاللغة البربرية حامية الاصل مشوبة بعدة ألفاظ من الفينيقية وغيرها من لغات الامم التي جاورتهم او استولت عليهم •

والبربرية تخالف اللغات السامية في انها يسوغ فيها الابتداء بالساكن واجتماع الساكنين فاكثر وتقديم المضاف اليه على المضاف • وتوجد فيها كلمات مركبة تركيبا مزجيا وليست اعلاما • وقد ينقلب فيها الفعل اسما والاسم فعلا • ولا كذلك اللغات السامية •

يقول رين : ان اللغة العربية واللغة الفرنسية استعارتا الفاظا من البربرية • وسرد تلك الالفاظ التي يدعى اصالتها في البربرية • وهو ان كان يريد ذلك في العصور الاخيرة فلا منازعة ، وان كان يدعي ذلك في القديم فلا انازعه في ذلك بالنسبة الى اللغة الفرنسية فقد يساعده التاريخ على ذلك لان بربر نوميديا مكثوا مع حنبعل القرطاجني سنين بالغاليا وغيرها من جنوب اروبا ، واختلطوا بهم في جيش قرطاجنة أيضا واللغات اذ ذاك ضيقة تحتاج الى النقل فلا يبعد ان يكون قدماء فرنسا أخذوا من البربرية •

اما العربية فبعيدة جدا عن البربرية • ولا يعلم في التاريخ وقوع اختلاطين هاتين الامتين الا ما كان من غزو افريقش للبيبة ⁽¹⁾ • ولكن ذلك لا يؤيد دعوى رين لان المغلوب هو الذي ينقل عن الغالب • على ان علماء العربية تكلموا في الدخيل واعتنوا بتمييزه حتى خصه بعضهم بالتأليف • ولم يذكروا منه كلمة بربرية •

(1) مما ثبت غزو افريقش للبيبة ما ذكره ابو يعلى في كتابه تاريخ الزواوة (ص 22) انه رأى في المجلة الاسيوية ان علماء الاثر اكتشفوا الخط الحميري منقوشا على حجر في بعض قرى افريقية •

ان من الالفاظ التي ذكرها رين بربرية نقلت الى العربية ما هو عربي حقيقة . فان كان موجودا في البربرية فهو دخیل فيها بعكس دعواه وتكون تلك الالفاظ موروثه عن قبيلتي كتامة وصنهاجة العربيتين .

كانت اللغة البربرية — كغيرها — ساذجة بسيطة ثم تطورت مع الزمان وتأثرت بما كان يجاورها من اللغات الراقية . وخصوصا الفينيقية . وكان لها ادبها وبلاغتها والفت بها التأليف العلمية قبل الاسلام وبعده .

وكان للبربر خط خاص بهم ، وحروفه تمثل شيئا من اشیاء الكون مثل الشمس والهلال والبرق . وتدلل على معنى موافق اما لصفة ذلك الشيء مثل السرعة للبرق واما لفائدته مثل الحرارة للشمس .

كان هذا الخط في القديم يتركب من عشرة حروف يسمونها « تيفيناغ » ومعنى هذه اللفظة الحروف المنزلة من عند الاله ، لانهم كانوا يعتقدون انها ليست من وضع البشر . ويتركب من خمسة اشكال يسمونها « تيدباكين » ومعناه : الدليل على العمل والتوسع . ويعتقدون انها من وضع البشر .

حروف تيفيناغ هي التي تفيد المعاني ، وحروف تيدباكين اما لضبط تلك الحروف او توكيد معنى حرف منها .

وكانت حروف الامم قديما مثل الاغريق واللاتين عشرة ايضا . وذلك ان الانسان يخترع على قدر حاجته . وفي بدء عهده بالحياة كانت دائرة افكاره ضيقة ، والمعاني التي يعبر عنها قليلة . فكانت هذه الحروف — على قلتها — وافية بحاجته .

وهذه صورة حروف تيفيناغ القديمة مفسرة بما يوافقها او يقاربها
من الحروف العربية :

+	≋	□	□	≡		
ت	ي	س	ر	م	ل	ن

^
د

⊞	⌵
ب	ج

وهناك حروف احدث منها وهي :

⌵	⌵	⌵	⌵
---	---	---	---

ش وقد يكتب هكذا ز مخرجه بين ز (و) س ث

⌵

وهذه صورة حروف تيد باكين :

- 1 • هذه الشكلة حركة • والاكثر ان تكون فتحة •
- 2 : هذه الشكلة واو مد غالبا •
- 3 : هذه الشكلة تؤكد معنى حرف الجيم •
- 4 : هذه الشكلة لا نظير لها في العربية •
- 5 : هذه الشكلة حرف هجائي وحركة معا • ولا نظير لها في

العربية وتوجد غير ما سبق حروف احدث من تلك تختلف باختلاف القبائل معنى ومخرجا • ومن حروف تيفيناغ ما تصرفوا فيه من بعد ، كما ان تلك الاشكال صيروها من بعد كحروف هجائية •

وترتيب الحروف الهجائية في الوضع مجهول لم يهتد اليه الباحثون من طريق النقل ، وانما ظنوا انها كانت ترتب حسب معانيها •
ويقول رين : المظنون ان اللطينيين أخذوا حروفهم عن البربر لانهم يسمون حروفهم الهجائية « المنتا » وحروف ل ، م ، ن ، هي الاولى في الحروف البربرية •

وليس للبربر في القديم نظام في الكتابة : يكتبون من اليمين الى اليسار ، ومن اليسار الى اليمين ، ومن أعلى الى اسفل ، ومن اسفل الى أعلى • ولما جاء العرب أثروا بنظامهم فصاروا يكتبون من اليمين الى اليسار • وبطول المدة نسي المختلطون بهم الحروف البربرية وصاروا يكتبون لغتهم بحروف عربية • ولم تعش حروفهم الا بين الملثمين في مجاهل الصحراء فانهم لم يزالوا يكتبون بها الى هذا العهد.

9 — المعتقد البربري

كان قدماء البربر يعتقدون وجود اله يسمونه « عمون » ولكن يرون انه ليس له وجود مستقل ، وانما هو روح تحل ببعض الكائنات مثل الشمس والقمر والرعد والبرق وغيرها •

لذلك كانوا يعبدون تلك المظاهر وهي ترجع الى ثلاثة اصول :

1 — الكواكب : كانوا يعبدون منها الشمس والقمر • ويمثلون الشمس بقرني الثور • وقد يتخذون لقرصها تمثالا يضعونه على رأس صورة تيس كما دلت على ذلك الآثار •

2 — الحيوانات : كانوا يعبدون منها الثور وهو في المنزلة الاولى

من الالهية ، والكبش ، وهو في الدرجة الثانية • ويعبدون سواهما
الانعى والبوم والحمام والطاوس والسلحفاة والضفدع والقرد والهر •

3 — الروحانيات : كانوا يعتقدون وجود ارواح كالجن في بعض
العناصر الطبيعية كالعيون والاحجار والاشجار فيعبدونها ويتوسلون بها
الى نيل ما عجزت عنه قواهم البشرية •

قال البكري في خاتمة كتابه المغرب : « وبنو ورسيفان من البربر
اذا ارادوا الحرب تقربوا بذبح بقرة سوداء للشماريخ • وهي عندهم
الشياطين — ويقولون : هذا ذبح للشماريخ • ويفتحون اوعيتهم في
تلك الليلة من الطعام والعلف • فلا يكون لها وكاء ولا سداد • ويقولون :
هذا طعام وعلف للشماريخ ، فاذا غدوا للقتال توقفوا حتى يروا زوابع
الريح • فيقولون قد جاءت الشماريخ اولياؤكم لنصرتكم • فيحملون
عند ذلك • فينتصرون بزعمهم ويقولون : ان ذلك لا يخطيهم ⁽¹⁾ » •

ونظير ما ذكره البكري ما هو موجود اليوم من ان الناس اذا عز
عليهم المطر في فصلي الربيع والخريف لم يستسقوا الاستسقاء الشرعي
بل يتقربون بذبح البقر او غيره من الانعام لقبر من القبور التي يعتقدون
صلاح صاحبها بالسماع من اسلافهم العوام ، ويطعمون الطعام •
ويسمون ذلك « زردة سيدي فلان ... » فاذا اغاثهم الله بالمطر نسبوا
ذلك لبركة ذلك السيد وانه رضي عنهم • وكثير من عقائد الاقدمين
الوثنيين لم تزل رائجة بين الجهال البسطاء وعوام المتعلمين • وانما صبغت
بلون آخر •

ان عبادة الكواكب والحيوانات والروحانيات امر شائع بين الامم
المتقدمة ، وقدر مشترك بين الوثنيين ، وانما يختلفون في تفاصيل
المعبودات وكيفيات العبادات •

(1) المغرب ص 188 — 189 •

ونحن نجهل — لفقدان المصادر التاريخية — نظام ديانة البربر
وشعائر عبادتهم على وجه التفصيل • ولكن من المحقق انهم كانوا —
كغيرهم — يتقربون الى آلهتهم بالقاء انفسهم في النار •

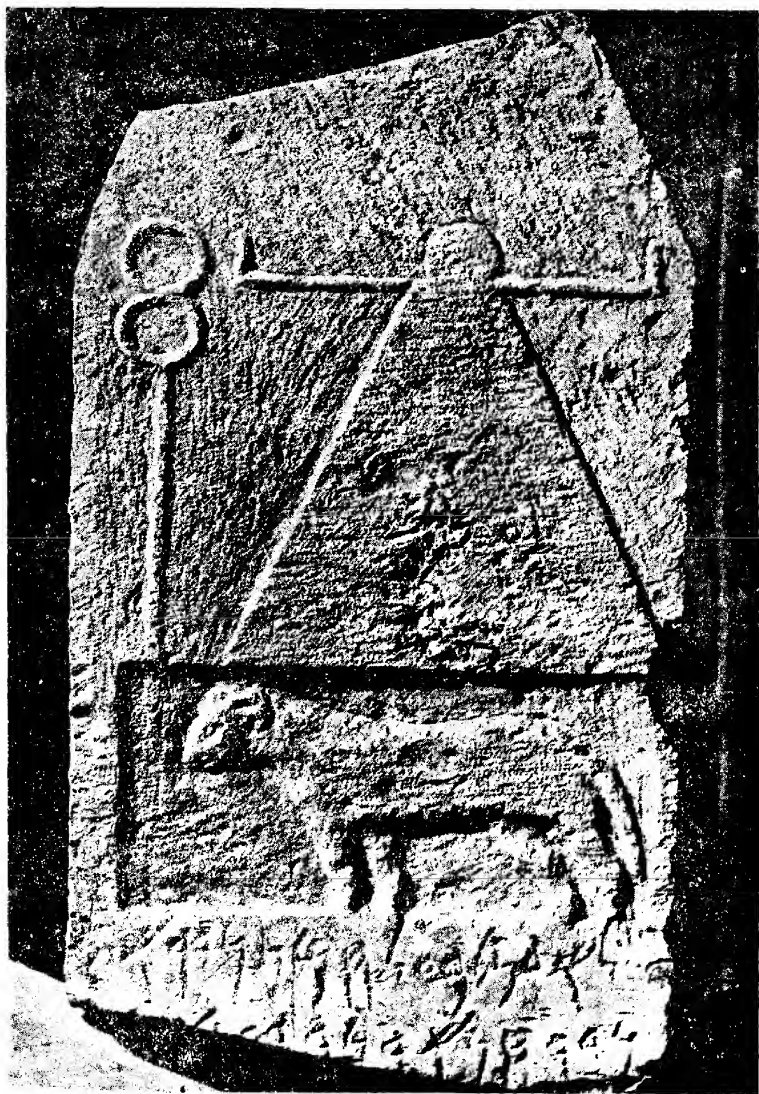
والوطن البربري — كما قدمنا — معمور بأمم مختلفة ولغته مزيجة
من لهجات • فدياته كذلك مركبة من عدة ديانات • ومنها ما يشبه
ديانة قدماء المصريين • ومنها ما أخذوه عن الفينيقيين ومنها ما نقلوه
عن الرومان وكلها ديانات وثنية • وكانت بينهم طائفة اسرائيلية غير
وثنية • ولكن نظام معابدها — كما قدمنا — مخالف لنظام يهود
المشرق •

ومع انفعال البربر بديانات الامم المجاورة لهم فهم يحافظون على روح
عقائدهم الاولى ولا يرفضون منها الا قليلا • ولا يعرف التاريخ دينا
غير العقائد وابتعد بها عن الوثنية واعتمد على العقل مثل الدين الاسلامي
ومع ذلك لم يظهر البربر من كل ما كانوا عليه • ولكن ما دامت مصادر
الدين باقية ومنابعه صافية فليس الذنب ذنب العامة ، بل الوزر كل
الوزر على كاهل العلماء الجبناء والمدعين للصالح من الجهلاء •



(لامبیز)

افريقية



(قسنطينة)

الحفرة

الباب الثالث

في ذكر الفنيقيين

تمهيد

الفينيقيون قوم منسوبون الى وطنهم فينيقيا ، وهي قطعة من الشام ضيقة مستطيلة على سيف البحر ، يفصلها عن بقية الشام جبل لبنان • وهم أمة قليلة جدا ولكنها عملت في التاريخ القديم اعمالا جليلة جدا •

كانوا بطبيعة وطنهم بحرين تجارين ، فربطوا بين الامم القديمة مواصلات ونشروا بذلك حضارات • وهم أول أمة أجنبية دخلت مصر جاءوها قبل اليونان وكانت لهم حارة معروفة باسمهم في مدينة منفيس⁽¹⁾ قاعدة الأسر العشر الاولى من الفراعنة • وعقدوا مع اولئك الفراعنة اتفاقا تجاريا يسمح لهم بنقل البضائع من مصر للاتجار بها في جزر البحر الابيض المتوسط وشواطئه لبيية واسبانيا • فاصبحوا يشقون بمراكبهم هذا البحر وينقلون الى من حوله حضارات المشرق وهم أول من انقذ الامم الاوروبية من الهجبة •

كانت لهم فينيقيا مراس عظيمة اشتهرت بالبحرية والتجارة منها عراد وبيلوس وبيروت وصيدا وصور • وأسسوا باسبانيا وليبية مراكز صارت تعظم كلما نقص عمران مدن فينيقيا بمزاحمة الامم لهم هنالك ومحاربة الملوك اياهم •

وجد الفينيقيون بليية ضالتهم المشودة من البحرية والتجارة والاشتغال بوسائل العمران في سلم وأمن • فظلوا على ذلك حتى دخلوا مع اليونان في الحرب على صقلية ، ثم الرومان بصقلية وافريقية • وانهت تلك الحروب المشؤومة بتخريب عاصمتهم قرطاجنة وذهاب ملكهم وتلاشي أمتهم • فذابوا في غيرهم وغفا رسمهم ولم يبق منهم الا اسمهم

(1) سماها البري منفيس بالشين .

وجلائل اعمالهم التي كلها حسنات للبشرية عامة وللبربر خاصة ، وليس بهم من عيب سوى عفتهم عن الدماء وبعد طبيعتهم عن الحروب •

١ - اصل الفينيقيين

الفينيقيون أمة سامية من ولد كنعان بن عمليق بن لاوذ بن سام ابن نوح عليه السلام •

كانوا - كبقية الكنعانيين - بجزيرة العرب على الخليج الفارسي وانتقلوا الى الشام مع اخوانهم من كنعان واختصوا بفينيقيا وصار الشام يقال له ارض كنعان •

قال ابن خلدون : ومؤرخو بني اسرائيل يقولون ان الكنعانيين الذين كانوا بالشام هم من كنعان بن حام وان العمالقة من ولد العيص ابن اسحاق ابن ابراهيم (ص) وقال في سياق ابناء حام : ومنهم كنعان باتفاق •

فيستفاد منه ان كنعان الذي ينسبه العرب الى عمليق غير كنعان ابن حام ، وان الخلاف بين مؤرخي العرب والاسرائيليين انما هو في نسب كنعانيي الشام : هل هم من كنعان بن عمليق ام من كنعان ابن حام ؟ ويظهر من كلامه في موضع آخر انه يؤيد قول مؤرخي بني اسرائيل حيث قال في الكلام على ابناء كنعان بن حام : ان منه أمة كانت بالشام « وانتقلوا عندما غلبهم عليه يوشع الى افريقية فاقاموا بها » ومنه أمة كانت ببית المقدس « وهربوا امام داود عليه السلام حين غلبهم عليه الى افريقية والمغرب واقاموا بها والظاهر ان البربر من هؤلاء المنتقلين اولاً وآخراً • الا ان المحققين من نسبتهم على انهم من ولد مازين بن كنعان ، فلعل مازين ينتسب الى هؤلاء ^(١) » •

(١) ج ٢ ص ١٢ •

واذا ايد ابن خلدون قول مؤرخي بني اسرائيل في كنعاني الشام
فان الفينيقيين ليسوا منهم بل هم ساميون من غير نزع • غير ان ما
استظهره من انتساب البربر الى تينك القبيلتين ليس بظاهر وقد مر في
الباب الثاني (2 ، 3) ما يعني عن التعرض هنا لبطلان استظهاره •
والخلاصة ان الفينيقيين اخوان العرب في نسبهم وجيرانهم الاقدمون
في وطنهم •

2 - الفينيقيون بالجزائر

الفينيقيون أمة تجارية لا شأن لها بالحروب • وقد كانوا ايام
ازدهار مدينة صيدا متوجهين في تجارتهم الى المشرق ، واستعمروا فيه
— استعمارا تجاريا — جزيرة قبرص وجزر بحر هيجاي • وخاضوا
البحر الاسود وبلغوا القفقاس •

وفي القرن الثالث عشر (ق.م) سقطت مدينة صيدا بهجوم
الفلسطينيين⁽¹⁾ عليها لغنم ثروتها • فورثتها مدينة صور في سعة العمران
وعظمة التجارة • وزاحم اليونان الفينيقيين في المشرق فالتفتوا الى
البحر الابيض والمغرب بسفنهم التجارية وأسسوا بجزره مراكز تجارية
بصقلية ومالطة وسردينيا والجزائر الشرقية⁽²⁾ وبلغوا اسبانيا وأسسوا
بها مدينة قادس •

صار الفينيقيون يترددون بضائعهم بين الشام والاندلس • يقطعون
مضيق جبل طارق مقترين من سواحل ليبيا حتى اذا بلغوا صقلية
ابعدوا عن الساحل الافريقي •

(1) غير الفلسطينيين • والظاهر انهم من فلتستين الذين ذكرهم ابن
خلدون في ابناء حام •

(2) ثلاث جزر شرق الاندلس وهن ميورقة ، مينورقة ، يابسة •

وكانت تجارتهم مع الليبيين مقايضة : يأخذون منهم الانعام والاصواف والجلود وريش النعام والعاج ويدفعون لهم عوض ذلك اقمشة مصبوغة بالحمرة واسلحة وخمرا واواني من الزجاج والطين .

وللاتجار مع الليبيين أسسوا بسواحلهم مراكز يستريحون بها من عناء السفر ويتزودون منها ويصلحون سفنهم . وقد راعوا في موقع مراكزهم أمرين : الامتناع ممن يريدتهم بسوء ، والتمكن من نقل بضائعهم بسهولة . فزولوا لذلك الجزر القريبة من الساحل الليبي ، والربى الساحلية ، وما قرب من مصب الاودية في البحر .

ومن هذه المراكز حضرموت (سوسة) ، عويقة (بو شاطر) . وهما بإيالة تونس ، ومنها هبون (بونة) ، ابلجي (جيجل) ، صلداي (بجاية) ، وهذه بالوطن الجزائري . ومن المراكز المنسوبة لهم أيضا عوزية . ويقولون انها سور الغزلان وقد غلط اغسال القائلين بذلك مستندا الى انها في دواخل الوطن الجزائري ، ولم يعرف في التاريخ بلوغ الفينيقيين الى تلك النواحي .

وعليه فان صح ان عوزية هي سور الغزلان فهي من مؤسسات البربر . وان صحت نسبتها للفينيقيين لم تكن هي سور الغزلان بل مدينة أخرى على السواحل لا ندري مكانها .

ويقال أن مؤسسات الفينيقيين بالساحل الليبي بلغت ثلاثمائة مركز . وهو احصاء قريب من المعقول لان السفن كثيرا ما تحتاج الى الاصلاح وسيرها بطيء . فاهلها مضطرون الى الاستراحة والاستعداد للسفر بعد السير الكثير والمسافة القليلة . وقد يؤسسون مركزا ثم يدوا لهم ما هو اوفق منه فينتقلون اليه . وبذلك تتقارب المراكز وتكثر .

وقد تحول بعض هذه المراكز من بعد الى مدن ذات فحوص واسعة أو ضيقة . وكثير منها سقط وعفا رسمه .

قال اغسال : « وليس بين دفتي التاريخ ما يرشدنا الى تعيين الوقت الذي وجدت فيه تلك المؤسسات بالضبط . والظاهر انها كانت قبل انتهاء القرن الثاني عشر (ق . م) »

3 - تأسيس قرطاجنة

كانت صور (العاصمة الثانية للفينيقيين) بلغت مبلغا عظيما من العمران . وكان بها على عهد داوود وسليمان عليهما السلام ملك يدعى حيرام . سألهم هذا الملك الملكين النيبين ، وحسن علاقته معهما . وبعد وفاته تأسس بها حزب من عملة الشعب واصبح يشاغب طبقة الاعيان حتى تغلب عليهم ففروا الى ليبيا وأسسوا بها مدينة قرطاجنة .

وبعد أمد قليل من تأسيسها بلغت من العظمة والقوة ان صارت تهدد صور نفسها واصبحت هي الحامية للفينيقيين بليبيا وصقلية واسبانيا . وكان اليونان قد أخذوا عن الفينيقيين التمدن فانقلبوا عليهم وقادوهم في التجارة حتى اخرجوا من بحر ايجيه ، وهددوا مراكزهم بالمغرب فلما تأسست قرطاجنة أثارت منهم وطردتهم من المغرب .

أسست قرطاجنة على الخليج التونسي قريبا من البحر بحيث تصيب سورها امواجه . ولحسن موقعها حازت السيادة التجارية ، فأماها الفينيقيون من الشام ، والبربر جيرانها الاقربون ، وغيرهم من الامم ، فاستبحر عمرانها وكثرت مبانيها وسكانها ، واختلف في تقدير عدد السكان من (130000) الى (700000) وبلغت اوج عزها في القرن الرابع الى اواخر الثالث (ق . م) ومتوسط سكانها اذ ذاك نحو (300000) .

اصبحت قرطاجنة عاصمة الفينيقيين ومقل عزهم وحصن سعادتهم

ثم كانت مقبرة عظمتهم ومدفن مجدهم بما جرت عليه حروبها مع الجمهورية الرومانية التي انتهت بتخريبها سنة (146) ق.م .

يقال : ان اسم قرطاجنة بالفينيقية « قرت حدثت » ومعنى هذا العلم : القرية الحديثة .

اما تاريخ تأسيسها وتعيين مؤسسها فقضية كثر حولها الخلاف واضطربت فيها الروايات ، ذكر البكري : « ان الذي بنى قرطاجنة ديدون الملك زمن داوود عليه السلام »⁽¹⁾ وعليه يكون مؤسسها رجلاً وتأسيسها في القرن الحادي عشر (ق.م) لان داوود كان بين سنتي (1055 — 1014) وفي ابن خلدون — نقلا عن المؤرخ الروماني هروشيوس — : ان بناءها كان على يد ديدون بن أليثا ، وانه من نسل عيصو بن اسحا . ومن المؤرخين من يقول أسسها الطبقة العليا من الفينيقيين .

واكثرهم على ان التأسيس كان سنة (814) وقيل سنة (813) وقيل سنة (880) ، على أن المؤسس امرأة تدعى « عليسة ديدون » وعليسة علمها الشخصي ، وديدون وصف لها معناه القارة .

وسياقة خبرها : انها من بيت ملك وتزوجت بكاهن مشهور ، ولها أخ . ولما توفي ابوها ورثا ملكه . فعدا اخوها على زوجها وقتله طمعا في كنوزه النفيسة وامواله الطائلة . ولكن عليسة احتفظت باموال زوجها وفرت بها الى ليبيا فاشترت من البربر مكان قرطاجنة وأسسها .

4 — ممتلكات قرطاجنة بالجزائر

عرفت ان الفينيقيين امة تجارية بحرية ، فلم يحملها على دخول

(1) المغرب ص 41 .

المغرب الطمع في انتزاعه من يد أهله والاستبداد عليهم في وطنهم •
ولذلك لم تملك منه غير السواحل اللازمة لحياة بحريتها • وأُسست
بها مدنا لترويج بضائعها بين الاهالي • واقامت حينا من الدهر جارة
للبربر تستخدمهم في مدنها بأجور يرضونها • وتستألف امراءهم
بالاموال خوفا من غاراتهم •

ولما تأسست قرطاجنة اقتطع الفينيقيون من داخل الوطن البربري
قطعة استوطنوها ودخل اهالها تحت طاعتهم • واطلق على هذا القسم
اسم « ليبيا فينيقيا » وعرف الفينيقيون الذين به باسم البونيقيين •

ومن مدن الفينيقين بالساحل الجزائري : هبون (بونة) ، روسفاد
(السكيكدة) ، شولو (القل) ، اجلجلي (جيجل) ، صلداي (بجاية)
روسوقورو (تاقصبت او دلس او تقززن) ، رسجونيا (مطيفو) ،
اقسيوم (الجزائر) ، تباسا ، يول (شرشال) ، صيعة (ارشقول على
الظاهر) •

ولم يتجاوز البونيقيون السواحل الى دواخل الجزائر الا في الجهة
الشرقية حيث كانت نوميديا الشرقية تحت حمايتهم — بأشرف معنى
الحماية — ومن مدن هذا القسم : تغاست — Thagaste (سوق اهراس)
مدوروس — Madoure — (مداوروش) ، تيفيست — Thèvesté —
« تبسة » •

ولهذا القسم الداخل تحت اشراف قرطاجنة حدود تفصله عن ليبيا
فينيقيا وتلك الحدود خنادق تعرف بالخنادق الفينيقية •

وبلغت حماية قرطاجنة في الشمال الشرقي لنوميديا الى
رأس بوقرعون « ناحية القل » وجهة ميله • ومن المحقق ان قرطاجنة
لم تدخل تبسة « بالجنوب الشرقي النوميدي » الا سنة 250 (ق م)
ولم تبق بها الا خمسين سنة •

وبما ان الحماية القرطاجية لم تكن مصحوبة باحتلال عسكري يفرض على المحتمين طاعة الحامي ، ويعمل للاحاقهم بمستعمراته — استطاع النوميديون طرد البونيقيين بعد من وطنهم والتمتع بالاستقلال والتنفس في هواء غير مشوب بجراثيم السيادة الاجنبية •

ولا يعلم تاريخ زوال السيادة القرطاجية عن نوميديا بالضبط • ولكن من المحقق ان مدوروس كانت اواخر القرن الثالث (ق.م) تحت تصرف صيفاقس البربري • ومنذ سنة (149) ق.م لم تبق لقرطاجنة يد على نوميديا وجميع السواحل والشواطئ الجزائرية • ودخلت المدن الفينيقية بتلك الجهات في حوزة ملوك البربر وبقي لها اسمها الفينيقي الى ان خربت •

وهذا خلاف ما نراه في عصر المدينة العربية من تغيير دولها لاسم بعض المدن التي استولت عليها ، وابداله باسم عظيم من عظمائها قد يكون لم يدخل تلك المدينة المنسوبة اليه او لم يسمع بها فضلا عن ان يعمل بها عملا يرر نسبتها اليه • اما تسمية الانهج والشوارع بهذا الوجه من التسمية فمن المؤلف الذي ينو الذهن عند مشاهدته عن التفكير في وجه المناسبة بين الاسم والمسمى • وهكذا يفعل الذين يحبون ان يحددوا بما لم يفعلوا •

5 — اللغة الفينيقية وخطها

سترى في الباب التالي تأثير الفينيقيين على البربر في اللغة فمن المناسب ان تقدم ههنا البحث عنها :

الفينيقيون أمة سامية ، فلفتهم كذلك سامية ، اخت العربية والعبرانية وبما انهم تجاريون لم تكن لفتهم لغة ادب وانما كانت لغة علم •

ولما انتقل الفينيقيون الى ليبيا دخلت لغتهم مفردات من اللغة الليبية فازدادت ثروة ، ولكنها تغيرت — طبعا — عن أصلها فقلقت بالبونيقية .
وقد اضمحل الفينيقيون وماتت من بعدهم لغتهم . وما بقي منها باللسان البربري دخلت عليه العربية من بعد فتعذر تمييزه .

ولكون هذه الامة تجارية يلزمها ان تتعلم الكتابة والحساب فتعلمت عن السريانيين الحساب وأخذت عن المصريين حروف الهجاء واستعملتها في لغتها بعد ما هذبتها وقربتها للفهم .

كانت الحروف المصرية فيها صعوبة من حيث ان منها ما يدل على كلمة ، ومنها ما يدل على جزء كلمة ، ومنها ما يدل على حرف واحد . وفيها حروف مختلفة المعنى متحدة المخرج . فزال الفينيقيون منها تلك الصعوبة وصيروها بسيطة سهلة التناول .

اختار الفينيقيون من الحروف المصرية اثنين وعشرين حرفا لكل حرف مخرج . ثم قلدهم فيها الاغريق فمن بعدهم من الامم . وقسموها الى حروف هجائية واشكال للضبط .

ولما دخل هذا الخط لبيبة مع اصحابه ووجد امامه الخط الليبي تأثر به وتغير عن اصله فسمي الخط البونيقى .

وقد ألف بهذا الخط وتلك اللغة تأليف في الفلاحة والملاحة والاسفار منها رحلة حنون الذي ارتحل حول افريقية وبلغ شواطئ غينيا ومنها رحلة عملقون الذي بلغ سواحل انكلترا ، ومنها كتاب ماغون في الفلاحة الذي اخذه اليونان والرومان الى لغتهم واعتمدوه خصوصا في تنمية النباتات بافريقية .

وللبونيقين غير هذه الكتب بلغتهم وخطهم ضاعت بضياع ملكهم . ولم يبق منها الا تف م ترجمة ومبشرة في كتب اللطينيين واكثرها ضاع

في حريق قرطاجنة ، فضاع بذلك على الباحث الخط البونيقي واللغة البونيقية معا . وتلك عاقبة ذهاب مميزات هذه الامة ومشخصات وجودها .

6 - الديانة الفينيقية

كان الفينيقيون وثنيين يعبدون الشمس والقمر • الشمس يتخذون لها تمثالا يدعى « بعلا » والقمر يتخذون له تمثالا يسمونه « استارتي » أو « بعليت » (مؤنث بعل) • وكانوا يقيمون لهذين الالهين تماثيل بكل مدينة من مدنها •

والشمس عندهم اله السماء والارض ، يرونه غضوبا شديدا الانتقام فيتوسلون لرضاه بتقريب القرابين له • وقد تكون تلك القرابين أناسي واكثر ما تكون من ابناء الملوك وسراة الامة •

يحضرون القرбан البشري امام التمثال ومعهم آلات الطرب يغنون عليها ، ثم يلقونه في النار المقدسة التي تجعل لذلك التمثال ، وقد تكون ام هذا القرбан حاضرة تنظر اليه من غير جزع يلحقها •

والاله يمثلونه تارة بشور ، واخرى برجل ، واخرى برجل رأسه رأس ثور •

والقمر لديهم اله الحب والجمال ، يتصرف في كل ما يحدث وما يفنى ولذلك يعبدونه تارة بالفرح واخرى بالحزن • وكانوا يمثلون القمر بصورة امرأة بيدها حمالة وعلى رأسها من شعرها صورة هلال •

ولهم غير هذين الالهين آلهة اخرى ولها شبه قوي بالهة الكلدان • وقد أخذوا عن غيرهم في الديانة • ولما نزلوا لبيبة تأثروا بعتائد البربر •

وأخذوا الهمم « عمون » وسموه بعلمهون وعبدوه حسب تقاليدهم ،
 وصنعوا له تماثيل أخرى •



ش2 رسم الاله بعلمهون

وكانت لهم أعياد يحتفلون فيها بالهتهم ، ويقربون لها القرابين من
 البشر والبقر والغنم والديكة وما يتقربون به أيضا الصيام •
 وإذا كان البربر أثروا على الفينيقيين في المعتقد فإن هؤلاء أثروا
 عليهم في ذلك أيضا ، وسترى ذلك في الباب التالي ان شاء الله •

ونحن نرى للعامة اليوم عقائد لها شبه ببعض عقائد البونيقين ولكن
 يبعد ان تكون موروثه عنهم لقدم العهد جدا ووجود الدين الاسلامي •
 وانما الجهل باصول الدين يجر في كل عصر الى التمسك باوهام وخيالات

قد تشابه مع تباعد الاعصار . واذا كان مرجع الديانة الى الخيالات
كانت من قبيل الشعر ، والشعر — كما قيل — ميدان والشعراء فرسان
فقد يقع الخاطر على الخاطر كما يقع الحافر على الحافر .

7 — نظام الدولة القرطاجية

الدولة بنظامها الاداري والسياسي ، فقوتها وضعفها وقدرتها
وعجزها على حسب ذلك النظام ودرجة احكامه واتقانه .

ولم يكن للفينيقيين بفينيقيا دولة تجمع تحتها مدنهم وتتخذ من
بنيها جيشا حربيا تهاجم به الضعفة او تدافع به الاعداء . بل كانت مدنهم
هنالك مستقلة بعضها عن بعض يحكم تلك المدن رؤساء يعرفون
بالاشفاط (القضاة) .

ولما تأسست قرطاجنة قامت بها دولة عظيمة ذات دستور ، ان لم
يكن احسن دساتير ذلك العصر فهو من احسنها . ناهيك ان ارسطو
الفيلسوف اليوناني وازع علم المنطق اعجب به واثنى عليه . وقد
ادرك هذا الفيلسوف قرطاجنة في ايام عظمتها اذ كان في القرن الرابع
(ق م) .

لم تكن قرطاجنة شاذة عن الدول المعاصرة لها في تقسيم الامة الى
طبقتين : السراة والسوقة . بل كانت مثلها في ذلك واشتهر بها من طبقة
السراة أسرتان : الماغونيون والحنونيون ، ومن طبقة السوقة البرقيون .

(1) شكل الحكومة : كانت حكومة قرطاجنة جمهورية على رأسها
أسرتان تدير احدهما الجندية وسائر الشئون الحربية ، وتقوم الاخرى
بالعمل والاقتصاد وسائر وجوه العمران .

وللحكومة مجلسان : احدهما مجلس القدماء او الشيوخ به (28)

عضوا منتخبا من طرف الامة • ويشترط في عضو هذا المجلس ان يكون من الاسر الاصيلة في البونيقية • فهو متركب من الاعيان ويؤازره ارباب رؤوس الاموال واصحاب التجارة والصناعة والفلاحة. وهو مجلس ارستقراطي⁽¹⁾ يؤيد نفوذ الطبقة العليا من الامة على الصعاليك منها ومتوسطي الحال •

ثانيهما مجلس السوق : يتألف من صغار المالين تجارهم ومزارعيهم ومن العملة واصحاب الحرف ، وتقوده ضعيف • وقد يكون وجوده سوريا • فان الحكومات الارستوقراطية لا تنظر الى افراد الشعب الذين قعدت بهم قلة ذات اليد عن الظهور في مظهر النعمة والترف الا بعين الاستخفاف ، ولا تراهم الا آلة مسخرة لقضاء مصالح المترفين وتوفير سعادتهم • فوجود العملة ومن في درجتهم — عندها — ليس وجودا مستقلا وانما هو تكميل لوجود الاعيان والمثرين •

والى ذينك المجلسين مجلس القضاء يدعى « مجلس المائة والاربعة » وقضاته من الاشراف • ويعبر عنهم « الاشفاط » — وهي قرية من الاسباط — وقوتهم التنفيذية مستمدة من ذينك المجلسين •

(2) — الجيش : اتخذت قرطاجنة جيشا ولكن لم تقصد به استعباد المستضعفين وترويع الآمنين والاستحواذ على ثروة اراضي الجانين على المدينة بكونهم عزلا من الصواعق المحرقة • بل كان قصدها هو حفظ هويتها التجارية • لانها امة كان شغلها ركوب متون البحار لترويج البضائع وربط الصلات بين الامم شرقا وغربا ونقل حضارات بعضها الى بعض • وقد عارضها في سبيلها تلاميذها من اليونان والرومان • وارادوا صدها عن وجهتها بالقوة العسكرية • فاضطرت الى اتخاذ

(1) يقال دولة ارستقراطية ، وهي مركبة من كلمتين : قراطية معناها حكومة ، وارست معناها النبلاء ، فمعنى ارستقراطية حكومة النبلاء •

جيش لحماية تجارتها • فهو جيش لحفظ الحرية لا لسلبها وجبر الضعيف على الرضا بالعبودية •

لم يتجاوز جيش قرطاجنة خمسين الفا اكثرها من البربر والاسبان ويمدها زيادة على ذلك ايام الحرب بجنود كثيرة امرء البربر الذين تربطهم بها معاهدات •

وينقسم هذا الجيش الى ثلاثة أقسام :

- 1 — الجنود القرطاجنية وهم قليلون وغير حربيين •
- 2 — الجنود المرتزقة : وهم من امم مختلفة • من اسبانيا مشاة ، ومن الجزائر الشرقية رماة ، ومن الغاليا والكورص وايطالية وصقلية •
- 3 — الجنود الليبية والنوميديية • والاولون مشاة مجبورون على التجنيد • لان ليبية ⁽¹⁾ وطنهم كانت في قبضة قرطاجنة وتحت نفوذها الفعلي • والاخرون فرسان متطوعون • لان وطنهم نوميديا لم يكن تحت سيطرة قرطاجنة •

وكلا الجندين الليبي والنوميدي صبار على الشدائد شجاع مقدماه سلاح خفيف : نبل وخنجر وترس من جلد • وليس له سيف ولا مفقر ولا درع •

وهذا القسم الثالث هو الذي كون تاريخ قرطاجنة الحربي • خصوصا الجند النوميدي • فلولا ما ذاقت قرطاجنة لذة الفوز والانتصار ، ولا هدد حنبعل رومة ورام فتحها •

لذلك كان للنوميديين ميزة لم تكن لبقية الجيش القرطاجني • وكانوا لا يسمحون لها بالتقصير في حقوقهم • وقد ثاروا عليها مرارا لعجزها عن أداء واجباتهم •

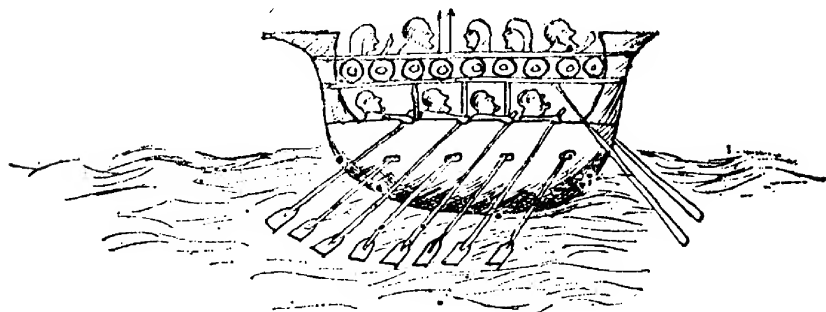
(1) كانت ليبية تطلق على شمال افريقية • وبعد مجيء الفينيقيين اختصت بفا يلي نوميديا شرقا • وليس المراد ليبية المعروفة اليوم جنوب طرابلس •

كان للجيش القرطاجي رؤساء وقواد من أسرة البرقين • واشتهر منهم عدة قواد باسم هملقار • ومنهم حنبعل وصدر بعل وغيرهم ممن خلدت ذكرهم حروب صقلية والحروب البونيقية •

3 — الاسطول • كان لقرطاجنة أسطول لا تضاهيه أساطيل الدول الأخرى • والبحرية هي العمل الخاص للفينيقيين • وقد دامت لهم السيادة البحرية من غير منازع امدا طويلا •

كانت سفنهم فلكا كبيرة • وفي كل جانب منها مقاذيف • واذا ساعدتهم الرياح استعانوا بالشرع •

وسفنهم نوعان : تجارية وحرية • اما التجارية فحيزومها مستدير •



ش - 3 رسم سفينة فينيقية تجارية

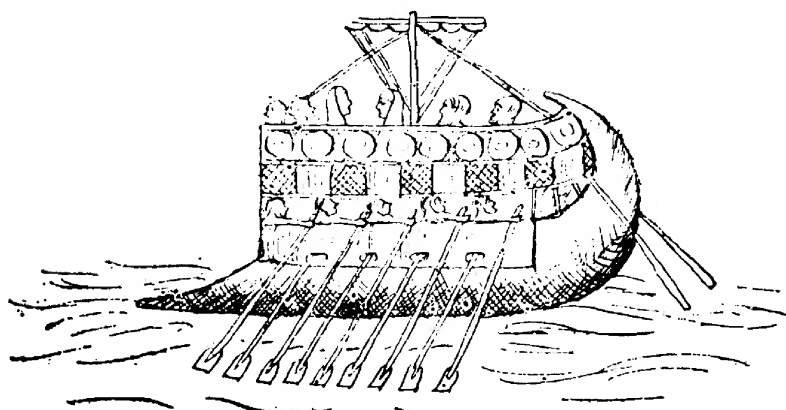
وقد خاضوا بها قبل قرطاجنة وبعدها عباب البحر الأبيض على طولها ، والبحر الأسود حتى بلغوا القفقاس ، والمحيط الاطلانتىكي حتى بلغوا انكلترا من جهة وأغادير من أخرى •

كانوا يعدون السير وليس لهم بوصلة لعدم اختراعها اذ ذاك • فكانوا يهتدون في سيرهم ليلا بنجمة القطب الشمالي • واكثر مسيرهم بالنهار : ولا يعدون قن الشاطئ • فاذا أمسى المساء استكنوا بخليج • وقد ينزلون الى البر ويسحبون مراكبهم في الرمل • فاذا أصبح الصباح استأنفوا سيرهم محاذين للشاطئ •

وكانوا يحملون في سفراتهم الى كل أمة البضائع التي تروج بها •
يستبدلونها بما لتلك الامة من البضائع • ويتنقلون على هذه الصفة
من وطن الى آخر • حتى انهم احيانا لا يرجعون الى وطنهم الا بعد
سنين •

وقد كان البحر الابيض المتوسط تحت نفوذ قرطاجنة • أسست
على شواطئه المراسي من خليج طرابلس شرقا الى المحيط الاطلантиقي
غربا • وكان لها على هذا المحيط مراس أيضا الى قرب أغادير •

واما المراكب الحربية فهي معقربة الصدر • وكان لقرطاجنة قبل
استفحال امرها سفن ضعيفة من نوع السفينة ذات الخمسين مقذافا •
ثم أخذت تترقى في سلم العظمة حتى بلغ اسطولها مائة سفينة • فيها
من العملة أربعة وعشرون الفا غير من يحمل السلاح •
وقد كانت السفن الحربية على أنواع : سفن ذات ثلاثة صفوف
من المقاذيف ، وذات اربعة صفوف ، وذات خمسة •
وهذه الانواع الثلاثة كثيرة • وهناك انواع ثلاثة أخرى قليلة
الاستعمال • وهي ذوات (6 ، 7 ، 9)



ش - 4 رسم سفينة فينيقية حربية

وجعلت قرطاجنة لصناعة السفن دورا يعمل فيها عملة من المحتلين
والمحتمين •

8 - العمل القرطاجني في العمران والحضارة

علمت ان الفينيقيين أمة كثيرة الاسفار في البرور والبحار لكسب
الثروة بالاتجار • فلم تكن لها حضارة خاصة بها • ولكن اليها يرجع
الفضل في نقل حضارات الامم بعضها الى بعض بما تروجه بينها من
البضائع المختلفة •

آثارهم تدل على تقليدهم للمصريين في بناء البيوت وحفر القبور •
فان قبور الفينيقيين وجدت بالجبال مثل قبور قدماء المصريين • وبيوتهم
مبنية بالحجارة ، ولها سوار تتصل بالسقف من غير قوس ، وخطوط
أساساتها مستقيمة •

واكثر اعمال الفينيقيين في التجارة والفلاحة وبعض الصناعات •
وكانوا اذا نزلوا أرضا عرفوا فوائدها الخاصة فاعتنوا باستثمارها •
وارض ليبية ارض فلاحه فاعتنوا فيها بالفلاحة علاوة على التجارة
والبحرية •

وقد جعلت قرطاجنة في نظام دولتها اسرتين : احدهما للحرب
والاخرى للعمل • وكانت أسرة العمل هي أسرة ماغون •

ماغون مؤسس هذه الامرة كان بين سنتي 550—500 (ق.م)
والف كتابا حافلا في الفلاحة • تكلم فيه على الفلاحة وتربية الحيوان
من خيل وبغال وبقر وحمام ودجاج ونحل وغير ذلك •

ولأهمية هذا الكتاب لم تستغن عنه رومة رغم عداوتها للبونيقيين
وتخريبها لقرطاجنة • فاهتم شيوخ رومة به واستدعوا له مترجمين
ترجموه الى اللطينية •

ومن حكمهم الفلاحية : « يجب ان تكون الارض اضعف من
الفلاح . لانه اذا اراد ان يقاومها فتغلبت عليه حطته » .

وقد اتخذوا للدراس آلة وعمموا نشر الحبوب المعروفة بالوطن
البربري وجلبوا له بذورا أخرى مثل الكتان لم تكن معروفة به من قبل .
وكان بليسية (بالمعنى العام) أشجار ذات ثمار الا انها طييعية .
فاعتنى البونيقيون بفراستها وجلبوا ضروبا أخرى من الاشجار منها
النخيل والتين والزيتون والرمان والجوز واللوز والكرم .

وزرعوا البقول والخضر حوالي المدن . وعصروا الزيتون والخمور
وهم أول من روج الخمر بين البربر . واول من افادهم الفراسة .

ازدهى الوطن على عهدهم بحقول الحبوب والخضر وجنات النخيل
والاعناب وبساتين التين والزيتون وضروب الفواكه .

وقد شارك في هذه الاعمال العمرانية كل الطبقات البونيقية :
ارباب الاموال الواسعة يقتطعون الاراضي الشاسعة ويبنون بها القصور
وليقتضوا بها بعض فصول العام . وصغار الفلاحين يشتغلون بما حوالي
المدن من الاراضي الصالحة فيعمرونها على نسبة مقدرتهم المالية .

وسوى عناية القرطاجنيين بالفلاحة وتربية المواشي كانوا يعتنون
باستخراج المعادن من حديد ونحاس ورصاص وغيرها . ويصنعون منها
الآلات وضروب الزينة من حلي واقراط .

وكانوا ينحتون الحجارة النفيسة . واخذوا عن المصريين صناعة
الزجاج فاتقنوها وصنعوا منها الاواني الرفيعة ولونوها بالوان قوس قزح .
وكانت لهم يد في الحياكة والصباغة ودباغة الجلود . وكان لهم من
الصناعات الدقيقة النقش على الصخور والخشب ، ونحت الدمي
وغيرها من العاج والعظام . وقطروا العطور . وركبوا الادوية .

9 — الحروب القرطاجية

جاورت قرطاجنة البربر واحسنت جوارهم بما كانت تنقل الى وطنهم من حضارات الامم • وما كانت تنشره بينهم من جهود ابناءها التجارية والفلاحية والصناعية وغيرها • وكان في استطاعتها ان تكون من شمال افريقية دولة عظيمة ثابتة الاركان بسلاحي الترغيب والترهيب • كما فعل من بعدها الرومان • وكانت هي أقوى منهم واقرب • ولكن الجنس السامي — وخصوصا الفينيقيين أسمى من ان يكون سفاكا للدماء غدارا بالوعود •

حاولت قرطاجنة ان تتوسع في وطن البربر • ولكن من غير اراقة دماء غزيرة • فتوسعت حيث لم تجد معارضة حربية قوية • واكتفت بربط الصلات حيث وجدت صلابة • وقد رأت من صلابة نوميديا انها لا تخضع الا بعد احوال وحروب طوال • فلم تتعنت في فتحها تعنت الرومان من بعد • واكتفت باستجلاب مودة اهلها كي تستعين بهم عند الاقتضاء • فنظمت من فرسانهم جيشا كان له الاثر المحمود في حروبها •

وليس لقرطاجنة حروب مذكورة مع البربر الا ما كان من ثورة الجند والانتصار لاعدائها الرومان •

والمذكور من حروب قرطاجنة هي حروبها مع اليونان بصقلية ، وحروبها من بعد مع الرومان •

ولم يكن البربر بعداء عن هذه الحروب خصوصا النوميديين • بل كانوا يخوضون لججها لفائدة قرطاجنة • وقد ينقسمون الى مناصر لها ونصير لاعدائها •

ونحن نقص خبر هذه الحروب بايجاز لانها لم يقع منها بالوطن

الجزائري الا القليل . فعلاقتها بتاريخ الجزائر من هذه الجهة من حيث وجود اليد النوميديّة فيها ومن حيث ان عاقبتها مجيء الرومان مكان قرطاجنة واستيلاؤهم على الجزائر .

نقتصر في هذه الفصول على أهم حوادث تلك الحروب . وفي الباب التالي — ان شاء الله — نبسط ما كان منها بالوطن الجزائري .

تعرف حروب قرطاجنة مع اليونان بحروب صقلية ، وحروبها مع الرومان بالحروب البونيقية .

أ - حروب صقلية (536 — 306) ق.م

وقعت هذه الحروب بين اليونان وقرطاجنة . ودامت سنين كثيرة تتخللها هدنات قصيرة الاجل .

1 — في سنة (536) وضعت قرطاجنة قدمها بصقلية بقصد فتحها . وارسلت اليها جنودا كثيرة بقيادة عملقروض بن ماغون . فانهزم اولئك الجنود انهزاما فادحا . وذلك حوالي سنة (480) . ولكن قرطاجنة لم تفشل من هذا الانهزام ، ووالت حروبها . وفي آخر القرن الخامس فتحت نحو ثلث صقلية بقيادتي حنبل وحملقون من أسرة حنون . وختمت المعارك الاولى بعقد هدنة بين قرطاجنة ودونيس امير سرقوسة وذلك سنة (404) .

2 — في سنة (399) هجم دونيس على بعض مستعمرات قرطاجنة بصقلية . فارسلت اليه جيشا بحريا بقيادة حملقون . فبلغ الجيش سرقوسة . وحاصرها بحرا . واغرق سفنها ، وذلك عام (396) . وفي العام التالي عاد حملقون الى صقلية بجنود كثيرة . واستولى على اكثر جزرها . وانهى الى سرقوسة وحاصرها واصبح النصر منه على قاب قوسين ، ولكن لم يساعده القدر ، فاصاب المرض جنوده ، ووجد

دونيس الفرصة متأية • فانقض على جنود حملقون • وهزمهم برا وبحرا • وانهى الدور الثاني لهذه الحروب بعد اتفاق بين المتحاربين يقضي بخروج قرطاجنة من جميع جزر صقلية • اضطرت قرطاجنة الى هذا الاتفاق لما كان بوطنها من ثورات البربر التي صيرت قرطاجنة في أضيق حال •

3 — انجلت عن قرطاجنة أزمة الثورة • فعادت الى حرب صقلية • ووجهت اليها جيشا بقيادة ماغون • فطالت الحرب بين الفريقين • وتوفي ماغون • فخلفه ابنه ماغون • ثم توفي دونيس سنة (363) وخلفه ابنه وسميه ايضا • واخيرا ظن ماغون الثاني انه مغلوب ففر الى قرطاجنة وقتل نفسه اتقاء من تعذيب دولته له • ولا اعجب من حال من يفر من الموت الشريف وهو مظنون ويقتل نفسه بعد ما جر لدولته عارا لانهازم • وبعد ماغون في سنة (340) وجهت قرطاجنة جنودا اخرى لصقلية بقيادة حنبعل وهملكار • فانهزموا ايضا على كثرتهم • وتم الدور الثالث بعد اتفاق بين المتحاربين لفائدة صقلية • وذلك سنة (338) •

4 — كان رجل يدعى أغاثوقليس من بيت وضع • ولكنه قوي الارادة طموح الى المعالي • فانتهاز فرصة وجود هملكار بصقلية • واستعان به على ان يكون ملكا بسرquose • فاعانه بعد ما حلف له ايمانا على مسالته لقرطاجنة • وانتصب ملكا بسرquose سنة (319) •

وبعد وفاة هملكار رأى أغاثوقليس انه في حل من ايمانه • فهجم على ما تحت يد قرطاجنة بصقلية • فوجهت اليه جيشا جرارا يقوده هملكار بن جسقون • وانتصرت عليه انتصارا غزيرا • وتقدم الجيش الى سرquose فحاصرها • ورأى أغاثوقليس موقعه حرجا • فتخلص بنقل الحرب الى افريقية • بعد ما حرض السرقوسيين على الثبات ودبر مكيدة ابعد بها سفن قرطاجنة عن مرسى سرquose وركب اسطوله

وتوجه الى افريقية • شعر به الاسطول القرطاجني فتبعه • ولكن لم يدركه • قضى أغاثوقليس في سيره ستة ايام • ونزل بافريقية • واحرق أسطوله لئلا يطمع جيشه في العودة الى صقلية • وذلك سنة (310) وهكذا سيفعل طارق بن زياد بعد عشرة قرون • بقي هملكار محاصرا لسرقوسة وفي سنة (309) الزمه السرقوسيون برفع الحصار عن مدينتهم • وفي العام التالي حاول الاستيلاء على سرقوسة ، فلم ينجح • وأسره الاغريقيون ، ومات معذبا • أما أغاثوقليس فانه نجح في افريقية وخضعت له مدن كثيرة ، وبلغ ابواب قرطاجنة وشدت عليها الحصار • ولما رأى أغاثوقليس انه تمكنت قدمه بافريقية ارتحل عنها سنة (306) الى صقلية • وترك ولده بافريقية • فتنفس القرطاجنيون وصاروا يحاصرون الاغريق في المدن التي احتلوها • فعاد أغاثوقليس • ولكن النصر لا يكون دائما حليف الفاتح • فذاق مرارة سوء الحظ في هذا العود • وعاد الى صقلية يتعثر في اذيال الخيبة • ومكن سلطته بسرقوسة • وتوفى سنة (289) •

وبارتحال أغاثوقليس عن افريقية للمرة الاولى انتهت حروب صقلية •

ب — الحروب البونيقية

قرطاجنة دولة بحرية لها أسطول عظيم • وأبنائها قليلو الغناء في الحرب • فكانت تعتمد في حروبها على الاجانب •

ورومة دولة برية لا اسطول لها • ولكن لها من أبنائها جيش قوي الايمان بحبة الوطن • ولذلك كان النجاح في الحروب البونيقية للثانية على الاولى •

ابتدأ النزاع بين هاتين الدولتين على البحر الابيض المتوسط •

وفي سنة (348) عقدتا اتفاقا يمنع رومة من التجارة مع افريقية ،
ويحدد لها في البحر حدودا لا تتجاوزها .

ولما توفي أغاثوقليس بقيت صقلية في فوضى دامت عشر سنين .
وطمعت قرطاجنة خلالها باعادتها اليها . فاستدعى السرقوسيون الملك
بيروس ليحفظهم منها . فلبى طلبهم . ووقعت بينه وبين قرطاجنة
معارك لم ينجح فيها . فعاد الى ايطاليا سنة (276) .

وكانت رومة تخشى بيروس . فعقدت مع قرطاجنة محالفة
دفاعية تستلزم اعانة احدى الدولتين للآخرى في أي حرب دخلت
فيها . وغرضها الاتحاد ضد بيروس . وفي سنة (272) توفي هذا
الملك . فتفتست رومة . ونقصت لديها أهمية المحالفة .

رجعت صقلية الى الفوضى بعد خروج بيروس منها . وكان
بها جنود مرتزقة بعضهم من عهد أغاثوقليس ، وبعضهم خلفهم بها
بيروس . فانقسموا أحزابا . وعين السرقوسيون منهم ييرو رئيسا
عليهم . فحارب قرطاجنة سبع سنوات . وكان أعظم الاحزاب مقيما
بمسينا . ولقب هذا الحزب نفسه « جنود المريخ » وهو إله الحرب .
وبلغ من عظمته أن خشيته اليونان وصقلية والرومان والقرطاجنيون .

وفي سنة (268) ساءت حالة المريخيين . ورأوا لزوم خضوعهم
لرومة أو لقرطاجنة . وافترقوا لذلك فرقتين . وقدمت الطائفة المتشعبة
لرومة مطلبها لمجلس الشيوخ . فقبلوه واعتمدوه سببا للدخول في
محاربة قرطاجنة التي لا ترضى بتسليم صقلية . فوقعت الحرب بين
الدولتين . ودامت سنين كثيرة . وهي المعروفة بالحروب البونيقية .

ج — الحرب البونيقية الاولى (241 — 264)

للرومان رغبة شديدة في امتلاك صقلية لقربها منهم • وللقرطاجنيين حق البقاء بها لنفس تلك العلة • ويزيدون بأنهم السابقون الى استعمارها ، وبأنهم مهروها دماء غزيرة ، وبأنهم أمة بحرية • واستظهرت رومة بطلب بعض المريخين لحمايتها • والقول الفصل في قضية الاستعمار للقوة • فدخلت الدولتان محكمة الحرب لفض هذا المشكل • ورأت رومة عجزها البحري • فسدت هذا الخل قبل الشروع في الحرب • وشرعت في صناعة سفن على شكل سفن قرطاجنة • وتم لها في مدة شهرين صنع (130) سفينة •

ابتدأت الحرب على مسينا فدخلها الرومان • وكان الامير ييرو أولا مع قرطاجنة ثم انضم للرومان سنة (263) • ثم دحرت رومة قرطاجنة في حرب جرجنتي حتى فر القائد القرطاجني وأسر بعض جيشه وبيعوا بيع العبيد • وذلك سنة (262) •

وفي سنة (256) وقعت معركة بحرية بين الاسطولين انجلت بانهزام الاسطول القرطاجني • ودخل الرومان أثر ذلك افريقية وحاصروا قرطاجنة • فاضطر القرطاجنيون الى طلب الصلح • فاشتراط الرومان عليهم شروطا رأوا الموت دونها • فشمروا عن ساعد الجدد وأخرجوا الرومان من افريقية •

وفي سنة (242 — أو — 241) خضع الجيش القرطاجني للجيش الروماني • وكان كل من المتحاربين قد سئم الحرب • ولكن المالين القرطاجنيين كانوا أسبق الى طلب الصلح حرصا منهم على الثروة التي يرون في استمرار الحرب ضررا لها •

انعقد الصلح بين المتحاربين على شروط لفائدة رومة وهي :

1 — رد الاسرى من غير فداء .

2 — خروج قرطاجنة من صقلية .

3 — التزامها مسالمة ييرو .

4 — دفعها غرامة حربية عظمى . قدرها بعض المؤرخين بعشرين مليوناً فرنكاً . وهي بعضها معجل وبعضها مؤجل بآجال تنتهي بعشرين سنة .

والقائد القرطاجني في هذه الحرب هو أملقار برقة . وهو قائد عظيم أدى لدولته خدمات جليلة . وكان رئيس حزب وطني غرضه أن تكون قرطاجنة دولة ديموقراطية⁽¹⁾ ذات جيش وطني يحميها من رومة . وكان المليونون الذين همهم في ملء الخزائن لا في نشر الكنائن يرون في هذا القائد الحربي ضرراً على ماليتهم فأبعدوه الى اسبانيا برسم فتحها في الظاهر . ففتحها وأسس بها دولة هو رئيسها . وسمى عاصمتها قرطجنة الحديثة . وتوفي سنة (228 — أو — 220) .

د — الحرب البونيقية الثانية (218 — 202)

لما توفي أملقار باسبانيا ترك جيشاً منظماً منقاداً له كل الانقياد . فورثه ابنه حنبعل في الحكم والجيش . وكان ابن سبع وعشرين سنة . حنبعل هذا رجل عظيم اعترف له اعداؤه الرومان بالدهاء الخارق للعادة . وتعجب نابليون الاول من دهائه الحربي . ومجمل القول

(1) ديموقراطية مركبة من كلمتين: قراطية معناها حكومة وديمو معناها الناس . فمعنى هذا المركب حكومة الشعب .

فيه أنه عالم متبصر في الامور ، ذو عزيمة ثابتة ووطنية نارية ، محبوب من جيشه وكلاهما واثق بالآخر .

كان يحمل حقدا حارا لرومة ، وينيوي تجديد عز قرطاجنة . فتوسل لاثارة الحرب بينه وبين رومة بأن هجم على مدينة باسبانيا تحت حمايتها ، كما أنها هجمت قبل ذلك أثناء الصلح على جزيرتي سردانيا والكورص ، وانتزعتها من قرطاجنة .

وبهجوم حنبعل انقضت أيام الصلح التي دامت اثنتين وعشرين سنة استعادت فيها كلتا الدولتين قوتها .

أرسلت رومة الى قرطاجنة وفدا يطلب منها تكفير تعدي حنبعل واختيار الصلح أو الحرب . فردت اليها قرطاجنة أمر الاختيار .

اختارت رومة الحرب . فكان ذلك بردا وسلاما على قلب حنبعل . فأراد أن يحاربها في عقر دارها . فاختر من جنوده خمسين ألفا بين مشاة وفرسان . وقيل مائة ألف . وتوجه الى ايطاليا وكان يريد أن يموت هو أو تموت رومة .

وأكثر فرسانه نوميديون . وهم معروفون بالفروسية المبهمة . حتى أن فرسان الرومان لم يستطيعوا مقابلتهم . فترجلوا عن خيولهم .

وقعت بين الفريقين معارك في ميادين كان النصر فيها لحنبعل . وهلك من الرومان آلاف مؤلفة . وطالت اقامة حنبعل بايطاليا فقل جنده وخرج عنه كثير من الامم التي أخضعها أولا لطاعته . وإذ ذاك استنجد قرطاجنة فلم تنجده جريا على عادة أعيانها من حب السلم لترويج التجارة . هنالك أرسل الى أخيه صدر بعل الذي تركه باسبانيا . فاضطر صدر بعل في طريقه الى خوض معركة قضت على أجله سنة (207) .

بعد ذلك تحصن حنبعل بجبال كلابر من ايطاليا • وعجز الرومان عن مقاومته بها • فتقلوا الحرب الى افريقية بتدبير سيون •

لما رأى سيون⁽¹⁾ ان ينقل الحرب الى افريقية — كما فعل من قبله أغاثوقلس — وجد نفسه في حاجة الى استمالة النوميديين • فذهب الى افريقية • وتمكن من عقد محالفة مع صيفاقس ملك مصيصيا ضد قرطاجنة • وبذل صدر بعل ابن جسقون جهوده لابقاء صيفاقس على ولائه لقرطاجنة فلم يفلح أولا • ثم عاد سيون الى الاندلس • وبها مصينيسا مع صدر بعل على الرومان فاستماله أيضا • وكان عدو صيفاقس • فوجد صدر بعل بذلك سيلا الى اغفار صدر صيفاقس على الرومان • فانتزعه منهم وأعادته في صف قرطاجنة •

جمع سيون لفتح افريقية جيشا يشتمل على ثلاثين ألفا • وكان مصينيسا قد وقعت له حروب مع صيفاقس انهزم فيها وصار متشردا بالصحراء • فلما حل سيون بافريقية جاءه نجدة له • وجاء صيفاقس منتصرا لصدر بعل • ووقعت بين الفريقين معركة أولى انهزم فيها سيون مكيدة • وأظهر رغبته في الصلح • وبينما هم في المفاوضة إذ هجم سيون على صدر بعل ومصينيسا على صيفاقس ليلا وحرقوهم بالنار وعلوهم بالسيوف • فكانت على القرطاجينيين وقعة شنعاء وذلك سنة (203) وخضعت إذ ذاك قرطاجنة لسيون طالبة منه الصلح • كل ذلك وحنبعل بايطاليا • ولما بلغه ما حل بدولته عاد الى وطنه سنة (202) •

(1) سيون هذا هو قائد الجيش الروماني المحارب لقرطاجنة بالاندلس • وأبوه يقال له أيضا سيون • وكان أيضا قائدا • وانتصر عليه حنبعل في طريقه الى ايطاليا • ويعرف سيون الابن بسيون الافريقي • ولعل هذه النسبة جاءت من قبل اقامته بافريقية في هذه الحرب •

لما بلغ حنبعل قرطاجنة تقوت به القلوب بعد الضعف • ولم يقبل الصلح • وعاد الى الحرب • فوقعت بينه وبين سبيون معركة زامة • مات فيها من الرومان عدد كبير • ولكن خيالة نوميديا كانوا مع سبيون فكان الغلب له • وعاد حنبعل الى قرطاجنة آيسا من ربح الحرب راضيا بالصلح • وكانت معركة زامة هذه خاتمة الحرب البونيقية الثانية ، عقد المتحاربان بعدها هدنة الى ثلاثة أشهر • ثم اتفقوا سنة (201) على مواد الصلح الآتية :

- 1 — سراح الاسرى الرومان من غير فداء •
 - 2 — تسليم قرطاجنة في جميع أقيالها للرومان •
 - 3 — تسليمها لهم جميع سفنها إلا عشرة •
 - 4 — يبقى لها ما تحت يدها من التراب ما عدا الجزر •
 - 5 — تدفع لهم غرامة مالية • قدرها ابن خلدون بثلاثة آلاف قنطار من الفضة⁽¹⁾ وقدرها غيره من مؤرخي الافرنج بأربعة وخمسين مليوناً فرنكاً ، وهي منجمة : قال مرسيني على عشر سنوات ، وقال ماليت على خمسين سنة •
 - 6 — تعترف بسلطنة مصينيسا على مصيليا ، وقاعدته قرطنة ، وتتعهد بأن لا تحاربه •
 - 7 — لا تجند جنداً إلا برخصة من رومة •
 - 8 — لتنفيذ هذه المواد تأخذ رومة مائة من أبناء قرطاجنة رهناً •
- تم الصلح على هذا الوجه • وأخذ سبيون خمسمائة سفينة أحرقها بميناء قرطاجنة • ورد عليه أربعة آلاف أسير • وعاد الى رومة ظافراً منصوراً •

(1) ج 2 ص 189 •

أما حنبعل فإنه عاد الى قرطاجنة وهو يرجو أن يأتي يوم تقبل فيه رومة شروطا كالتى قبلتها اليوم قرطاجنة • وظهرت طلائع الفوضى بقرطاجنة • واتهم حنبعل بالتقصير في فتح رومة فحكم عليه بالقتل • ولكنه استمال الجند وقلب النظام وأصبح هو الأمر الناهي • وذلك سنة (196) وأخذ في رتق ما فتقته الحرب • فدرّب الجنود ونشط الفلاحة • ولم يرق ذلك للرومان فبعثوا اليه بالكف عن تلك النهضة التى تعيد لقرطاجنة شبابها ، وتخشى منها رومة خرابها • ولم يستمع اليهم حنبعل على كثرة الحاحهم • ولما أعياهم اعراضه عن موافقتهم عزموا على اغتياله بمساعدة أرباب الاموال التى استحوزت على قلوب أصحابها فلم تبق بها منفذا لحب الوطن • وإذ ذاك أيس حنبعل من خدمة أمتة بقرطاجنة • ففر الى الشام ونزل على ملك السريان « أنطيوخيس » وأراد أن يشغل رومة ويخدم وطنه من الخارج • فطلب من ذلك الملك المدد لمحاربة رومة في المشرق • فأمدّه • وأخيرا أيس من أن تكون لهذه المحاولات ثمرة • فسم نفسه سنة (183) •

وهكذا انتهت حياة هذا البطل العظيم والقائد الكبير الذى لم يهزمه غير الخائنين من قومه عبدة المنفعة الشخصية • فمضى ولسان حاله ينشد :

أنا لولا أن لي من أمتي خاذلا ما بت أشكو النوبا

هـ — الحرب البونيقية الثالثة (149 — 146)

خرجت قرطاجنة من الحرب الثانية على تلك الصفة القاضية عليها بالموت • ولكنها أمة تجارية نشيطة فتحسنت حالها واتعمشت • وكان مصينيسا يقلقها بغاراته على حدودها • وقام بها ثلاثة أحزاب : حزب مالي غرضه السلم ومداراة رومة ، وحزب وطني غرضه تأييد

سيادة قرطاجنة بالجيش والحرب ، وحزب بربري غرضه الاحتماء من رومة بالخضوع لمصينيسا . ولو قدر لهذا الحزب الاخير النجاح ما رأى الجزائريون وجوه الرومان وفخفتهم .

لم يكف مصينيسا عن ازعاج قرطاجنة . فرفعت عقيرتها مرارا بالشكوى منه الى رومة التي لم يخف عليها تعدي مصينيسا . وأخيرا خشيت رومة أن يستولي مصينيسا على قرطاجنة ، ويقطع آمالها في امتلاك افريقية . فوجهت الى افريقية ثلاثة من الخبراء للبحث في قضية قرطاجنة مع مصينيسا وانصافها منه . فلما بلغوها ورأوا حسن حال قرطاجنة عدلوا عن انصافها خشية أن تعود الى قوتها وتحتفظ بسيادتها على وطن همهم في امتلاكه . حتى أن أحد الخبراء المدعو قاطون CATON لما عاد الى رومة حمل معه تينات طرية من شجرتها ودخل بها مجلس الشيوخ قائلا : « ان الارض التي تنبت هذه الثمرة ليس بينها وبين رومة الا مسير ثلاثة أيام » ومن كلامه أيضا : « ان رأيي ان نهدم قرطاجنة » ولم يزل يكرر هذا المعنى في خطبه . وبعد قليل أصبحت رومة تلفق أسبابا واهية لتبرير حرب قرطاجنة .

أدركت قرطاجنة جور أولئك الخبراء وعرفت أنه لا ينصفها غير قوتها . فكانت للحزب الوطني فرصة لم يضيعها . إذ قام من رجاله جسقون ونظم جيشا جعله تحت امارة أريو برزان حفيد صيفاقس عدو مصينيسا . واخرج حزب مصينيسا من قرطاجنة سنة (152) فاحتج مصينيسا على ذلك أمام قرطاجنة ورومة . وأخيرا هجم على الحدود فخرج اليه صدر بعل في جيش كثير . وانهت المعركة بفوز مصينيسا . وذلك سنة (150) .

بلغ خبر هذه الحرب الى رومة فاعتمدتها سببا لحرب قرطاجنة بدعوى أنها نقضت الفصل السادس من مواد الصلح السابق . وشرعت

في تجهيز جيوشها للدخول في الحرب البونيقية الثالثة • وما أجدرها أن تسمى حرب التين !

في سنة (149) وجهت رومة جيشا الى افريقية • ولما نزل بصقلية جاءته رسل قرطاجنة معترفين بالجناية على الصلح مع أنهم كانوا مدافعين لا هاجمين • وقدم أولئك الرسل لضباط الجيش (300) من أعيان قومهم رهنا • ولكن الجيش سار لطيته وكان عدده ثمانين ألفا • ولما نزل بتراب قرطاجنة طلب منها — تكفيرا عن جناية نقض الصلح ! — تسليم جميع المواد الحربية وآلات الصناعة • فلبت الطلب ! وكان مما استلمه الجيش الروماني مائتا ألف درع ، وثلاثة آلاف مقلاع ، عدا المراكب وغيرها • وبعد استلام ما طلبه الجيش الروماني أولا طلب ثانيا منها أن تتخلى له عن خمسة عشر ميلا من ترابها • فطلبت تأجيل الجواب عن ذلك الى شهر • ووافقها الجيش على هذا الطلب لاعتقاده أنها عاجزة عن أي مقاومة •

أثار هذا السلوك الممقوت والخداع الخبيث حمية القرطاجنيين • فهاجموا وثاروا في وجوه الذين مكنوا الرومان من قوتهم • وجمعوا عشرين ألف جندي تحت قيادة صدر بعل • وتهيا السكان أجمعون للدفاع عن المدينة • وكان عددهم سبعمائة ألف • وخرج صدر بعل بجيشه من المدينة ليتمكن من تموينها • واستعد الباقون للحصار تحت رئاسة حفيد مصينيسا المسمي صدر بعل • ونهضوا أثناء ذلك الشهر للعمل بنشاط غريب حتى أنهم هدموا الديار ليأخذوا أخشابها ويصنعوا منها السفن وآلاتها وحلقت النساء شعورهن ليقتل منها الجبال •

وعندما تم الامد جاء الجيش الروماني ليدخل المدينة فوجدها على غاية الحصانة • وتخرج موقفه • ثم فشا فيه المرض والعصيان • وكان القرطاجنيون بخلاف ذلك تزداد حرارتهم الوطنية بطول الحصار •

ولم يجد الرومان مساعدة من مصينيسا الذي لزم الحياد رجاء أن يستفيد من ضعف الدولتين كلتيهما .

مكث القرطاجنيون في الحصار عامين . واشتد عليهم تحت رئاسة سبيون الأميلي اذ حفر خندقاً أحاط بالمدينة ، وأقام سدا بينها وبين المرسى ، وطارد الجيش القرطاجني المقيم خارج المدينة . وبذلك انقطعت عن المحصورين مادة التموين . وذلك سنة (147) . وحاول المحصورون النفوذ الى المرسى باتخاذ نفق تحت الجبل . فشمع بهم المحاصرون وردوهم الى الحصار فاستمروا فيه متزودين بالصبر .

لما أحكم سبيون حصار قرطاجنة وقطع عنها المؤنة برا وبحرا عزم على فتحها . فقصده مكانا ليدخل منه على غرة من أهلها . ففطن به صدر بعل حفيد مصينيسا وصدّه بإيقاد النيران في وجهه . وأخيرا دخل سبيون المدينة من ناحية المرسى . فشد عليه السكان شدة عنيفة . وأرسلوا عليه كل ما لديهم من مهلكات ومحرقات . ولكنه صبر لها وفتك بمن ساقه القدر اليه من شيوخ ونساء وصبية وأحرق كل ما مر به . ودامت الحال على شدتها ستة أيام بلياليها . والتجأ المحصورون الى هضبة برسة . وهم مع ذلك لا يسلمون قدما إلا بحقها . وكثرت الأاموات حتى صاروا يرمونها من طريقهم بالمداري .

وكان المحصورون بجبل برسة⁽¹⁾ ثلاثين ألفا . فلما أيسوا من النجاة ونفذ ما لديهم من وسائل الدفاع ومعدات الحصار أسلموا أنفسهم — ومعهم صدر بعل — لسبيون على أن يحفظ لهم أرواحهم . وكانت زوج صدر بعل أقوى منه جأشا فربأت بنفسها عن أن تحتل

(1) جبل برسة هضبة بمدينة قرطاجنة . شاد بها الفرنسيون اليوم كنيسة ومتحفا وضريحا للقديس لويس التاسع ملك فرنسا الذي هلك في حربه ضد المستنصر بالله الحفصي بالوباء سنة 669هـ - 1270م .

مئة سبيون • فأوقدت النار ببعيدهم وألقت نفسها فيها • وفعل فعلها
ألف قرطاجني • وذلك سنة (146) •

وانتهت الحروب البونيقية بفتح قرطاجنة التي خلد البونيقيون
بدفاعهم عنها لانفسهم كل الفخر والشرف وللرومان الغادرين كل خزي
وعار • وانه لفتح فتح على الجزائريين كل النوائب والمصائب وسد
عليهم طريق الاحسان السامي فلم يروه إلا بعد ثمانية قرون عندما
جاءهم العرب اخوان الفينيقيين يحملون لهم دينا فطريا وأحكاما عادلة
وحضارة طاهرة •

عندما تم فتح قرطاجنة احتفلت رومة بألقتها وقربت لها
القرايين • ثم وجهت عشرة من أعيانها لينظروا مع سبيون في مصير
قرطاجنة • فحملتهم الكراهية والبغضاء لمؤسسيها رجال العمران على
اختيار هدمها وتخريبها ففعلوا وبئس ما صنعوا • ولعنوا مكانها •
وأخذوا من تراب حكومة قرطاجنة قطعة ضيقة أضافوها الى مستعمراتهم
وأطلقوا عليها اسم « مملكة الرومان في افريقية » وجعلوا لها واليا
مقره عوتيقة •

البشائر السارة

في ذكر البربر

على عهد قرطاجنة وجمهورية روم

١ — علاقات البربر مع القرطاجيين

ليس لقرطاجنة مطاعم استعمارية — بالمعنى العصري — في بربر الجزائر . فلم تكن تخدمهم بالوعود الكاذبة أو تمنحهم الاماني الباطلة . فتتظاهر — وهي تسرحسوا في ارتفاع — بأنها جاءت لخيرهم ، وانها تحكمهم ريشا يصيرون قادرين على ادارة شؤونهم ، رشداً في تصرفهم ، ثم تقلع عنهم ، وتنفض يدها من التحكم عليهم متى بلغوا تلك الغاية .

وقد عاب على قرطاجنة هذا الخلق السامي ستيفان اغسال ونقل كلامه بيروني . وهالك ترجمته :

رومة ملكت اوطانا شاسعة ومع ذلك عرفت كيف تحفظ سيادتها : فالمكان الذي تنتصر فيه تحصنه بالجنود ، وتمني المحكومين بأنها تدعهم وشأنهم متى رشدوا . وقرطاجنة بعكس ذلك : متى ملكت ناحية لم تحصن مركزها فيها ، ولم تعد أهلها بالاقلاع عنهم يوما ما . الى أن قال : فلو شئت قرطاجنة ان تكون من افريقية دولة ثابتة لسهل الامر عليها . ولكنها فرطت في الاستثمار والاستغلال .

وان عيب على قرطاجنة تفريطها في استغلال البربر فانما يعيب عليها ذلك أهل المطاعم الاستعمارية . اما من لم تدنس عقولهم تلك المطاعم فانهم لا يرون عيبا على قرطاجنة ان لم تكن ذات خداع سياسي . بل يعترفون بفضل أعمالها العمرانية وما أحسنت به الى بربر الجزائر من جلب البضائع لوطنهم وتعليمهم الحرف والصنائع .

وقد كانت تستميل الرؤساء والامراء بالاموال وتتقرب اليهم بالمصاهرة ، لا لان تخدعهم في استقلالهم بل ليكفوا عنها هجومات قومهم ورعاياهم أو تستعين بهم في حروبها .

أملقار برقة أعظم قواد قرطاجنة وعد نارفاس من رؤساء البربر بابنته لاعاته له على اخماد ثورة المرتزقة ، وحنبلع الشهير كانت له ابنة أخ تزوجت من اصالساس بن نارفاس ، وصفر نيسب الشهيرة بنت صدر بلع كانت تحت صيفاقس ، ومصينيسا كانت له بنت تزوجت بأحد سراة قرطاجنة وكان منها صدر بلع حامل راية الدفاع عن المحصورين بقرطاجنة .

وكان لقرطاجنة منذ أواخر القرن الخامس (ق.م) جنود مرتزقة من نوميديا وموريطانيا . والنوميديون هم الذين أعانوا حنبلع بأوروبا . واليهيم يرجع الفضل في انتصاراته الكثيرة الباهرة .

وكانت بين قرطاجنة وبعض أمراء البربر بالوطن الجزائري معاهدات تقضي باعانة أولئك الامراء لقرطاجنة أيام الحرب .

فانت ترى أن بين قرطاجنة وبربر الجزائر روابط بالمصاهرة والمعاهدة ، واختلاط في الجندية .

2 — الحضارة القرطاجنية بالجزائر

كان البربر قد اجتازوا العصر الحجري وعرفوا الزراعة قبل تأسيس قرطاجنة . ولكنهم استفادوا من القرطاجنيين فوائد كثيرة وجلية بحيث يصدق عليهم أنهم تلاميذهم في العمران والحضارة .

كان شجر الكروم والزيتون بأرض البربر من النباتات الطبيعية ولم يهتدوا الى وجه استثماره . فلما جاورهم القرطاجنيون أخذوا

عنهم صناعة عصر العنب للخمر وحب الزيتون للزيت • وكانوا قد عرفوا الفلاحة • فاستفادوا من القرطاجنيين ضربا آخر من البذور لم تكن بوطنهم ، وأخذوا عنهم أيضا آلة لدرس الجبوب • ولم تكن للبربر دراية بالفراصة • فاستفادوا من القرطاجنيين غراسة الاشجار على اختلافها • وتعلموا منهم تربية الحيوانات • وعرفوا منهم المعادن فاستخرجوها • من ذلك النحاس • استخرجوه قبل ألفتح الروماني • ويظن بعض الباحثين أن ذلك كان بناحية تنس • وتعلموا منهم صنع الرصاص والحلي ونحت الحجارة النفيسة • ولم ترج صناعة الحديد بين البربر إلا على يد القرطاجنيين⁽¹⁾ • وتعلموا منهم صناعة الاواني المطلية وفنهم في البناء • فكانوا يبنون القباب على شكل الاهرام • وعرفوا الفن الاغريقي أيضا في البناء • ولكن بواسطة القرطاجنيين •

وقد عثر الباحثون في الوطن الجزائري على اطلال من بناءات البربر حكوا فيها الفن الفينيقي • وكثيرا ما يجدون أطلالا مركبة من الفين الفينيقي والاغريقي •

وليس لقرطاجنة من حيث أنها حكومة يد في انتشار هذه الحضارة لأنها كانت في نواح لم تكن لقرطاجنة عليها سلطة • وانما كان انتشارها ناشئا عن أسباب مرجعها الى ما كان بين الامتين من الروابط • وهالك أهمها :

1 — المدن البونيقية : ذلك أن البربر كانوا يقصدون تلك المدن

(1) تأخر رواج صناعة الحديد بين البربر الى ذلك العهد لا يدل على بعدهم عن الحضارة لان مجيء القرطاجنيين كان لاول العصر الحديدي فيما يظهر . فقد قال تعالى في شأن داوود : « وانزلنا له الحديد » وذلك يدل على أن عصر داوود هو بداية العصر الحديدي . وقد علمنا الخلاف في تأسيس قرطاجنة هل كان في عصر داوود او بعده ، وان تأسيسها كان بعد تعرفهم بهذا الوطن على كل حال .

يشترون منها بضائع بونيقية ويشاهدون بها حضارة بونيقية • فينقلونها داخل وطنهم باختيارهم • وما أسرع البربري الى الاخذ بالجميل إذا لم يكن مبغضا لأهله •

2 — الجنود المرتزقة : ذلك أن قرطاجنة كان لها من البربر جنود مرتزقة • وهؤلاء الجنود يختلطون بالبونيقين ويتأثرون بحضارتهم • فبعد أن يقضوا بينهم زمنا يعودون الى أوطانهم ناشرين لتلك الحضارة •

3 — أمراء البربر : ذلك أن لكثير من أمراء البربر ولوعا بترقية وطنهم • فكانوا يقتبسون من جيرانهم البونيقين ما يلبغون به أمنيتهم • فيأخذون من مدنياتهم وحضارتهم أمثلة صالحة ينشرونها بين رعائهم بهمة وعناية ، ويسيرون بها في مساكنهم واداراتهم شوطا بعيدا • والناس — كما قيل — على دين ملوكهم •

ولكون البربر هم الذين جلبوا الى وطنهم الحضارة القرطاجنية ونشروها بينهم باختيارهم لم تسقط هذه الحضارة بسقوط قرطاجنة بل عاشت في العصر الروماني ، ولم يضرها جوار الحضارة الرومانية • قال بيروني :

بدلا من أن يقضي الرومان على حضارة قرطاجنة ونشروها ومدوا في عمرها ، مع عدم المناسبة بين الفينيقيين والرومان أصلا وحضارة • ولكن طول مكث الفينيقيين بافريقية غرس حضارتهم في نفوس البربر غرسا لا يزول بزوال ملكها • حتى أن الرومان لما صاروا يملكون وينشرون حضارتهم لم يفهم ذلك البربر إلا أنها حضارة قرطاجنية • ولم يزل ذلك من أفكارهم إلا الفتح العربي • فكان عمر هذه الحضارة (17) قرنا •

هذا كلام بيروني سقناه لما فيه من الشهادات العادلة • وفيه

سبب لانتشار حضارة قرطاجنة بين البربر وطول أمدتها غير الاسباب التي قدمنا . ولكن ما قدمناه هي الاسباب الحقيقية أما طول المكث وحده فغير كاف . وسترى ان طول مكث الرومان لم يتسبب عنه بقاء حضارتهم بعد ذهاب سيادتهم ، ولم ينتج عنه انتشارها حتى أيام سيطرتهم . بل في كلام بيروني هذا ما يعني في رد ما جعله سببا لبقاء حضارة قرطاجنة عن انتظار ما يأتي في آخر الباب التالي .

3 — تأثير قرطاجنة على البربر في الخط واللغة

كانت للبربر حروف هجائية كما كانت لهم لغة . ولكنها لم تكن لغة آداب وعلم . فلما خالطوا الفينيقيين تأثروا بلغتهم ومالوا الى خطهم . حتى صاروا بقرطة لا يتكلمون بغير الفينيقية . وأصبحت هي اللغة الرسمية بدواوين الحكومة على عهد مصينيسا فمن بعده من الملوك . وظهر ذلك على نقودهم الدولية التي عاثت بعيش دولتهم الى أواسط القرن الاول للميلاد .

وعلى أيدي الملوك والامراء انتشرت هذه اللغة بين العامة خصوصا في الجهات التي تجاور مملكة قرطاجنة . ولم تزال حية بنواحي قلالة وبونة الى أيام القديس أغسطين . غير أنها لم تكن إذ ذاك لغة مدرسية ، والبلغاء يترفعون عنها ويتظاهرون بجهلها ، وانما هي لغة البوادي الذين كانوا يجهلون اللغة اللطينية الى ذلك العهد . فكان الرومان يحتاجون في ذلك الحين الى مترجم عارف بالفينيقية عندما يضطرون الى مخاطبة البداية من البربر .

وقد وجدت كتابات بقلالة ونواحيها وقسنطينة وميلة على قبور بهذه اللغة . ويرجع تاريخ هذه الكتابات الى ما بعد سقوط قرطاجنة .

ومن اللغة الاعلام . وقد اتخذ البربر لبعض مدنهم أعلاما فينيقية . ومن ملوك نوميديا من سمى أبناءه بأعلام فينيقية . فقد كان لمصينيسيا ابن يدعى مستبعل وابن آخر يدعى آذر بعل . واقتفت السوق أثر الملوك في ذلك قرونا . ويوجد بجهات سطيف وجبل أوراس وسور الغزلان كتابات بحروف لطينية لأعلام فينيقية . منها نمفامو ، صدر بعل ، بريق بعل ، بو ملكار ، مع أن هذه الجهات لم تدخلها قرطاجنة قط .

فأنت ترى أن اللغة الفينيقية عاشت بالجزائر بعد قرطاجنة قرونا ، ولم تقض عليها أو تذهب بأغلبيتها لغة الامم التي جاءت بعد القرطاجنيين ، الى أن جاء العرب فقضت لغتهم على هذه اللغة .

قال بيروني : اتفق المؤرخون على أنه لا يمكن معرفة ما بقي من آثار هذه اللغة لأنها لغة سامية وقد دخلت عليها أختها العربية وحلت محلها .

هذا وان انتشار الفينيقية بتلك الدرجة ودوام عمرها قرونا لا يفيدان أن اللسان البربري حفظها كما هي . بل لا بد أن تكون قد تغيرت وامتزجت بالبربرية . وهذا وجه آخر عندي لعدم امكان معرفة ما بقي من آثارها .

4 — تأثير قرطاجنة على البربر في العقيدة

كانت للبربر ديانتهم التي لا تختلف عن ديانات الامم القديمة الوثنية إلا من حيث تفاصيل العبادات وتماثيل المعبودات وأسمائها التي هي من توابع اللغات .

ولما جاورهم القرطاجنيون تأثروا بهم في عقيدتهم وقلدوهم في

كثير من طرائق عبادتهم وغيروا بعض ما ورثوه عن أسلافهم بما شاهدوه عند جيرانهم •

عبد الفينيقيون إله البربر « أمون » لكن حسب تقاليدهم وبعد تسميته « بعلمهون » وبعد صنع تماثيل له غير تماثلي التيس والكبش • فقلدهم البربر في تلك التماثيل أيضا وشادوا — أجلالا لبعلمهون — تماثيل بقرطة وميلة وقالمه • وعبدوا من آلهة الفينيقيين « استارتي » و « جليست » • ومن الآلهة التي بقي اسمها الى ما بعد الاستيلاء الروماني « بليدير » ومعناه الرب العظيم • وكان معبودا بسيقوس وجوار قالمه •

قال اغسال : « وثم آلهة فينيقية تحت حجاب اللغة الفينيقية » •

ولم تزل ديانة الفينيقيين التي أدمجها البربر مع ديانتهم حتى جاءت وثنية الرومان فتعاشر الثلاث ثم ظهر الدين المسيحي فتدثر به جانب من البربر مستبطنًا لوثنيتة الملفقة من الوثنيات الثلاث وبقي أكثرهم وثنيا صريحا حتى جاء الدين الاسلامي على ايدي فاتحي افريقية من العرب فقضى على الجميع • على أنه لم تزل الى اليوم عوائد متخذة عقائد لا تتفق مع روح الدين الاسلامي ، ويعد أن تكون من بقايا الوثنية الاولى ، فإن الاسلام قد تمكن من قلوب البربر حتى أن تلك العقائد الفاسدة انما عاشت بينهم لاحتمائها بالاسلام وتستترها بجداره ، فلو وجد من العلماء المخلصين لدينهم وقومهم عدد كاف لحمل العامة على الثقة بما يقولون ، وأخذوا في رفع الستار عن فساد تلك العقائد لنفض مسلموا اليوم أيديهم منها ، ولكن ما لم يكن اليوم فعسى أن يوجد غدا • أن رحمة الله قريب من المحسنين •

وقد اتضح لك من هذا الفصل وما قبله أن القرطاجنيين أثروا في البربر تأثيرا بعيد الاثر ، لا يحوي تاريخهم نظيرا له إلا ما كان

من تأثير العرب في العصر الاسلامي • وسر ذلك ان البربر يأنفون ممن يبعث باستقلالهم ويتذرع الى ذلك بوسائل الخداع السياسي والنفاق الاستعماري • وإذا أنفوا من أمة هذه خلالها رفضوا مدنيتهما وهجروا أخلاقها وعقائدها • والفينيقيون كالعرب من الجنس السامي جنس الصراحة الصادقة والكلمة الثابتة • فلذلك أثروا في البربر ذلك التأثير ونفذوا الى قلوبهم فغيروا من أخلاقهم وعوائدهم ولغتهم وعقائدهم •

5 — نشوء الممالك البربرية العظمى

إذا ألقى المرء نظرة على خريطة الجزائر الطبيعية ألقاها ذات أقسام مختلفة : جبال وهضاب وحقول وصحار • ولاهل كل قسم من هذه الاقسام طبائع وعادات يختلف بعضها عن بعض تبعا لاختلاف الامكنة • ولكنهم لم يكونوا من الاختلاف بحيث لا يتعارفون ولا يتعاملون • فقد كان بالوطن الجزائري طرق تخترقه وتربط بين هاتيك الاقسام ، وتسهل المواصلات بين السكان • ففي كل عام ينتقل أهل الصحراء بمواشيهم الى التل — كما هي الحالة اليوم — وتقع المعاملة بين الفريقين : يأخذ التلي الصوف والتمر ، والصحراوي الجبوب •

وبذلك تكونت علاقات بين الشعوب الجزائرية منذ أقدم العصور التاريخية ، وتأسست منهم ممالك كبرى ذات نظام وعمران وحضارة •

صيفاقس من ملوك البربر استطاع أن يجند (60) ألفا لمحاربة سبيون الافريقي ، ويوبا الاول جمع لحرب قيصر (30) ألفا راجلا و (20) ألفا فارسا • وفي القرن الثاني (ق.م) كان مصينيسا

ومصبيسا ويوغورطا ملوكا على ما بين طرابلس ومراكش ، وقد يمتد حكم بعضهم الى المحيط الاطالتيقي .

وقد بلغ من عظمة ملوك البربر أن كانوا احدى العوامل في سقوط قرطاجنة ، وغصت بهم رومة رغم اتساع بلعومها لكثير من الاوطان .

وقد كان هؤلاء الملوك يحبون الاستبداد بالسلطة والاستقلال بالارادة والادارة ، لذلك أسلموا قرطاجنة للسقوط وقاوموا رومة حينا من الدهر .

وللملوك البربر نواب في مختلف الجهات يسمون ملوكا أيضا . ويرسلون للمدن عمالا . ومن المدن ما منحوها الاستقلال ، ونظمت حسب نظام المدن القرطاجنية ، وكان لها قضاة كقضاة مدن قرطاجنة الذين يعرفون بالاشفاط **SUFFETE** . ومنحت تلك المدن حق ضرب النقود ، فكتبت عليها باللسان القينيقي .

والحكومات البربرية وراثية محصورة في بيوت منهم سواء في ذلك الملوك ونوابهم .

وقد كان بقرطة تجار وعمنة من الاغريق والايطاليين . وكان نطاق العمران متسعا . ولكن شمال قرطة كان أوفر حظا . فكانت المدن بتلك الناحية كثيرة عامرة . وتوجد مدن عامرة أيضا وهي في الجنوب منها تقيست ، وقد بلغ من عمرانها وكثرة سكانها أنها في سنة (250) ق.م تمكنت من اعطاء ثلاثين ألفا من رجالها رهنا على الطاعة لقائد قرطاجني .

واتشرت الفلاحة على يد مصينيسا . وكثيرا ما مون ملوك نوميدا جنود الرومان بالقمح والشعير في حروبهم بالشرق أو باسبانيا أو بجزيرة سрдانيا .

ولم تزل الجزائر من ذلك الحين صالحة للفلاحة وتربية الحيوانات التي تكلم عليها سالوست . والعمارة الفلاحية كانت تمتد الى حد الجزائر الغربي . وكانت مصيبيلا أغنى من مصيبيلا رجالا وتنتائج أرض .

وكان البربر يفتخرون بكثرة النسل . قال اغسال : « ويرون افريقية أكثر من غيرها في ولادة التوأم » ومراده بافريقية ما يشمل الجزائر . ولم يزل هذا الخلق الى اليوم بزواوة . قال أبو يعلى الزواوي : ومن عادات زواوة أنهم « يقلدون المرأة التي أذكركت نوعا من الحلي خاصا بالجهة » ⁽¹⁾ .

وبتقدم العمران تقدمت الحضارة . قال اغسال : « ولم يكن جميع من تحت هؤلاء الملوك متوحشين » فقد شيدت المباني العجيبة من منازل وصوامع وقصور وقباب ومعابد . كل ذلك على نمط الفن الفينيقي أو الفن الافريقي المركب من الفن الفينيقي والافريقي .

6 — ذكر بعض رؤساء البربر

لم تظهر بالوطن البربري دول عظام وملوك فخام إلا عندما أخذ الطمع الاشعبي يدفع رومة لامتلاك وطنهم ، واصطدمت بقرطاجنة . فحينما دب الهرم في دولة قرطاجنة ونخرت أعظمها من حروب اليونان والرومان أراد البربر أن يحفظوا استقلالهم فكان منهم ملوك سنرى أخبارهم فيما يلي هذا الفصل .

واستغناء البربر أولا عن تأسيس دولة ثم التجاؤهم ثانيا يظهر سره فيما أجاب به النعمان بن المنذر كسرى وقد عاب أمامه العرب

(1) تاريخ الزواوة ص 34 .

بعبوب منها عدم انقيادهم لرجل يسوسهم • وهذا جوابه : « وأما تركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من الامم إذا آنست من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف » •

حقا حفظ البربر استقلالهم بتأسيس تلك الممالك مدة • وقد كانوا ينجحون في اقضاء عدوهم لولا انقسامهم على رؤساء وامراء كل يحارب الآخر • ولا أضر على الامم من الحروب الداخلية والتهالك على الرياسة •

قبل ظهور الملوك العظام كان لعشائر البربر رؤساء هم نواة الملك الذي عظم من بعدهم • ونحن نذكر من أولئك الرؤساء ما اهتدينا الى خبره ، ثم نقفي بذكر الملوك العظام الذين قلما تجود بهم الايام •

1 — مطوس : كان زعيم العساكر المرتزقة التي ثارت على قرطاجنة سنة 238 (ق.م) •

وذلك أن قرطاجنة كان لها من العساكر المرتزقة عشرون ألفا عجزت عن أداء أرزاقها بعد خروجها من الحرب البونيقية الاولى على ذلك الوجه المضر بها • فلم تعذرها تلك العساكر واثارت مطالبة بأرزاقها • فمنحت كل واحد دينارا (صرفه مجهول) فلم يرضهم ذلك • فوجهت لهم ضابطا يدعى حنون فعجز عن مقاومتهم • ثم عينت لكسر شوكتهم أملكقار القائد العظيم⁽¹⁾ •

(1) منهم من يسميه عملكرض او هملكار • وما اثبتناه في الاصل هو ما في ابن خلدون • غير انه قال املقا • والظاهر ان الراء سقطت في التصنيف فقط •

2 — نارفاس كان ملكا بمصليا . ولما اشتدت ثورة العساكر المرتزقة وحاصروا عدة مدن منها بنزرت وعين أملقار لحربهم رأى أنه لا يقوى عليهم إلا بمساعدة نارفاس . فاستماله ووعدته بابتته . فاعانه وتسكن بذلك أملقار من محاربة الثوار . أخذ أولا ثورتهم فجددوها وبلغوا أن حاصروا قرطاجنة . فتمكن لأملقار أن يدافع طائفة منهم حتى حصرها بين جبلين . ولما ضعفت استأمنت له لكنه استأصلها عن آخرها . وبقي مطوس بمن معه محاصرا لقرطاجنة . فضاغف القرطاجنيون قوتهم حتى غلبوا مطوس وجنده .

3 — غولة : هو ابن نارفاس خلف أباه على ملك مصليا . وكانت عاصمته قرطلة . فجري على سياسة والده من مصادقة قرطاجنة الى أن توفي سنة (206) ق.م .

4 — إصالساس : هو ابن نارفاس أيضا . خلف أخاه على ملكه في عاصمته . وكان معه مصينيسا بصفة أمير . وبعد قليل توفي وترك ولدين هما : قولوسا ، لكوميسيس .

5 — قولوسا : كان هو الأكبر سنا فانتصب مكان أبيه حسب نظامهم في ارث العرش . وثار عليه ثائر من الاسرة المالكة . لكنه — حسب القانون الوراثي — لا حق له في الولاية . ويدعى هذا الثائر مزوطيل . نشبت الحرب بين الملك والثائر وجموعهما . وانتهت بهلاك قولوسا .

6 — لكوميسيس : بعد أن فاز مزوطيل تنازل عن الملك لمن له الحق فيه وهو لكوميسيس . وانتصب وكيلا عنه وكافلا له . فكان تنازله اسما . وفي الواقع هو الملك .

كان من الواجب على قرطاجنة ان تتدخل في هذه الثورة لفائدة من له الحق في الولاية . لكنها وقفت موقف المتفرج . وكان مصينيسا

ابن غولة بالاندلس مع القرطاجنيين في حرب الرومان . فلما بلغه خبر مزوطيل واعراض قرطاجنة عن ثورته خرج من الاندلس مغاضبا للقرطاجنيين ومحالفا للرومان . قصد مصيليا ليطرد من عرشها مزوطيل ويتسلم هو مقاليد الحكم . فمر بمصيصيليا مملكة عدوه صيفاقس في شردمة من الجند . وبلغه أن مزوطيل ذاهب لزيارة صيفاقس . فكمن له في بعض السبل وانقض عليه وعلى من معه . وتقاتلا حينا وحكت المعركة لمصينيسا . ففر مزوطيل بمن بقي من جنده . واستقر مصينيسا بعرش آباءه ملوك مصيليا .

7 — صيفاقس (230 — 202) ق.م

صيفاقس من أعظم ملوك البربر . كان ملكا على مصيصيليا . وعاصمته صيغة ، كان هذا الملك معاصرا لغولة . ومن أخلاق ملوك البربر التنافس والتخاذل والاستعانة بالاجنبي . ولولا ذلك لكان الوطن البربري أمنع على مريد اغتصابه من عقاب الجو .

ولهذا السبب كان هذان الملكان مختلفين : غولة حليف للقرطاجنيين ، وصيفاقس حليف للرومان .

وفي سنة (213) أرسل اليه الرومان ضباطا يعلمون جنوده . وسار صيفاقس ضد غولة . فوقعت الحرب بينهما . وكان رئيس جيش غولة هو ابنه مصينيسا . وعمره إذ ذاك سبع عشرة سنة . فاتصر مصينيسا وأخرج صيفاقس من عاصمته صيغة . فذهب الى موريطانيا الغربية وجمع من أهلها جيشا ساقه لحرب مصينيسا . فعادت عليه الكرة أيضا . وذلك سنة (212) .

بعد انتصار مصينيسا صارت مملكة غولة تمتد الى ملوشات

غربا • فكان بذلك ملكا على مصليا ومصيصليا • وكان صدر بل
القرطاجني بالاندلس فجاء مددا لمصينيسا على صيفاقس • وبعد
الاتصار عاد اليها بجيوش كثيرة تحت قيادة مصينيسا •

ولما توفي غولة واعقبته ثورة مزوطيل ولم تتدخل فيها قرطاجنة
غضب مصينيسا وخالف قرطاجنة وحالف رومة •

كانت قرطاجنة تخطب ود صيفاقس وهو معرض عنها • ولعل
تغافلها عن ثورة مزوطيل التي فيها فائدة صيفاقس كان يقصد
استمالة • ولكنها خسرت بهذه السياسة صداقة مصينيسا • وإذا
كان مصينيسا مع الرومان خالفهم القرطاجنيون الى استمالة صيفاقس •
فكانت عليهم هذه المرة سهلة • وكان لصدر بل بنت شميرة تدعى
« صفو نيسب » وعد بها مصينيسا فلما أيس من مناصرته عدل عن
مصاهرته وزوجها من صيفاقس عدو مصينيسا •

اتخذ القائد القرطاجني هذه الوسيلة شفيما له في صداقة
صيفاقس فنجح • وكيف لا ينجح بمثل هذه الشفاعة التي يقول
فيها الفرزدق :

ليس الشفيع الذي يأتيك متزرا

مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

صدق صيفاقس في صداقته لقرطاجنة • وابتدأ عمله بحاربة
مصينيسا الذي انتصب بقرطة ملكا على مصليا • فانتصر عليه واتزع
منه أغلب مملكته • ففر مصينيسا واعتصم ببعض الجبال • وذلك
سنة (205) ومن معتصمه صار يغير على تراب قرطاجنة فأقلقها • وإذا
ذاك رغبت من صيفاقس أن ينهي قضية مصينيسا انهاء حاسما • فلهاها
وأرسل جيشا تحت قيادة بوكار • فشد الخناق على مصينيسا وفك

برجاله ولحقته هو جراحات عميقة أعجزته عن أي مقاومة • فرمى بنفسه في واد ونجا الى الضفة الاخرى • وذلك ناحية قليبية من التراب التونسي •

بعد هذه الخيبة آوى الى مغارة بسفح جبل ريشا يلتئم جرحه ، ويستعيد قواه • وذاع أنه توفي • ولكنه كان يسعى سرا في جمع الجنود • وبعد استراحته ظهر لاهل مصيليا • فسرّتهم رؤيته وابتهجوا بوجوده ، فانجدوه • وبعد قليل جمع (6000) من المشاة و (4100) من الفرسان •

ولم يكن صيفاقس بغافل عنه فجمع جموعه الكثيرة وقسمها جيشين أحدهما برئاسته والآخر بقيادة ابنه فرمينة • وكان مصينيسا بالجيال التي بين قرطه وهبون • فقصد صيفاقس • واصطدمت الجيوش وحمي وطيس الحرب • وأسفرت عن نجاح صيفاقس وهزيمة مصينيسا • ففر الى بلاد السرت الاصغر (قابس) •

إذ ذاك استقل صيفاقس بملك مصيليا ومصيليا بعدما كان استقل بهما غولة • وهكذا الدنيا اقبال وادبار •

اتسع نطاق مملكة صيفاقس فاتخذ قرطه عاصمته سنة (204) وبينما هو متمتع بملكه العريض ومصينيسا شريد في الجبال والفيافي إذ نزل سبيون الافريقي بجموعه في افريقية ، فلاح بذلك بارق الامل لمصينيسا • وجاء بمن كان في صحبته نجدة لسبيون •

هنالك أرسل صدر بعل بن جسقون الى صهره وحليفه صيفاقس فجاءه بستين ألفا مقاتلا ونزل في مركز خاص ولم يختلط بصدر بعل • نشبت الحرب بين القرطاجنيين والرومان • فأظهر سبيون الانهزام مكيدة وخاطب محاربيه في الصلح • وبينما هم يتفاوضون إذا بسبيون دخل بين الجيشين المتحالفين وحال دون اتصالهما ببعضهما ببعض •

وفي الليل هجم هو مع قومه على صدر بعل ، ومصينيسا في رهطه على صيفاقس . وأحرقا عساكر العدو بالنيران ومن بقي عن النار ألحقته السيوف . فكانت على القرطاجيين وأنصارهم وقعة كبرى وذلك سنة (203) .

شجع هذا الانتصار سبيون على فتح قرطاجنة . ولكن لم يرد أن يورط نفسه فيه قبل استئصال أنصارها من البربر . فجهز جيشا لحرب صيفاقس بقيادة مصينيسا . فالتقى الملكان البربريان بجموعهما . فكبا بصيفاقس جواده في المعركة فأخذه مصينيسا أسيرا . وذهب به الى قرطنة واحتال لدخولها فدخلها . وأتى صفو نيسب وأراد التزوج بها . فلم يرق ذلك لسبيون خشية أن تستميله عنه الى قومها . ولكنها أنهت الخلاف بينهما بقتل نفسها !

وبعث بصيفاقس الى رومة . ومات بها سجيناً سنة (201) وهكذا ختمت سعادته بالسيادة ⁽¹⁾ وبسطته في السلطة . فمات سجيناً بعيداً عن الاهل والولد . وذلك مآل سياسته في منافسته لابن وطنه ، واستعانت عليه بالرومان أولاً . ويسرني — وأيم الله — أن تكون هذه عاقبة كل من سعى في جلب الاجنبي الى وطنه ليتقوى به على منافسه من أبناء جنسه .



(ش - 5)

نقود صيفاقس . وعليها رسمه وكلمة صيفاقس ملك

(1) بالسيادة يتعلق بالسعادة .

فرمينة هو ابن صيفاقس • قسمت رومة ملكة والده بينه وبين مصينيسا • وأعطته هو مصيصيليا ملكة والده الاصلية •

فرمينة ابن عدو الرومان ووارثه في أحقاده وضغائنه ، ومع ذلك يعطونه مصيصيليا ولا يزدونها لمصينيسا صديقهم ونصيرهم • قد يكون هذا شيئا عجابا • ولكن لا عجب مع السياسة • ولا صداقة ولا عداوة فيها • لو بسط مصينيسا نفوذه على مصيليا ومصيصيليا لكان ذلك مما يضر بنفوذ الرومان ويضعف من آمالهم في افريقية • وليس في وجود أميرين بربريين ما يخشى منه ذلك • لانهما إذا لم يكونا جميعا تحت نفوذهم فلا أقل من واحد يخلص لهم طمعا في الانتقام من الآخر •

ولم أعثر على ما ينير لي حياة هذا الملك وما قام به أيام ملكه من الاعمال • ولا عثرت على نهاية ملكه سوى أن بعض المؤرخين ذكر أن مصينيسا استقل بمصيليا ومصيصيليا سنة (158) فيظهر أن تلك السنة هي التي انقضى فيها ملك فرمينة إذ لا يعرف بعده ملك على مصيصيليا قبل مصينيسا •

وهكذا بعدما عثر جد صيفاقس بعثار جواده وأخذ منه الدهر ما كان من طريف غزه وتلاده لم يكن لخلفه صيت ولا سمع له حسيس أو صوت •



(ش - 6)

نقود فرمينة . وعليها رسمه وكلمة فرمينة ملك

مصينيسيا بن غولة بن نارفاس • ربي بقرطاجنة • وكان سلفه حليفا لدولتها • فخاض مع القرطاجنيين حروبهم مع الرومان بالاندلس • وقائد الرومان بالاندلس سيون الافريقي • وقد شاهد ما لمصينيسيا من المقدرة الحرية • فصار يخاطبه في ولاء رومة • واتفق أن وقع مصيفا ابن أخي مصينيسيا أسيرا بيد سيون سنة (207) فصرحه تقربا من عمه • كل هذا ومصينيسيا محافظ على ولاءه لقرطاجنة •

وفي سنة (206) توفي غولة وأعقبته ثورة مزوطيل • فلم تحافظ قرطاجنة على أمواله ومملكته • وذلك استخفافا بمصينيسيا الذي لولا اشتغاله بخدمتها لم يقع ما وقع بمملكته • فغضب لذلك واضطر لمخالفة الرومان •

رجع مصينيسيا من الاندلس ومر بموريطانيا وطلب من ملكها بوكار شردمة من الرجال لحمايته في طريقه • فأمدته مصانعة • وأغذ السير حتى دخل وطنه • فهرع إليه أنصاره •

وبدخوله وطنه دخل في حرب قريه مزوطيل والملك الصوري لكومسيس • فكان النصر حليفه وفر ابن عمه لكومسيس الى صيفاقس فأمدته وأعاد الحرب ثانية • فعادت عليه الهزيمة • وبعد أن رأى مصينيسيا عجز ابن عمه عن الحرب رق له وقربه وأشركه في الحكم • فجمع بذلك شمل أسرته وأعرب عن دهائه وحكمته •

لم يكن صيفاقس ولا القرطاجنيون ليرضوا بوجود مصينيسيا على رأس حكومة مصيليا • ولم يجدوا سبيلا لآخذه من ناحية التفرقة والمشاغبة عليه برجل من عشيرته • لانه سد هذا الثلم بالتساهل مع

ابن عمه • فرأوا أن يبادروا إليه قبل استفحال أمره • فجمع له صيفاقس الجموع وحاربه مرارا حتى أخرجه من مصيليا والتجأ الى السرت الاصغر •

أخرج صيفاقس مصينيسا من عاصمته كما أخرجه هو قبل ذلك بنحو ثماني سنوات • واشتغل بالسرت في طائفة من أصحابه بشن الغارات في تلك الجهات الى أن جاء سبيون الى افريقية فانضم له وحارب معه حتى سقط صيفاقس في يده وعاد منصورا ودخل قرطه عاصمة سلفه • واعترف له الرومان بالسيادة على مصيليا • ومنحت مصيصيليا لفرمينة • وفي سنة (158) استقل بملك مصيليا ومصيصيليا كما كان والده استقل بهما قبل •

اتسعت من ذلك الحين مملكته وصارت تشمل ما بين طرابلس ومراكش خلا ما كان من التراب التونسي تحت قرطاجنة • وبقي على محالفته لرومة • فكان يعينها في حروبها خلف البحار بالرجال والافيال والحبوب ، يرسلها مع أبنائه ليتعرفوا الى الرومان ويقفوا على طبائعهم في وطنهم وسياستهم في عاصمتهم • وكان شيوخ رومة يجازونه على اعاناته المادية بهدايا شرفية من تيجان ذهبية وقضبان عاجية وكراسي عاجية ، وعلائل مطرزة بالذهب وحلل •

وكما كان يعينها تلك الاعانات كان يعترف بسيادتها ويقول :
« ان رومة هي الملكة الحقيقية • وليس لي من مملكتي الا الاستغلال » •

وكل هذا منه مصانعة وخداع اقتضته السياسة • أما غايته الحقيقية فهي الاستقلال بملك افريقية الشمالية والقضاء على القرطاجنيين وطرد المطامع الرومانية • وقد أدرك الرومان منه هذه الغاية فاستخدموه في اضعاف قرطاجنة عدوتهم القوية • ولما فتحوا

مقدونيا طلب مصينيسا من شيوخ رومة الاذن في زيارة عاصمتهم ليقدم قربانا للالهة « جويتر » (كوكب المشتري) . فلم يرضوا ذلك الطلب - أظن لأسرار سياسية - وأجابوه بأن بوطنه آلهة فليقترب لها ان شاء .

كانت اعانة مصينيسا لرومة على ضربين : اعانات خارج افريقية غرضه بها مخادعة رومة بإبداء صداقته لها ، واعانات بافريقية غرضه بها اضعاف قرطاجنة كي يتمكن من تنفيذ برنامجه الاستقلالي . فأعانها في حرب زامة التي كانت للرومان على القرطاجنيين . ووقع بينهما ذلك الصلح الذي اشتمل على المادة السادسة لفائدة مصينيسا . ومن ذلك الحين أخذ في تنفيذ برنامجه . واستعد له بتنظيم الجيش وتنشيط الفلاحة والتجارة . وصار يتقدم نحو قرطاجنة ويختزل من أراضيها . فرفعت شكواها منه الى رومة . وكررتها مرارا . فكانت رومة تغضي عن الاجابة أحيانا ، وتعد على قرطاجنة مساعدة حنبعل لأمير الشام أخرى . وأخيرا وجهت ثلاثة من الخبراء لينظروا في قضية قرطاجنة ومصينيسا . فلم ينصفوها وأبقوا له ما ملك من أراضيها .

وما زال مصينيسا على غاراته في تراب قرطاجنة . وهي تكرر شكواها منه لرومة حتى استمعت لها ووجهت ثلاثة خبراء أيضا . وكانوا يريدون تأييد قرطاجنة لانهم يخشون من استفحال سلطان مصينيسا والقضاء على مطامعهم في افريقية اذ كانوا لا تخفى عليهم غايته . وكانوا يظنون قرطاجنة في حالة بؤس وضعف بحيث لا يخشون جانبها . فلما نزلوا بها وشاهدوا حسن حالتها خلاف ما كانوا يظنون رأوا أن انصافها يعزز قوتها . وذلك مما يدفعها في المستقبل لتجديد الحرب مع دولتهم . فعدلوا عن قصدهم وتركوا ما كان على ما كان . إذ ذاك عزمت قرطاجنة على أن تنصف نفسها بنفسها . فسعت

في لم شعنها • وأخرجت من عاصمتها شيعة مصينيسا الذين كانوا يدعون الى حماية التراب القرطاجني من الرومان بالدخول في طاعته والاستقلال برايته •

غضب مصينيسا من طرد حزبه • وأرسل الى قرطاجنة اثنين من أولاده احتجاجا على ذلك • فقبولا بكل ازدراء وامتهان • إذ ذاك أرسل ولده غولوسة الى رومة مخبرا لدولتها بما صنعت قرطاجنة • فأرسلت رومة اليها تهديدها بالحرب ان هي نقضت اليوم ما أبرمته بالامس •

لم تحفل قرطاجنة بهذا التهديد • ولم يترقب مصينيسا ما يكون من رومة • فهجم على الحدود • وخرج اليه صدر بعل بخمسة وعشرين ألفا من المشاة وأربعة آلاف فارس • فاقتتل الفريقان • وبرق لصدر بعل بارق الانتصار أولا • ثم استحر القتال • ولم يتبين غالب من مغلوب • فأراد صدر بعل أن يخاطب — وهو قوي — عدوه في الصلح • فأجابه مصينيسا بطلب رد الاسرى • فامتنع من ذلك • وعاد الفريقان للقتال • فانجلت المعارك عن هزيمة صدر بعل • فطلب الصلح من جديد • وتم على الصفة الآتية :

- 1 — رد الاسرى من غير فداء •
 - 2 — اعادة المنفيين من حزبه لقرطاجنة •
 - 3 — غرامة حرية مقدارها خمسمائة حمل من الفضة في مدة خمسين سنة •
 - 4 — وضع السلاح •
- عاد القرطاجنيون بعد ذلك الى عاصمتهم • وبينما هم سائرون اذ هجم عليهم غولوسة • ففتك بهم فتكا ذريعا • وذلك سنة (150) •

بلغ خبر هذه الحرب الى رومة • فادعت على قرطاجنة انها لم تحترم مواد الصلح الواقع بعد حرب زامة • حيث تمهدت إذ ذاك أن لا تعارب مصينيسا • ووجدت بذلك وجها لفتح حرب عليها • تلك الحرب التي انتهت بتدمير قرطاجنة وذوبان القرطاجنيين في غيرهم •

لزم مصينيسا في هذه الحرب البونيقية الاخيرة الحياد • فلم يمن الرومان • وهو الذي كان يعينهم في حروبهم خلف البحار • ذلك أنه كان يأمل أن يكون هو المالك لقرطاجنة تسميا لبرنامجه في الاستقلال بشمال افريقية • فان لم يحصل ذلك عاجلا فجوار قرطاجنة السلية الضعيفة خير له ولجنسه من جوار الرومان الحريين الاقوياء •

في سنة (149) أحس مصينيسا بدنو أجله • فأرسل الى سبيون الاميلي — الذي سيكون فاتح قرطاجنة — ليوصيه على أولاده • فتوفي قبل وصوله •

كان مصينيسا ملكا عظيما ذا سياسة ودهاء وادارة ونظام وعناية بالفلاحة والتجارة ، صبورا على الشدائد ثابت العزيمة ، خاض غمرات الاهوال ولجج الخطوب بقوة جنان ورباطة جأش ، حتى تغلب على أعدائه وأورث بنيه ملكا ثابتا ونفوذا عريضا • كان لا يفرط في حظه من الملاذ ان ابتسم له الدهر ، ولكن مع يقظة وحذر ، فلا يغفل عن أحوال مملكته خوفا من تدبير ثورة • وكان له أسطول وجنود منظمة وسكة مطبوعة باسمه • وتلك آية الاستقلال • اذ لو كان تحت الرومان لكانت السكة باسمهم •

تعلم الفينيقية أيام كان بقرطاجنة في صباه • فكان ولوعا بها • واتخذها لغته الرسمية ونشرها في مملكته • ومع ذلك لم يكن

أيام ملكه ميالا الى الفينيقيين ولا متساهلا معهم في استقلاله • بل كان يراهم شامة سوداء في أديم مملكته • فلذلك حاربهم وطمع فيما تحت تصرفهم •

وهكذا فليكن حب الجنس • فلا يستبدل الحر بجنسه جنسا تعلم لغته وآدابه • وانما عليه أن ينشر ما راق له من آداب تلك اللغة بين قومه مع المحافظة على جنسيته •

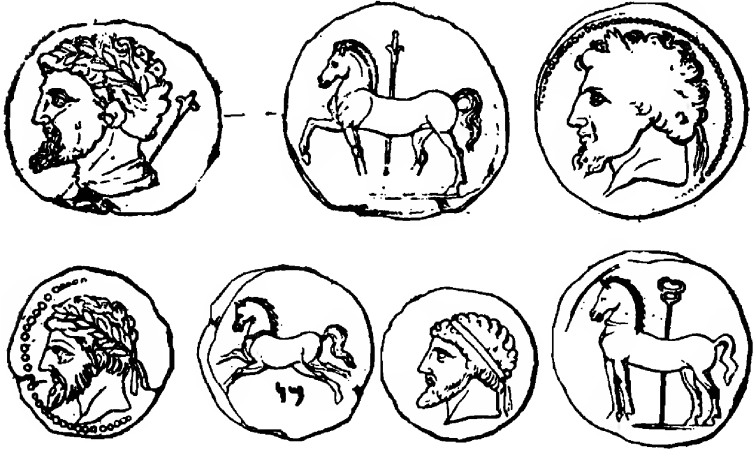
كان هذا الملك حلو الفكاهة رقيق القلب مع الصبيان مر الجدد شديدا على من يمس استقلاله ، متقشفا في نفسه متأثرا في مظاهر ملكه ، فقد اتخذ بدار المملكة الخدم والحشم والخيول ، ليهيئ العامة حتى لا تطمع في خلع طاعته •

وكان قوي البنية : ولد له وهو في سن (86) وتولى رئاسة الجند والحرب وهو في سن (88) ومات بعد ما جاوز المائة • وقيل بلغ من العمر (89) • وعلى رواية انه حارب سيفاقس سنة (212) وعمره آنذاك سبع عشرة سنة فتكون ولادته سنة (228) ويكون عمره (79) فقط •

واختلف في سنة ولايته أيضا : ف قيل سنة (201) وقيل سنة (207) • والظاهر ان صاحب الرواية الثانية اعتمد بما كان من ولايته قبل سقوط سيفاقس • ولكن من المتفق عليه بين صاحبي الروايتين أن مصينيسا لم يرجع من الاندلس إلا سنة (206) • وهي السنة التي جلس فيها على عرش قرطبة حتى شرده سيفاقس •

والخلاصة أن جمهور المؤرخين اتفقوا على مدحه ووصفه بالعظمة واستحقاقه للملك • قال بيروني عن فرنال : « أن مصينيسا لم يعن الرومان إلا بقصد اسقاط قرطاجنة عدوته القريبة • ولو قدر له أن يعيش أكثر مما عاش خمسين سنة لحارب الرومان أيضا مثل ما فعل يوغورطة » •

وبالخراب قبر أحد ملوك نوميديا • ويظنه مؤرخو الافرنج
لهذا العهد أنه قبر مصينيسا • حدثني بذلك مرسي أحد المؤرخين
وأستاذة الكلية بمدينة الجزائر •



(ش - 7)

نقود الملك مصينيسا وعليها رسمه

10 — مصينيسا MICIPSA (119 — 149)

مصينيسا بن مصينيسا جلس على عرش المملكة بعد أبيه • وكان
اعطاه خاتمه ترشيحا منه لخلافته • وأوصاه وبقية ابنائه بمسالة
الرومان لما يعلمه من قوتهم •

ولما وصل سيون الى قرطه ووجد مصينيسا قد توفي انتخب
ثلاثة من ابنائه • فأجلس على كرسي المملكة مصينيسا وعين غولوسة
قائدا عاما للجيش وعين منستابل⁽¹⁾ وزيرا للقضاء • ولم يفعل سيون

(1) سماه اغسال والكعك مصتنا بل

بذلك سوى ما يتفق ورغبة مصينيسا . حيث أنه هو الذي رشح مصينيسا للملك وكان يعطي رئاسة الجند لولده غولوسة منذ كان حيا .

ولما سقطت قرطاجنة في يد الرومان بقي مصينيسا على عرشه لم يضره ذلك السقوط ولم يزعجه جوار الرومان لحدوثه . ثم مات أخواه فاستقل بالملك سنة (145) . واعتاض عنهما بابنيه آذر بعل وهيمصال . وكان لآخيه منستابل ابن تلوح عليه آيات القطانة والشجاعة يدعى يورغوطة . فأضافه الى ولديه ونزله منزلتهما . ووجه مرة سفيرا عنه الى رومة .

كان مصينيسا مسالما للرومان جريا على سياسة والده ووصيته . وكان يعين رومة في حروبها . ففي سنة (133) كانت مشغلة بحرب ضروس . فأعانها بجيش جعله تحت قيادة يوغورطة . يقول بعض المؤرخين : ولعله كان يريد من ارسال يوغورطة الى هذه الحرب هلاكه والاستراحة منه . لانه كان يخشى منه مناهضة ابنائه .

كانت مملكة مصينيسا تشمل ما بين ملوشات⁽¹⁾ غربا والسر⁽²⁾ شرقا . فهي عبارة عن وطن الجزائر اليوم وبعض تراب مراكش غربا . ان قلنا — كما هو الصحيح — ان ملوشات هو ملوية . وتمتد شرقا الى تراب طرابلس لا ينقص منها إلا الولاية الرومانية الضيقة بعمالة تونس .

وقد سار هذا الملك بهذه الدولة الواسعة سيرة محمودة . ودبرها

(1) هو ملوية وقيل المقطع .

(2) السر اسم لخليجين احدهما خليج قابس وثانيهما خليج طرابلس . والثاني هو المراد حسبما تفيد عبارات المؤرخين في غير موضع .

تدييرا رشيدا • فعاش البربر تحت عنايته بسعادتهم عيشا رغدا • لم يرم بهم في الحروب تلذذا بسعة النفوذ • ولا كان يعتني بشخصه ويصل شأن أمته • فيعم الفقر ويقل الامن • ولا كان ظلوما جائرا • فيضطر الناس الى الثورة • بل كان سياسيا حكيما وحاكما عادلا •

كان محافظا على عاصمته قرطه وعاملا لترقيتها وتحسينها • فجلب اليها أهل العلم والفن من الاجانب • وأصبحت على عهده مدينة علم وجمال ورفاهية • قال بارس في كتابه قرطه : « ويذكر المؤرخ ابيان ان مصيبا حصنها تحسينا لا يمكن معه لاحد أن يفتحها عنوة • وجلب لها طائفة من اليونان • وزاد في تحسينها وخصبها حتى صارت يمكنها أن تجند عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل • وبعد وفاته وانتصاب آذر بعل بها حاصرها يوغرطة ولم يتمكن من فتحها إلا بعد أن أضرت المجاعة بأهلها » •

وقد كان مصيبا نفسه مكبا على العلم • فاشتغل بالعلوم اليونانية ، والرومانية حتى برز فيها ، وأصبح عالما مضطلعا بالفلسفة • وما أسعد أمة يحكمها ملك عالم غير متأثر بأمة أساتذته من الاجانب ولا مقدم لها على قومه •

ولما أحس بدنو أجله جمع ابنيه وابن أخيه وأوصاهم بالاتحاد في السلم والتعاون على حفظ المملكة ، حتى لا ينفرد عقد عزهم وتذهب دولتهم ضحية الشقاق •

وفي سنة (119) أدركه حماه بعدما أدار دولته أحسن ادارة ثلاثين سنة • وترك مملكته الواسعة في هناء واطمئنان ذات عمران مستبحر لم تنقصه الثورات الداخلية ولا عطلته الحروب الخارجية •

لما توفي مصيبسا لم يأخذ ابناه وابن اخيه بوصيته • فاختلفوا وتنازعوا أمرهم بينهم • ثم اصطلحوا واقتسموا الاموال وفرقوا وحدة المملكة : أخذ يوغورطة القسم العربي منها من صلداي الى ملوشات • واقتسم الاخوان الباقي بينهما وهو أوسع نطاقا وأوفر عمراناً •

لم يكن هذا الصلح مرضيا للمتنازعين • وانما هو ظاهري وفي الباطن كل ينوي نقضه متى أمكنه النقض • ابنا مصيبسا يريان الحق لهما في ارث عرش ابيهما ، فهما يعدان ما أخذه ابن عمهما ظلما ، ويترصدان به غرة لقتله أو فرصة لحربه كي يسترجعا حقهما المغصوب ؛ ويوغورطة يرى أنهما جارا عليه في القسمة ، فهو لم يقبها ظاهرا إلا بنية اكتساب قوة يستعملها — متى سنحت الفرصة — ضد ابني عمه •

كان هيمصال أقدر من أخيه • فكان يوغورطة يخشى منه ما لا يخشى من آذر بعل • فاستعمل الحيلة للاستراحة منه : لم يكن إلا أمد قليل حتى دس يوغورطة من قتل هيمصال في مدينة ترمدة من مدن ولاية رومة الحديثة • وذلك سنة (118) فلم تطل مدته حتى تتعرف، سيرته في رعيته ، وأعماله في العمران والحضارة وسياسته مع الرومان •

انتصب آذر بعل ملكا بقرطة بعد وفاة والده واقتسام مملكته • وبعد أن قتل يوغورطة أخاه هجم عليه وأخرجه من عاصمته لاول معركة وقعت بينهما •

ذهب إذ ذاك آذر بعل الى الولاية الرومانية بافريقية مستنجدا
بوالها على ابن عمه فلم ينجده . فسار الى رومة . ولما بلغها وجد
بها رسلا من قبل يوغورطة . وجههم بأموال ليستميلوا اليه بعض
عظماء الرومان . أبدى آذر بعل فصاحة نادرة ومنطقا محكما في
الاحتجاج لنفسه واظهار جور ابن عمه وخبثه . ولكن لم تجد عليه
فصاحته عطف الرومان حيث ان ابن عمه اشتراهم بالاصفر الرنان .
ولما ألح على رومة في طلب النظر في قضيته عين شيوخها عشرة من
الخبراء تحت رئاسة لسيوس أبيوس ليفصلوا القضية . وكان هذا
الرئيس يميل الى يوغورطة . نظر الخبراء القضية بمرآة الاغراض
فأنتج بحثهم خلاف ما يريد آذر بعل . وذلك أنهم أعطوه نوميديا
الاصلية ، وأعطوا يوغورطة نوميديا الغربية وذلك سنة (114) .

صار يوغورطة بهذا الفصل أقوى منه قبله . وصار آذر بعل
أضعف من حاله سابقا . وهذا لم يخف على الخبراء ولكنهم تعمدوا
اعزاز جانب يوغورطة الذي سد مجرى الحق بصرة من الدنانير .

لم يكن يوغورطة ليقنع بشيء دون الاستقلال بمملكة عمه .
ولم يكن هناك ما يقف في سبيله : البربر يحبونه ، وان عمه ضعيف
عن مقاومته ، ورومة لا يصعب عليه استمالة رجالها . ففكر في إيجاد
سبيل لبلوغ أمنيته وتحقيق برنامجه . ولم يشأ أن يقدم على حرب
ابن عمه لانه لا يجهل ان رومة لا تسمح له بالاستقلال دون ابن عمه
حيث أن سياستها تقضي عليها بالاكتثار من الملوك البربريين واذكاء
نار المنافسة بينهم .

رأى يوغورطة أن أحسن ما يبلغ به أمنيته التوقي من مشاغبة
رومة عليه بملوك البربر . وكان يجاوره بوكوس الاول ملك
موريطانيا . فسبقها اليه واستماله اليه قبل الدخول في حرب آذر بعل

وتقرب منه بالمصاهرة فتزوج ابنته • وبهذه الوسيلة أمن يوغورطة ناحية بوكوس •

إذ ذاك أخذ يغير على حدود مملكة آذر بلع كي يستفزه لحربه • ويتخذ ذلك سببا لحربه يقطع به معاكسة رومة له • ولكن آذر بلع تحمل تلك الغارات واصطبر لها لعجزه عن مقاومة يوغورطة وخيبته سابقا في الاستنجاد برومة • رأى يوغورطة استكانة ابن عمه فعزم على تنفيذ برنامجه وهجم عليه • واجتاز الحدود بجنود كثيرة • هنالك رأى آذر بلع لزوم الحرب • فتهيا لها بما لديه من الجنود وخرج لملاقاة يوغورطة •

تقابل الجيشان ولم يتبارزا • وكان آذر بلع ينوي محاربة ابن عمه من الغد • ولكن يوغورطة كان أشد حزما وأمضى عزما • فأمر جنوده بالهجوم ليلا • فدارت الحرب بين الفريقين • وبعد قتال شديد انهزم آذر بلع وفر الى قرطة • فلحقه يوغورطة وحاصره بها • وكانت المدينة في غاية الحصانة بموقعها وعناية مصيبيسا بتحصينها • وكان بها صناع وتجار ايطاليون • فتحزبوا لآذر بلع •

بلغ خبر هذه الحرب الى رومة فلم يرق لها صنيع يوغورطة • وأرسلت اليه في رفع الحصار والكف عن محاربة ابن عمه مع ثلاثة من النواب • فقابل يوغورطة هؤلاء النواب مظهرا لهم احترامه لرومة • ولكنه لم يمثل نهيا واستمر محاصرا لقرطة • فأرسلت اليه رومة رسلا آخرين • وتعين الاجتماع بعوتيقة • فذهب اليها • وأوعز لجنوده بتشديد الحصار • ولما اجتمع برسل رومة اكتفى باظهار احترامها أيضا •

دام حصار قرطة عامين وبلغت المجاعة بأهلها مبلغها وعلموا خيبة رسل رومة في المفاوضة مع يوغورطة • فرأى آذر بلع ان يفتح الكلام

مع ابن عمه • ففاوضه في رفع الحصار وأذعن لحكمه واستأمنه على نفسه • فأمنه ودخل المدينة • ولكنه خان العهد • فقتل ابن عمه ومن فيها من شيعته حتى الايطاليين •

وهكذا انتهت حياة هذا الملك الذي يظهر من التجائه الى رومة في كل ما يعرض له من الصعوبات انه وقدته الحضارة • فأصبح لا يريد الا استغلال جهود آبائه • وان وطنا كالوطن البربري جعلته دولة قوية كرومة نصب عينها لاستعمارها لا يصلح أن يكون على رأس حكومته إلا مثل يوغورطة شجاعة حربية ودهاء سياسيا •

23 — يوغورطة JUGURTHA (118 — 104)

يوغورطة بن منستابل ، يقول مرسي : انه لغية • كان فارسا من أشهر فرسان البربر وقائدا من أعظم قوادهم • وقد عرف له عمه مصيبا مقدرة وغناه فقربه اليه وأشركه مع ولديه في شؤون الدولة • ثم عرف جرأته وخشيته على ابنه فوجه ذات مرة قائد جيش بعثه الى رومة اعانة لها في بعض حروبها • ورجا أن يهلك في تلك الحرب ويستريح منه •

خاطر يوغورطة بنفسه في هذه الحرب وأظهر شجاعة نادرة • وعرف كيف ينجو بنفسه من الهلاك مع المحافظة على عظمته • فأعجب به الناس كلهم في هذه الحرب • وأحبه البربر حبا شديدا • ورجع الى وطنه يحمل لقب بطل عظيم • فزاده ذلك تأثيرا على البربر • واكتسب شرفه وصيته من حيث أراد عمه حتفه •

كان هذا البطل العظيم متقمصا روح مصينيسا وعاملا على تحقيق برنامج كان ذلك السلف يعمل له • وهو الاستقلال بالوطن البربري

في حدود مملكة أسلافه وطرد الرومان من افريقية نظير ما كان ينويه مصينيسا من طرد قرطاجنة • فلما توفي عمه لم ير في ابنه أهلية لتحقيق هذا البرنامج • لانهما لم يعرفا رومة كما عرفها • فهما يخشيان سطوتها • ويريدان التمتع بلذة الملك تحت ظلها •

ابتدأ يوغورطة في تحقيق برنامجه الاستقلالي بمنازعة ابني عمه على الملك حتى اقتسموه بينهم • ثم اغتال هيمصال • وتخلص لحرب أذر بعل حتى قتله سنة (112) واستقل إذ ذاك بملك سلفه • وأصبح لا يد فوق يده •

لم تكن مقاصد يوغورطة في الاستقلال بوطنه وطرد النفوذ الروماني منه واضحة للرومان • فانه كان يسترها أحيانا بالخداع السياسي وأخرى باشتراء ذمم رجالهم • فلما دخل قرطة واستأصل منها شيعة ابن عمه من البربر والايطاليين الذين هم في الواقع شيعة رومة اتضحت للرومان مقاصده وأدركوا أنه كان يسوسهم بالختل والمراوغة • فعزموا على المبادرة لحربه وعدم امهاله في هدم آماله •

لما عزمت رومة على حربه أرسل إليها ولده واثنين من خواصه لعرض طاعته • فلم يأذن شيوخها بمقابلة رسله ولا قبلوا طاعته لعلمهم أن ذلك خداع سياسي فقط لا حقيقة له •

كان بوكوس مصافيا لصهره • فلما بلغه ما آل اليه أمره مع رومة خشي أن يكون له على ولائه له حظ من غضبها • فمال عنه وأظهر طاعته للرومان •

أرسلت رومة جنودها تحت قيادة بستيا • فجاء هذا القائد على طريق صقلية • ودخل في الحرب مع يوغورطة • واشتبكت القوات

بجهات باجة • وانتصر بستيا في تلك المعارك انتصارات باهرة • فازداد خوف بوكوس من غضب رومة • وأرسل اليها يؤكد طاعته لها •

كان يوغورطة يعتقد — عن بصيرة — أن رجال رومة خربوا الذمم لا يمتنعون من الرشوة • فكان إذا أعجزته القوة التجأ الى المال • فاستمال بهذا الوجه بستيا لما انتصر عليه • فتساهل معه هذا القائد في الصلح • واتفق معه على أن يأخذ منه أفيالا وخيلا وأنعاما وأموالا • وخرج يوغورطة من ورطة هذه الحرب بسلاح الرشوة • وذلك سنة (111) •

علمت رومة بالصلح فلم ترضه • وأرسلت الى يوغورطة بالحضور ليشرح لدى مجلس شيوخها حقيقة هذا الصلح • ووجهت لسيوس كيوس اليه ليستصحه معه • فذهب يوغورطة الى رومة ولم ينتع عن الحضور أمام مجلس شيوخها بعد ما كان محاربا لجنودها • ولما بلغها وجد حوله دسائس شتى • ولكنه أبرع رجل يحسن العوم في مثل هذه اللجج • فتوصل الى استمالة نائب من نواب الشعب • ولما مثل بين يدي مجلس الشيوخ لم يكتف هذا النائب بالمحاماة عنه • بل أمره باحتقار التهم الموجهة اليه وعدم الاجابة عنها • وذلك لئلا يطالب بالبينة على صحة ما يقول • وهو ما لا يجده بحال •

لم يجد شيوخ رومة من استحضار يوغورطة ادنى فائدة • ولم يضره هو حضوره بل استفاد منه • وذلك أنه كان لعمه غولوسة ابن يدعى مصيفا ذهب الى رومة مطالبا بحقه في الملكة ، ومشاغبا عليه • فدس له من قتله بواسطة بوملكار • ونجا من تبعته أيضا • وسهل لبوملكار طريق الفرار •

بعد ذلك أمر يوغورطة بالخروج من ايطاليا • فقال عند خروجه من رومة كلمته الخالدة : « ان رومة مدينة مباحة لمن يريد

اشترأها» ⁽¹⁾ وزاد بنجاته من بطش رومة بعد ما مثل بين يديها
جرأة وأصبح لا حد لأقدامه •

بقيت صدور الرومان وغرة على يوغورطة • فأرسلوا الى
ألوس — وكان قائدا بافريقية — يأمرونه بالهجوم على يوغورطة ،
وأنهم لم يرتضوا الاتفاق الواقع بينه وبين بستها • امثل هذا القائد
وهجم على يوغورطة • ولكن ذلك الهجوم أعقبه انهزام • فان يوغورطة
هجم بجنوده على ألوس وجيوشه على حين غفلة وقد كان ألوس
نامعا في فتح ستول (قائمة) وأخذ ما فيها من أموال يوغورطة ومؤنه
وذخائره • خاب أمل ألوس وخضع ليوغورطة خضوعا شائنا لشرف
رومة : إذ أجله عشرة أيام للخروج من نوميديا ، وأبقى جنده تحت
الذمة • وذلك سنة (109) • واعتذر لخبية ذلك القائد بأنه كان
ضعيف الرأي والوقت وقت شتاء • وارى ان ضعفه انما هو بالقياس
الى يوغورطة ، والا فكيف تعتمد دولته لقيادة حرب ضد رجل
لا تخفى عليها مهارته الحرية ؟

ساء رومة انكسار قائدها وبقاء جنودها تحت ذمة من كانت
ترجو أن يكون تحت ذمتها • فعين شيوخ دولتها مكان ألوس أخاه
ألبيوس • فلم يجد هذا القائد أيضا نفعا لعجزه أو جهله أو تقصيره •

بعد هذه الخيبات التي كل واحدة منها تربو على ما قبلها جد
جد الدولة • فاختارت من بين رجالها رجلا مخلصا لدولته نزيها عن
الرشوة عارفا بمهته الحربية من أهل الطبقة العليا • هذا الرجل هو
ميتلوس • وكان يوغورطة يعرفه ويعرف منه تلك الصفات • وكانت

(1) المبيعة من اباع الشيء عرضه للبيع . وعلى هذا المعنى حمل قول
الشاعر :

ورضيت آلاء الكميت فمن يبع فرسا فليس جوادنا بمباع

الدولة تريد باختيارها لهذا الرجل أن تغسل عنها عار تلك الانهزامات وتحافظ على شرف عظمتها وتؤيد سمعتها الرهيبة .

نزل ميتلوس عوتيقة . فوجد الجنود قد ساءت حالتهم الاديبة وتمردوا عن الطاعة . فأخذ في تنظيمهم . وأراد يوغورطة — على معرفته به — أن يعجم عوده . فأرسل اليه يلاطفه ويداهنه . فلم تكن بضاعته هذه المرة رائجة لاخلاص ويقظة هذا الروماني . ولم يكن هو يعتقد رواجها فاستعد للحرب .

جمع يوغورطة بكل نشاط جنوده وقسمهم الى فرسان تحت قيادته ومشاة معهم الأفيال تحت قيادة بوملكار . وكان الجيش الروماني على قسمين أيضا : أحدهما برئاسة ميتلوس ، والآخر برئاسة مريوس .

في سنة (108) تقابل الجيشان بشمال تبسة ، بعدما استولى ميتلوس على باجة ، واشتد القتال من الجانبين . وأخيرا دارت الدائرة على يوغورطة . وشعر بعجزه عن مقاومة الرومان بالقوة . فحبر عجزه ذلك بقوة دهائه . وأخذ يتقهقر بانتظام نحو الصحراء والقفر . وعلم البربر ضربا جديدا في القتال لئلا يجبر عليه تقهقره انهزاما عاجلا : أوصاهم بعدم الكف عن اقلاق الرومان بالغارات من دون انقطاع ، وان لا يصطفوا لهم بل يكونون جماعات متفرقة تكرر إذا رأت في العدو غرة وتفر ان رأت الفر خيرا . ومن هذا الحين تعلم البربر حرب الكر والفر . وبهذا الاسلوب الحربي الجديد لم يتمكن لميتلوس أن يتبادى في انتصاراته على يوغورطة .

حبر يوغورطة انهزامه باختراع حرب الكر والفر . وصار يتأخر نحو الصحراء ، كي يبعد عدوه في القفر ثم ينقلب عليه فيشتت شمله . ولكن ميتلوس شعر بذلك . فلم يتبعه . وبقي جيشه بشمال تبسة

مشتبلا بتخريب عمران البربر وافساد فلاحتهم وحصار المدن التي لم تخضع لقوتهم • وقد ثبت أهل زامة في مقاومة الرومان حتى أدرکهم يوغورطة واجلاهم عنهم وفك حصارهم • ولم تثبت المدن التي احتلها الرومان في هذه الحرب تحت نفوذهم بل خرجت من قبضتهم •

ولما رأى ميتلوس ان قوته لا تجديه أمام دهاء يوغورطة ، وان انتصاره عليه لم يجن منه أي فائدة عدل عن الهجوم واختار أن يقابل دهاء يوغورطة بالخداع وان يأخذه بسلاح الخيانة • وكان الشتاء قد حل وحال بينه وبين أعماله التخريبية • فعاد الى الولاية الرومانية • وتفرغ لتدبير مكيدة ليوغورطة • فأرسل الى قائده بوملكار يطمعه في دولة ملكه ان هو أعانه على خديعته • فحدثت بوملكار نفسه بخلافة يوغورطة في عظمته • وانخدع ليتلوس • وطابت نفسه بخيانة ملكه ووطنه • فأخذ يشير على يوغورطة بترك الحرب وطلب المفاوضة في الصلح حتى أثر عليه وتفاوض مع الرومان • وتمت المفاوضة بالاتفاق على مواد الصلح • وأخذوا في تنفيذها • وكان منها تسليم عدد عظيم من الافيال والاموال والاسلحة ، ورد الفارين من الجيش الروماني • ونفذت هذه المواد • ثم صار ميتلوس يلح على يوغورطة في زيارة مركزه • وإذ ذاك شعر بالملكيدة وانضحت له خيانة بوملكار • فمثل به وقتله • وهكذا فليكن سلم الخيانة : لا يبعد صاحبه فيه المرتقى حتى يسقط على أم رأسه من غير أن يفوز بأمنيته •

ولما خاب ميتلوس في هذه السياسة ولم يقع بشركه قنصه عاد الى الحرب • واستأنف أعمال التخريب والتدمير • فذهب الى باجة وافتتحها من جديد ومثل بأهلها •

وفي سنة (107) هجم ميتلوس على نوميديا وفر أمامه يوغورطة الى قرطبة • فلاحقه وافتتحها • ففر يوغورطة الى الجنوب • ثم عاد

بأهله وأمواله الى تالة • فتحصن بها • فذهب اليه ميتلوس وأخرجه منها • فلحق بالجيئولين وتحصن بهم • وأخذ في تنظيمهم • وأرسل الى صهره بوكوس — وكان ميالا للرومان — يستميله اليه • فقتل له في الذروة والغارب • وخوفه استيلاء الرومان على مملكته ان هم جاوروه بنوميديا • فجلبه اليه • وجعلا موعدا للملاقاة • فالتقيا واتفقا على حرب الرومان • فقصدا بجنودهما قرطة • وبلغ الخبر ميتلوس • فخرج منها • ونزل مركزا يليق للدفاع عنها وعن سائر نوميديا •

وفي هذا الحين بلغ ميتلوس ان مريوس رفعته الامة الى رتبة قنصل بافريقية • وأعطي رجالا وأموالا ليتهم حرب يوغورطة • فترك الجنود على حالها • وذهب الى رومة • ولم نزل أثناء سنة (107) • جاء مريوس بطائفة من العساكر • ونزل عوتيقة • وانضافت جنوده الى الجنود التي بافريقية من قبل • فبلغ جيشه نحو خمسين ألفا • وباشر الحرب حيناً •

لم يخرج ميتلوس من افريقية حتى أفسد بوكوس على يوغورطة فصار غير واثق بنصرته • فلما برز له مريوس لم يصطف له • بل استمر على حرب الكر والفر : يهجم بفرسان جيتوليا على الرومان حتى يصل الى مراكزهم ، ثم يعود الى أماكن بعيدة قبل أن يستعدوا لمقاومته • وفي هذا الوقت كان خط الصحراء جميعه تحت طاعته • ووضع أمواله وذخائره بقفصة • فعلم بها مريوس • فذهب اليها ودخلها وأخذ تلك الاموال والذخائر وأحرق المدينة •

كان غرض مريوس أن يلجئ يوغورطة الى الناحية الغربية لتكون قرطة تحت يده ويتخذها مركزا عاما للجيش • فلما احتل قفصة نال غرضه • وانتقل يوغورطة الى الناحية الغربية • فصار مريوس اثره

وحاربه بالزاب والحضنة وجبالهما شمالا وغربا . حتى أنه استولى على مدينة حصينة فوق جبل عال . وهي من قلاع البربر التي يحسنون وضعها على الكهوف الصعبة المرتقى . وكان بهذه المدينة بقية أموال يوغورطة . كل هذا وبوكوس على الحياء .

لما انتقلت الحرب الى الناحية الغربية أعاد يوغورطة خطابه لبوكوس في التعاون ضد الرومان . ووعد على نصرته ثلث نوميديا . فلباه والتقىا . واجتمع باتحادهما عدد عديد من الجنود بارزا بها جنود مريوس . واشتد القتال يوما كاملا . وأحاط البربر ليلا بالرومان . وأوقدوا النيران يغنون عليها ويرقصون واثقين بانتصارهم على عدوهم . وفي الغد أخذهم تعب السهر . فهجم عليهم الرومان في هذه الحال . وفتكوا بهم فتكا ذريعا . ومن نجا من الموت ركب متن الفرار .

ذهب مريوس الى قرطة بعد هذا الانتصار . فاعترضه البربر في الطريق . وهم من جنود يوغورطة وبوكوس . وانقسموا أربعة أقسام . ودامت المعركة بشدة ثلاثة أيام . وكانت غرب سطيف . وجاء صيلة لددا لمريوس . وأسفرت هذه الواقعة عن انتصار مريوس . فأتهم سيره حتى دخل قرطة . كل هذا ولم تنم سنة (107) .

لم ير بوكوس انتصارا يشجعه وهو من رجال الاستغلال . من أبطال الاستقلال . فأرسل رسله الى مريوس في طلب الصلح . ولما بلغوا قرطة وجههم مريوس الى رومة ليقدموا مطلب أميرهم الى مجلس الشيوخ . ووجه صيلة رسولا الى بوكوس . وبعد مسير صيلة خمسة أيام التقى في الطريق بفولوكس بن بوكوس الذي وجهه والده لملاقاة رسول مريوس .

لما وصل صيلة الى بوكوس وجد عنده رسولا من قبل يوغورطة . فأوجس في نفسه خيفة . ولكنه فاز بدائه وجبن بوكوس على

رسول يوغورطة • واتفق هذا الرسول الروماني وذلك الملك البربري على خديعة يوغورطة • وتجدد بذلك دور ميتلوس وبوملكار • وإذا كان يوغورطة قد نجا إذ ذاك فقد قدر عليه أن لا ينجو هذه المرة • ولا ينفع حذر من قدر •

ابتدأ دور الخداع بمراسلة يوغورطة بطلب الاجتماع للمفاوضة في الصلح • فلم ينس دور ميتلوس وبوملكار • وأراد أن يتوثق لنفسه • فأرسل الى بوكوس يجيبه الى المفاوضة بشرط تسليم صيلة له بصفة ضمان • فتردد بوكوس أياما بين أن يسلم صيلة ليوغورطة أو يوغورطة لصيلة • وأخيرا اختار — وبشما اختار — أن يسلم ابن جنسه وبعل ابنته للرومان ترضية لهم • فاقتطع ليوغورطة عهدا على الامان • فانخدع له • وما كان لينخدع لمن هو أدهى منه لولا المصاهرة والجنسية •

اتفق الاثنان على الاجتماع بصيلة بشرط أن يكون الجميع مجردين من السلاح • ودس صيلة عساكر مسلحة • ولما اجتمعوا انهالت تلك العساكر على يوغورطة وأوثقوه ! ثم ذهبوا به الى مريوس • وذلك سنة (106) •

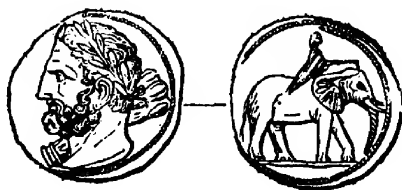
وفي أول سنة (104) ذهب مريوس الى رومة في أبهة النصر وأمامه يوغورطة بلباسه الملوكي موثقا بالاغلال • فأودع السجن الى أن مات به من شدة الجوع وكلب البرد ! •

وهكذا ختمت حياة بطل الحرب وداهية السياسة ورجل الاستقلال • شغل رومة مدة نحو سبع سنوات بحروب تعبت فيها تعباً شديدا • ولم تر منذ نزلت بأفريقية حروبا تضاهي حروب يوغورطة التي اشتهرت في عالم التاريخ القديم حتى خست بالتأليف • ولم تجصل من خوضها لغمرات هذه الحروب على طائل سوى أخذ شخص يوغورطة بالخديعة والخيانة •

وكما شغل هو رومة شغلته هي أيضا عن ترقية وطنه • فان ذلك
الذكاء النادر لو وجد في عصره هناء مصيبا لأربى عليه في رفع مستوى
دولته من حيث العمران والحضارة ولحصن استقلالها بأكثر مما حصن
به سلفه قرطه •

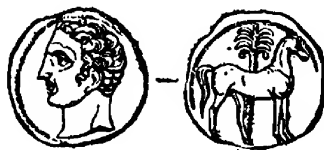
ليس في انتصار رومة على يوغورطة أدنى شرف لها أو ضعة
نه • بل ما لها فيه إلا العار والشفار ، وما له منه إلا المجد والفخر •
وقد جلب بوكوس بمصافاته للرومان تكدير حياة البربر
بالقضاء على زعيم استقلالهم وتشجيع الرومان على امتلاك وطنهم •
ومن نظر خاتمة يوغورطة مع صهره وجده أحق الناس بقول
الشاعر العربي :

واخوان حسبتهم دروعا فكانوها ، ولكن للاعادي
وخلتهم سهاما صائبات فكانوها ، ولكن في فؤادي



(ش - 8)

نقود الملك يوغورطة • وعليها صورة بطل



(ش - 9)

نقود الملك يوغورطة • وعليها رسمه

غودا هو ابن مستابعل • وأخو يورغوطة • تولى الملك بعد اعتقال أخيه • وذلك أن رومة لم تجسر — بعد القاء القبض على يوغورطة — على ابتلاع مملكته خيفة العجز عن الهضم وسوء المغبة • فأرجأت تملكها الى حين • وأخذت تمهد لذلك بتفرقة البربر على الأمراء • واضعافهم بالفتن الداخلية التي تكثر بكثرة الأمراء •

وقد نجحت في هذه السياسة • فأصبح أمراء البربر مشاركين برومة فيما يقع بها من الفتن الداخلية ، ومنقسمين على زعمائها : كل يؤيد زعيما برجاله وأمواله • فما من هول يقع برومة إلا وكان صداه بالوطن البربري حتى أن الزعيم الروماني الذي يكتب له الفوز هو الذي يكون له النجاح بأفريقية الشمالية •

اقتضت تلك السياسة أن لا تملك رومة مملكة يوغورطة ولا تدعها تحت أمير واحد • فقسمتها بين غودا وبوكوس صهره • وكانت نوميديا الاصلية نصيب غودا • وهي تنتهي غربا بصلداي • ولكنه لم يتمتع بها كثيرا إذ توفي بعد ذلك بقليل واقتسم ابناؤه مملكته •

جلس غودا على عرش نوميديا وهو شيخ كبير السن ولم تطل مدته ولا كان له في عنفوان شبابه عمل يشتهر به • ناهيك أنه لم يكن له ذكر في حروب أخيه • وهذا ما تركنا نجعل غودا ولا نعلم شيئا عن أعماله • بل ان عصره كان فاتحة عصر مظلم • قال مرسيني : « وهذا العصر كله مظلم أمام المؤرخ لفقدان الوثائق التاريخية عنه » وغاية ما علم عن غودا أنه كان رجلا ضعيف الرأي مسالما للرومان خادما لمطامعهم • ومثل هذا هو الذي تقدمه رومة للملك اضعافا للاحرار واخفافا لصوت الوطنية •

بوكوس الاول كان ملكا على موريطانيا الغربية (مراكش) حوالي سنة (116) ومسالما للرومان . ولما كان يوغورطة يعلم منه ذلك ويعلم من نفسه عداوته لهم أراد أن يجلبه اليه قبل الشروع في تنفيذ برنامج عداوته . وقد نجح في ذلك فحارب به الرومان بعد ما حذره اياهم ونفخ فيه نسما من روحه . ولكن « ليس التكحل في العينين كاللحل » فعاد أخيرا الى نصرة الرومان وأعانهم على القاء القبض على يوغورطة بالخدعة والخيانة . ولولاه ما أمكن الرومان أن ينالوا شيئا من يوغورطة . وقد ترك بفعلته تلك في تاريخه نقطة سوداء بل بحيرة حمئة . ويصعب علي الاعتقاد بانه شارك الرومان في بشاعة هذه الخيانة . ويظهر لي أنه كان قليل التدبير فانطلت عليه حيل صيلة واغتر به فغر غيره . وحينما شاهد الخيانة اغضى عنها ضعفا وجبنا .

وعلى كل حال فان رومة منحته — جزاء ذلك — جزاء كبيرا من مملكة يوغورطة ، وهو ما بين صلداي وملوشات ، اضافة الى مملكته القديمة . وأطلق على هذه الولاية الجديدة اسم « نوميديا الغربية » لانها كانت تحت ملك نوميديا . وعرفت نوميديا القديمة باسم « نوميديا الاصلية » .

وبهذه الولاية صح ان نعد بوكوس⁽¹⁾ بين ملوك الوطن الجزائري . وباضافتها الى مملكته القديمة أصبح ذا مملكة واسعة تشمل ما بين صلداي شرقا . والمحيط الاطلنتيقي غربا . ورغما من

(1) ذكر صاحب الرحلة الناصرية انه لما نزل بمسوار الريان تلقته قبائل عدد منها بوكيس (1 : 27) فيستفاد منه ان بوكيس من الاعلام البربرية التي لم تزل حتى العهد الاخير

هذا الانساع كله لم تكن له عزة نفس ونخوة ملك ، فيترفع عن خدمة الرومان الذين لا يزيد جبنه معهم وخدمته لهم إلا طمعا في الوطن البربري وخيراته •

بعد أن فعل فعلته الاولى عززها بثانية • وذلك أنه حدث برومة شقاق بين مريوس وصيلة ففر الاول الى يرباص الذي أعانه على منافسه • فأرسل صيلة قائده بمبيوس⁽¹⁾ الى افريقية بجسود كثيرة • وأعانه بوكوس بفيلق عظيم من فرسان موريطانيا تحت رئاسة غودا (قيل هو ابن بوغيد بن بوكوس وقيل حفيد بوغيد) وكان يرباص قد فر من بمبيوس • فاعترضه غودا وشتت جموعه • وأخيرا قتله •

وهكذا لم نر لبوكوس إلا اعانة للرومان على أبطال البربر الذين يأنفون من استعباد الاجنبي لهم ولقومهم • وبعد أن ملأ صحائف حياته بمثل هذه الاعمال توفي في حدود سنة (80) وترك ولدين اقتسما مملكته •

16 — يرباص (102 — 81)

اختلف في اسم هذا الملك : فمنهم من سماه يرباص ، ومنهم من سماه هرتاص • وهو من أسرة يوغورطة • قال مرسيني : « والظاهر انه ابن غودا أخي يوغورطة » •

اتتصب بعد وفاة غودا على نوميديا الوسطى • وكان — كبقية

(1) في ابن خلدون فمقيوس • وهو تصحيف مطبعي صوابه فمقيوس على قاعدة تعريب حرف p بحرف (ف) • والمعمول به اليوم تعريبه باء •

أمراء البربر — تحت سيادة رومة : يذهب إليها ، ويرسل أبناءهم ليتعلموا بها . وتخلق بالاخلاق الرومانية . وصار يتكلم باللغة اللطينية . ويحافظ على الفنون الرومانية . ويشيد بالمدن البناات الأنيقة . ويعتني بالفلاحة .

ومع كونه تحت سيادة رومة وآخذا من أخلاق أهلها وحضارتهم كانت غايته تهيئة الأمة البربرية للاستقلال التام وطرده النفوذ الروماني من وطنها .

وفي مدته نازع صيلة مريوس على رئاسة رومة . فرأى مريوس أنه عاجز عن مقاومة خصمه ، وأراد أن يستعين بأمراء البربر . فوجه ولده الى هيمصال الثاني من ملوكهم يعرض عليه حمايته واعانتة فلم يقبله ، لانه رأى نجاح صيلة برومة . فخشي عاقبة قبوله . إذ ذاك عاد الولد الى والده مريوس ، وأشار عليه بالفرار . ففر الى الولاية الرومانية بافريقية . ولكن واليها طرده . فبقي هائما بحدود نوميديا . ثم تمكن من الفرار الى قرقنة . وأخيرا أجاره يرباص . وقضى عنده شتاء سنة (88) .

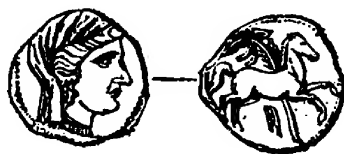
كانت حماية يرباص لمريوس بعد اعراض هيمصال عنها سببا في انتشار حرب بينهما انتصر فيها يرباص وطرده هيمصال من مملكته واستولى عليها . وبذلك أصبح مريوس منتصرا بافريقية ومنهزما برومة . وكانت أتباع صيلة تأوي الى عوثيقة . فأرسل ستة فيالق بقيادة بمبيوس لحرب مريوس . وتقابل الجيشان فانهز مريوس ، وفر يرباص بطائفة من جنوده . وكان بوكوس قد وجه كتيبة من الخيل تحت رئاسة غودا نصره لبمبيوس . فالتقى غودا برباص في الطريق وشتت جنوده . ففر الى عاصمته بولريجيا⁽¹⁾ وهجم بمبيوس

(1) هي حمام الدراجي جنوب طبرقة .

على نوميديا فحال دون انجاد أهلها للملكهم يرباص . فاضطر الى التسليم لغودا فقتله ! وذلك سنة (81) .

قد تدرك نباهة يرباص وحذقه واخلاصه لامته من حمايته لميوس . ذلك أنه لم يكن يخفى عليه ضعف هذا الرجل برومة وتشرده بافريقية . فكان تحزبه له لضرب من السياسة في صالح قومه : يريد أن يشاغب به على رومة ، وإن أتيح له الفوز وجد غرضه معه أكثر مما يجده مع صيلة . فإن الضعيف يرى الانتصار له مزية واحسانا ، والقوي يحسبه تملقا وهوانا . وإذ لم ينجح يرباص في سياسته فعندي انه يكفيه ان مات ميتة شريفة بانتصاره لحزب ضعيف من حزبي أعداء قومه ووطنه .

وبموته انقضت الفتن الداخلية بين أمراء البربر . ومدتها سبع سنوات .



(ش - 14)
نقود الملك يرباص وعليها رسمه

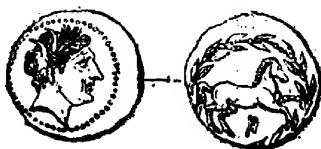
17 — هييمصال الثاني (103 — 50)

هييمصال الثاني هو ابن غودا، وأخو يرباص علي الظاهر . انتصب ملكا بشرقي نوميديا بعد وفاة أبيه . ولعله كان يرى له الحق في الاستقلال بمملكة والده دون يرباص ، ويترصده الفرص لضم مملكة أخيه الى ما تحت يده .

فلما تنازع مريوس وصيلة انتصر للثاني لعلمه بقوته ورد طلب
الاول وجلس الاول وجلس ولده فلم ينج الا بتدبير احدى جواريه •
ولم له كان يرجو من تحزبه لصيلة ان يعينه على أخيه • فلما انتصر
يرباص لمريوس رأى ان الوقت قد حان للاستقلال بنوميديا • فاشهر
عليه حربا انجلت عن هزيمته • وأصبح صفر الكفين من الملك ، وأشبهه
في التدبير حنيئاً صاحب الخفين •

ولما قتل يرباص وسقط حزب مريوس من رومة وافريقية معا
اعادت رومة لهيمصال ملكه مضافاً اليه مملكة يرباص • ثم حدث
بينه وبين ماصنته (من امراء البربر) خلاف انهياه الى مجلس الشيوخ
برومة • وكان له ولد يدعى يوبا فوجهه اليها نائبا عنه • ففاز على
خصمه ومتمن الروابط بينه وبين بمبيوس •

وقد تقدم انه بموت يرباص انتهت الحروب بين امراء البربر فبقي
هيمصال بمملكته هادئاً مطمئناً مستعينا بانه يوبا منشطاً للفلاحة
ناشراً للحضارة الرومانية محافظاً على فنونها حتى توفي سنة (50) •



(ش - 15)
نقود الملك هيمصال وعليها رسمه

18 — ماصنته

هو أحد ملوك البربر • كان معاصراً ليرباص وهيمصال ، وعاش
بعد يرباص • قال مرسيبي ناقلاً عن المؤرخ بول (Poulle) : « ان مع

هذين الملكين (يرباص وهيمصال) ثالثا يدعى ماصنته • كان على ناحية سطيف • وكانوا كلهم تحت نظر رومة • وكانت غايتهم جميعا تهية الامة لحكم نفسها بنفسها • وكان الجيتوليون مستقلين تحت سادات من عظمائهم » •

وعليه فان حكومة هؤلاء الثلاثة لم تتناول جهة الصحراء • فالجيتوليون الذين كانوا خضعوا ليوغورطة ، وحاربوا معه الرومان لم يخضعوا لهؤلاء الملوك الذين خلفوا يوغورطة • وسر ذلك - فيما أرى - انهم لم يزالوا ممتنعين عن التداخل الروماني • فخضعوا ليوغورطة لما رأوه عدوا للرومان ، وابتعدوا عن خلفه لما رأوا بهم سمة الانقياد لهم •

كان ماصنتة مجاورا ليرباص ولم يبلغنا شيء عن علاقتهما أكانت حسنة ام غير حسنة • وقد تقدم ان هذا الدور من التاريخ يعلوه قتام الخفاء • ومع ذلك يمكننا ان نحكم بأنهما كانا متسايمين • وذلك يدل على ضعف نفوذ رومة لديهما • لأن أثر نفوذها يظهر في التفرقة بين الملوك واشغالهم بالفتن • ويؤيد حكمنا ذلك ان التاريخ قد أعلمنا بما كان بين يرباص وهيمصال من الحروب ، وأعلمنا ايضا بما وقع بين هيمصال وماصنتة •

وذلك انهما لما تجاورا بعد قتل يرباص وقع بينهما خلاف • فترافعا الى مجلس الشيوخ • وذهب يوبا نائباً عن ابيه • وكان يوليوس قيصر مدافعا عن ماصنته • واشتد في دفاعه وتحمس حتى قبض يوبا من نحيته • وغضب يوبا من ذلك واسرها في نفسه • هذا ما امكننا الوقوف عليه من حديث هذا الملك •

ولم نثر على تاريخ ولايته ولا وفاته • وغاية العلم انه كان ملكا

فيما بين سنتي (88 و 81) ومحقق انه عاش بعد يرباص • وتولى
للملك قبل سنة (88) •

19 — بوكوس الثاني (80 — 40)

كان بوكوس الاول ملكا على موريطانيا الغربية • وبعد يوغورصة
اضيفت اليه موريطانيا الشرقية • وقد تسمى نوميديا الغربية • وكان
له ولدان احدهما بوكوس الثاني هذا والآخر بوغيد الاول الآتي ذكره
ولما توفي سنة (80) اقسم الابن مملكته • فأخذ بوكوس الثاني
موريطانيا الشرقية • وهي ما بين صلداي وملوشات • ذلك الوطن
الذي اخذه ابوه بالخيانة او الجبن والبلالة •

اتخذ بوكوس الثاني عاصمة مملكته هاته يول (شرشال) • وكان
— كبقية ملوك عصره — غير بعيد عن المعارك التي تقع برومة بين
الزعماء • اذ قد وجد اوليك الزعماء في الوطن البربري ما يساعد كل
واحد منهم • لان مرض المنافسة الذي كان يفتك بزعماء رومة
كان يجري بدماء عظماء البربر أيضا • فكل حزب برومة يجد له
عاضدا بافريقية •

افضت الزعامة برومة الى بمبيوس محارب يرباص • ونافسه
يوليوس قيصر • وافضت المنافسة الى المحاربة • فانتصر قيصر برومة
والاندلس •

وكان بالوطن الجزائري ثلاثة ملوك : يوبا بن هيمصال ومصانيس
وبوكوس الثاني • وكان مصانيس متحدا مع يوبا • ويوبا هذا
يغض قيصر منذ حامى عن خصم ابيه برومة وقبضه من لحيته •
فتحزب لبمبيوس • وهذا سبب نجاح البمين اولا في وطن البربر •
فلما رأى قيصر ان ينقل الحرب الى افريقية وعلم ان البربر بها ضده

كاتب بوكوس واخاه يدعوهما لنصرته بالهجوم على مملكة يوبا .
وقيصر هذا ابن اخي زوجة مريوس الذي كان بوكوس الاول اعانه
على يوغورطة . فكانت هذه القرابة داعية لتلبية بوكوس الثاني لطلب
قيصر . يضاف اليها داغي المنافسة بين ملوك البربر .

وسنرى فيما يلي تفصيل هجوم بوكوس على مملكة يوبا وانتصار
قيصر وانتحار يوبا .

ولما نجح قيصر بعد معركة طبسوس سنة (46) جازى بوكوس
الثاني على اعائه له بان اضاف له موريطانيا السطيفية .

ومن غير شك ان هذا الملك كانت له دولة راقية . فقد كانت
أوسمة له يمنحها لاهل الاعمال الكبيرة في دولته . يدل على ذلك ان
الباحثين عن الآثار عثروا على وسام به صورة بوكوس الثاني راكبا
فرسه ، وهو مجد في عدوه ، ويمينه قضيب يسير به فرسه كيف شاء ،
وبشماله آلة الرمي ⁽¹⁾ .

مملكة بوكوس هذا كلها مشتراة من ملوك النوميديين بخيانة
ابطال الاستقلال البربري . وكما أن أباه رزاً البربر يوغورطة رزأهم
هو — ومن يشابه أبه فما ظلم — يوبا .

20 — يوبا الاول JUBA I (50 — 46)

يوبا الاول هو ابن هيمصال الثاني . اعتنى به والده . فارسله
الى رومة حيث تعرف الى الحضارة الرومانية في منبعها . وكان له

(1) هذه الهيئة في ركوب الخيل معروفة لفرسان نوميديا . فاما
ان يكون الموريطانيون اخذوها عنهم لما بينهم من الجوار ، واما ان يكون
الجميع سواء في هذه الهيئة وانما اختص النوميديون بالشهرة فقط .

شغف بالحروب • فحفظ لذلك من السقوط في مضار الحضارة ،
وعاش حربيا شجاعا •

كان هذا الملك ينطوي على مثل ما انطوى عليه سلفه مصينيسا
ويوغورطة من الاستقلال بالوطن البربري وطرده النفوذ الروماني منه •
فاستعد لتحقيق أمنيته بتنظيم الجيوش وتدريبها • وكان بهذا الوطن
شذاذ من امم مختلفة يؤجرون انفسهم في الحروب ، ورجال من
الرومان تقتهم الاحزاب المضادة لهم المتغلبة على أحزابهم • فاتخذ
منهم يوبا جيشا منظما يكون مثالا للبربر في النظام العسكري •

لم يلبث هذا الملك - بعد تبوأ عرش مملكته - الا قليلا ودخل
في حروب طاحنة ختمت بانتحاره • وذلك ان بمبيوس صديق والده
كان رئيس الجنود الرومانية التي لنظر مجلس الشيوخ ، وظهر
يوليوس قيصر في مظهر السيد المستبد ، وحاول ان يسقط الجمهورية
الرومانية ، فشبت الحرب بينه وبين بمبيوس • وقد عرفت ان كل
اضطراب يقع برومة يكون صداه بأفريقية •

تغلب قيصر على بمبيوس وانتزع منه ايطاليا • ففر فاروس (احد
ضباط بمبيوس) الى افريقية ومعه جنوده • واعلن التشيع لبمبيوس
واخذ في اصطناع يوبا • فلم ينس هذا الملك صداقة بمبيوس لوالده
ولا عداوة قيصر له ولا اضاع عليه فرصة انشقاق الرومان لتنفيذ
برنامج الاستقلالي • ففعل فعل عمه يرباص وانتصر للحزب المغلوب
بايطاليا •

وفي سنة (49) وجه قيصر الى افريقية من ضباكه كريون • وكان
عدوا شخصيا ليوبا • واقترح على مجلس الشيوخ ان ينتزعوا من يوبا
مملكته التي ورثها من ابيه • واعلنت شيعته برومة ان يوبا عدو
لجميع الرومان •

نزل كريون بالولاية الرومانية • ودارت بينه وبين فاروس مناوشات الجأت فاروس الى الفرار الى عوتيقه (بوشاطر) فحاصره كريون بها • وساءت حالة البمبيين • فجاء يوبا بجنود كثيرة نجدة لهم وعملا لفائدة الاستقلال البربري • ففك الحصار عن عوتيقه • وفر كريون الى احد المعاقل وتحصن به • ثم اشيع — لاجراج كريون من حصنه — انه ثارت ثورة بمملكة يوبا وانه ذاهب لاجمادها • وترويجا لهذه الاشاعة تأخر يوبا بجنوده وافياله • ولم يترك منهم الا قليلا تحت قيادة قائده صبورة • فتقدم هذا القائد بجنوده القليلة الى حصن كريون • فتسلل كريون من حصنه ببعض جنده • وكان عنده أسرى نويميدون • فaidوا له خبر ذهاب يوبا الى مملكته • والتقى بنواحي مجردة بطلائع الجيش النوميدي • فهجم عليهم من غير احتراز بناء على اعتقاده ذهاب يوبا • وتأخر النوميديون امامه تأخرا نظاميا : يناوشونه الحرب ثم يهزمون • وما زالوا معه كذلك حتى قربوا مكانا كمن به يوبا • وادرك كريون ومن معه التعب من جراء فعل النوميديين ذلك • فما هالهم الا احاطة جنود يوبا الكثيرة بهم من كل ناحية • وكان بجنود يوبا الفا فارس من الاسبان والغالين • فلم يجد كريون — والحالة تلك — غير الاصطلاء بنار يوبا • فاشتد القتال • وانتهى باستئصال جنده واخذ رأسه الى يوبا • وذلك في العشرين من يونيه سنة (49) •

تعزز يوبا بهذا الانتصار ورأى انه قد اتيح له ان يعلن بسيادة البربر الوطنيين على الرومان الغرباء • فعاد الى عوتيقه عاصمة الولاية الرومانية • واظهر عظمته على الرومان حتى البمبيين انفسهم • وصار كثيرا ما يقدم نفسه للسيادة عليهم وعلى جنودهم ، ويتخذ الجميع كآلة بيده • ويحتج لسيادته بانه هو الذي قتل كريون وجنوده ،

ولولاه لذهب أثر البمين من افريقية كما ذهب من ايطاليا • وزاد في قوة حجته وتأييد سيادته انه غني جدا وصاحب الكلمة النافذة في وطنه •

وقد بلغ من استعلائه على البمين ان سبيون رئيسهم جاءه يوما لابساً حلة حمراء مطرزة بالذهب — وهذه الجبة من شعار الملوك اذ ذاك — ليظهر ليوبا عظمتهم • فأنف منه ، وأمره بانتزاعها ولبس البياض فلم يسع سبيون الا الامتثال •

كان بمبيوس لما انهزم بايطاليا ذهب الى مصر • ولما بلغ الاسكندرية دس اليه بوثنان⁽¹⁾ من قتله • ولكن شيعته لم يحل من عزمها موته حيث وجدت في يوبا أقوى عضد لها بافريقية • وتلاحق اليها من عظماء هذا الحزب ميتلوس • سبيون — وهو صهر بمبيوس غير سبيون الافريقي وسبيون الاميلي — فبلغها سنة (48) ثم قاطون سنة (47) •

ولما دخل قاطون عوتيقه وجد سبيون وفاروس مختلفين على رئاسة الجند ، كل يريد لها لنفسه • ووجد يوبا مستعليا عليهما وجالسا بينهما كما هي عادة الملوك • فلم تسمح له نفسه بمشاهدة هذا المنظر المزري بجنسه • فرفع الكرسي ووضعها الى جانب سبيون بحيث يكون وسطا ويبقى يوبا طرفا • واراد بهذا الفعل إشعار يوبا بان السيادة للرومان • ثم وحد بين سبيون وفاروس •

بعد ذلك تفرغ البمينون لتنظيم شؤونهم • ولم يتأخر يوبا عن اعانتهم • تفاوضوا اولا فيمن يخلف بمبيوس لرئاسة حزبهم وتدير حربهم • واتفقت كلمتهم على تقديم سبيون لهذا المنصب فتهايا للحرب • وجمع اربعين الف جندي وخيلا كثيرة اركبهم العبيد والموالي •

(1) بوثنان رجل قائم بشؤون بطليموس الثاني عشر واخته كليوباتر •

وامدهم يوبا باربع فرق منظمة تنظيميا رومانيا • فيها اثنا عشر الفجندي وخيل كثيرة • وامدهم أيضا برجال كثيرين من البوادي غير المنظمين و (120) فيلا • وتولى سبيون ثقافات جميع جنود يوبا ودفع مرتباتهم •

يوبا — وان اعان البمبيين — لم يكن مخلصا لهم • فأخذ يشير على سبيون بما ييغض الرومان الى البربر لئلا يكون لاجنبي نفوذ بوطنه على قومه • فأشار عليه بجبر سكان الولاية الرومانية على تسليم حبوبهم لتموين الجند وجبر التجار منهم على تقديم الاموال • فنفذ اشارته بصرامة حتى انه خرب لذلك مدنا كثيرة • ثم اشار عليه بتتبع المتشيعين لقيصر حتى المتهمين بالتشيع : باستئصالهم وقتل ذريتهم ونسائهم • وكان جل من بعوثيه قيصرين • ولكن سبيون تظن هذه المرة للدسيسة • فدافع يوبا بان هذا عمل يغضب الرب • ولو استرسل سبيون في غفلته وعمله باشارات يوبا لثارت عليه العاصمة (عوثيه) ، واشتغل الرومان بعضهم ببعض ، وتفانوا • فتبقى الولاية الرومانية ليوبا غنية باردة • وذلك ما كان يأمله لتحقيق غايته الاستقلالية •

بلغ الخبر الى رومة بقوة سبيون ويوبا • فدخل الرعب قلوب القيصرين • ولكن قيصر رأى ان يتم انتصاراته بنقل الحرب الى افريقية •

واذ قد ارتأى هذا الرأي فهو مضطر للاستنصار بملوك البربر • وقد علم ان يوبا مصانيس ضدّه • فكاتب بوكوس الثاني وبوغيد الاول ليشغلا له يوبا • ووعدهما اقتسام مملكته • فكانا له على يوبا •

في منتصف اكتوبر سنة (47) توجه قيصر الى افريقية على طريق صقلية • ونزل بنواحي قليية من عمالة تونس • وعند نزوله عثر فسقط على الارض فقبضها ونادى — خشية الطيرة التي تضعف من

عزائم جنده - : « افريقية ! قد قبضتك » • ونزل معه من الجنود نحو (3000) مشاة و (150) فارس • وتأخر بقية الجند في البحر •

لما نزل قيصر جد سبيون في تجنيد بربر الولاية الرومانية • فوجد قلوبهم منحرفة عنه لعسفه وجوره وتعديه على اموالهم • ورومان هذه الولاية متشيعون لقيصر لان عمته كانت تحت مريوس غائب يوغورطة • فلم تبق لسبيون ثقة في أهل الولاية الرومانية من بربر ورومان •

هنالك اضطر لمفاوضة يوبا على الوجه الذي يهواه • فطلب منه النجدة على ان يترك له افريقية متى انتصر ويعود بالرومان الى ايطاليا • فلم يشك يوبا في انه قد اشرف على تحقيق غايته • فاعانه بفرسان نوميديا الذين لهم شهرة من ايام حنبعل ، وبالاقيال الكثيرة • وكانت جنود يوبا هي عمدة سبيون •

في نوفمبر هذه السنة وقعت المعركة الاولى بين قيصر وضباط سبيون • وأحيط بقيصر فكاد يؤسر • ولكنه نجا بدهائه وسار نحو مركزه • فلحقته طائفة من فرسان نوميديا جاءت بعد المعركة • وعددها (1100) فلم يخلص منها الا بعد اللتا والتي • ورأى ان هذه المعركة على شدتها ليست من الاهمية بمكان لغية شخصي يوبا وسبيون عنها • فاهتم من بعدها وحصن مركزه •

كان لمبيوس ولد صغير لحق بافريقية • فاخذ قاطون ينفخ فيه روح الغيرة ، ويستثير حميته بذكر تاريخ والده وجلائل اعماله • وأشار عليه بالسير الى بوكوس حليف قيصر • فتوجه الولد اليه في الفتي جندي تقلهم ثلاثون سفينة برسم الكف عن مملكة يوبا وعدم اشغاله عنهم • ولما نزل بالشاطئ وأخذ يتقدم نحو العاصمة احاط به البربر واوسعوه

شتما وفتكوا بمن معه • ونجا ببعض جنوده ، فركب سفنه ، وعاد
خائبا •

وكان قيصر في حال سيئة • فاستمال رجلا ايطاليا يدعى ستايوس
الى نصرته • وكاتب بوكوس واخاه بوغيد يعلمهما بان يوبا سيذهب
الى حربه ويخلو لهما وجه مملكته • ويشير عليهما بالهجوم اذ ذاك •

علم يوبا بحرج موقف قيصر • وخفي عليه ما دبره مع ابني بوكوس
الاول • فلم يكتف سروره بضعف عدوه • ورأى انه قد قرب اليوم
الذي يتمتع فيه بوعد سبيون • فجمع جنودا كثيرة وخيلا وفيلة •
واخذ يجول بها في البوادي والناس تنضاف اليه حتى كان قريبا من
المنستير (بتونس) •

وفي هذه الاثناء ذهب ستايوس الى بوغيد مستعينا به • واتحد
مع بوكوس • وهجما على مملكة يوبا • وفتحوا قرطة بعد حصار لم
تخل مدته • وفتحوا أيضا حصنا (غير معلوم لدى المؤرخين) به مؤن
يوبا وذخائره واسلحته • واستأصلا سكان مدينتين من مدنه • وصارا
يهددان بقية مدن نوميديا وباديتها • ولا يشاهد بها الا النار والدم •

بينما يوبا في زهوه وسكره برائحة خمرة الانتصار اذ بلغه ما حل
بمملكته • فتوجه في الحين وأغذ السير لادراك اهل مملكته • واخذ
معه كل ما اعان به سبيون من رجال وخيل وفيلة • ولم يترك له
الا ثلاثين فيلا غير مهذبة ولا مدربة •

ضعف سبيون بعد ذهاب يوبا عن مقاومة قيصر • فارسل اليه
يستحثه في اللحاق به • ويؤكد له وعده السابق • فلم يجبه الى طلبه
لاشتغاله بدفاع الهاجمين على مملكته • وقد يكون من غرضه ان يدع
الرومان يتهاككون • ثم يرجع على الغالب منهم فيحاربه • ويظهر

• نوطن البربري من الرومان • ولكن سبيون ألح عليه حتى رحمه •
• وترك قائده صبورة لمقابلة ستيوس وبوكوس •

• عاد يوبا الى سبيون بألف ماش وثمانمائة فارس وثلاثين فيلا •
• ونزل في العشرين من دجنبر بجيشه خلف جيش سبيون • وفي التاسع
والعشرين منه وقعت معركة شديدة بين المتحاربين •

• وفي يناير سنة (46) فر الى قيصر كثير من جنود يوبا الجيتوليين •
• وبلغ عددهم الفا • وسبب ميلهم الى قيصر ان ضباط هذه الفرقة كانت
لآبائهم أراض انتزعها منهم والد يوبا هيمصال • واعادها عليهم مريوس
بعل عمة قيصر • ثم تابعت عدة وقائع كانت خاتمتها واشدها واقعة
طبسوس⁽¹⁾ في هذه الواقعة تفاقت الاحوال واشتد القتال • وانتهت
بفوز قيصر وفرار اعيان حزب بمبيوس •

• ذهب يوبا بعدها الى مدينة زامة • وكان اتخذها عاصمته الثانية •
• نقار اليها — لما عزم على حرب قيصر — نساءه وذريته وامواله وجمع
ببطحائها حطبا كثيرا • واقسم ايمانا مغلفة : لئن غلبه قيصر ليحرقن
بذلك الحطب اهل المدينة ثم اهلكه ونفسه • فلما بلغها اغلقوا في وجهه
الابواب مخافة ان ينفذ فيهم ايمانه •

• اضلعت الدنيا في وجه يوبا • وضاق على الارض بما رحبت •
• فصنع وليمة اكثر فيها من الاكل وشرب الخمر • ثم تحامل على سيفه
ليريح نفسه من عناء الدهر • فلم يستطع الثبات على ذبابة السيف
لغلبة الخمر عليه • فأمر أحد عبيده بقتله فقتله !

(1) طبسوس مدينة على شاطئ البحر براس ديماس (بتونس)
يليها برا بحيرة صارت بها كجزيرة اذ لم تبق الى المدينة الا مسلكين ضيقين
وهي من تأسيس الفينيقيين • ولم تخرب الا على عهد الفتح العربي •
ومكانها اليوم موضع حرائة •

وهكذا انتهت حياة يوبا بعد ما كاد يحقق غايته ويطرده الرومان من افريقية • وعلى قلة ايامه واشتغاله بالحروب كانت له دولة عظيمة وضرب السكة باسمه • وبلغ من عظمتها ان صار لا يحفل بالرومان • على انه جاء بعد ما انهكت وطنه الحروب الداخلية ، وتقاسمه امراء متعددون • قال بعض مؤرخي الافرنج : كان النوميديون اذ ذاك على غاية من الحضارة • وحالتهم احسن من حالة أهل الجزائر على عهد الاحتلال الفرنسي » •

بقي صبورة يحارب ستيوس وبوكوس بعد انتحار ملكه حتى قتله ستيوس في معركة من المعارك • وشاءت الاقدار ان لا يبقى بعد ملكه للهوان والصغار •

21 — مصانيسيس MASANASSÉS (50 — 46)

مصانيسيس كان ملكا على قسم سطيف من نوميديا • ولا ندرى الوجه الذي ورث به الملك على هذا القسم بعد ماصنتة •

لما دخل يوبا في حرب قيصر كان هذا الملك معينا له على حربه واعلاء شأن وطنه باضطاء، النفوذ الاجنبي او ازالته •

ولما انتصر قيصر على خصومه بافريقية اقتسم مملكتي يوبا ومصانيسيس على انصاره : القسم الشرقي من نوميديا جعله مستعمرة رومانية • واطلق عليه اسم «افريقية الجديدة» او «نوميديا الحديثة» هذا القسم واقع شرقي قسنطينة • ويشمل قالمة وعنابة • ومملكة مصانيسيس منحت لستيوس • وهي عبارة عن قرطة وروسفاد وشولو وميلوم وتوابعن • ومن هنا تعرف ان قول المؤرخين : مصانيسيس ملك على قسم سطيف ، مرادهم به ما يشمل هذه الولايات الاربع لا

خصوص موريطانيا السطيفية • ووسع في مملكة بوكوس الثاني باضافة موريطانيا السطيفية اليها • وهي ما بين مساجا وصلداي • وجازى بوغيد الاول بان اعطاه القسم الغربي من نوميديا •

هكذا وزعت مملكتا يوبا ومصانيسس على ثلاثة اقسام : قسم جمل مستعمرة رومانية وقسم اضيف للملكي موريطانيا الغربيين لانهما ليسا نوميديين ولكنهما على كل حال بربريان • وقسم جمل وسطا بينهما جغرافيا وسياسيا وهو الذي منح لستيسوس • فان هذا الرجل ليس بربريا بل هو ايطالي لكنه يعمل لنفسه لا للرومان •

وسياقة خبره انه كان جنديا وترقى الى أن صار واليا ثم عزل • فاغضبه العزل • واخذ يسعى في جمع اللصوص والمتشردين من ايطاليا واسبانيا • فكون جيشا تحت طاعته • وصار يؤجره لمن يحتاجه من الملوك في حروبهم • وكان منصور الراية • فاشتهر ذكره وطار في الآفاق صيته • فربحت تجارته • وجمع اموالا كثيرة اشترى منها سفنا • وصار يشتغل بالقرصنة يغزو المراسي وينهبها • ولم تخف مكاتته على قيصر • فراسله طالبا منه اشغال يوبا عنه • ووعدده ببعض مملكته • فاجاب الطلب ، وقضى له بالغلب • ونال من ذلك الارب • فبقي اميرا بمملكة مصانيسس حتى اغتاله عرابيون كما سيأتي •

22 — بوغيد الاول (46 — 44)

بوغيد الاول هو ابن بوكوس الاول • انتصب ملكا بموريطانيا الغربية بعد وفاة ابيه سنة (80) واعان قيصر على يوبا • فمنحه القسم الغربي من نوميديا • وبذلك دخل بوغيد ضمن ملوك البربر في الوطن الجزائري غير انا لم تتحقق المراد بالقسم الغربي من نوميديا • وفي مرسى : ان يوبا كان ملكا على نوميديا الشرقية والوسطى ، وان مصانيسس كان

على قسم سطيف من نوميديا ، وان القسمين الاولين جعلتا مستعمرة رومانية ، وان مملكة مصانيسس منحت لستيوس . وان قسم سطيف الحق بموريطانيا الشرقية ، ومراده انه اضيف لبوغيد على ما يفسره قوله في موضع آخر . واذن فقسم سطيف هو المراد من نوميديا الغربية . وفي غروت : ان بوكوس الثاني أخذ موريطانيا السطيفية .

في هذه الاقوال ضرب من الاجمال لم نجد ما يفسره من الانتقال . ولكن اذا استعنا بالمفسر على المبهم سهل علينا فهم بعض ما لم نفهم . ذلك ان مستعمرة الرومان قد علمت انها تشمل قللة وعنابة . فتكون هاتان العمالتان حد نوميديا الوسطى غربا ، وان مستعمرة ستيوس قد علمت حدودها ايضا . فما بقي من نوميديا غربا قسم بين الاخوين بوكوس وبوغيد . وهو ما عبر عنه غروت بموريطانيا السطيفية . وعبر عنه مرسيي مرة بقسم سطيف ، واخرى بالقسم الغربي لنوميديا . ويكون قول غروت : بوكوس أخذ موريطانيا السطيفية لا يعني به جميعها . هذا ما امكننا فهمه من ذلك الاجمال والاضطراب بعد العجز عن ايجاد شرحه في أي كتاب ..

كان قيصر يريد اسقاط الجمهورية . فكان الجمهوريون ضده . فبعد ما غلبوا بايطاليا ثم افريقية ذهب من بقي منهم الى اسبانيا ومعهم من امراء البربر عرابيون ابن مصانيسس . فذهب قيصر الى حربهم . وبقي برغيد معنا له هنالك أيضا . ووقعت حروب بينه وبين الجمهوريين من شيعة بيبوس . واخيرا انتصر عليهم في منده من بلاد اسبانيا سنة (45) . وتوفي بوغيد سنة (44) .

23 — عرابيون

عرايون هو ابن مصانيسس . لما قسم قيصر مملكتي والده ويوبا

على ما سبق بيانه ذهب هو الى الاندلس • وبها شيعة بمبيوس • فجمع هنالك جيشا من اللصوص واشتغل بالحراة زما • ثم ازداد جيشه قوة وازداد هو مهابة • فقاتل قيصر هنالك •

وفي سنة (44) توفي قيصر وبوغيدا عدوا أبيه • فرأى أن الوقت مناسب لاسترجاع مملكة والده • فعاد الى وطنه بمن معه من الجنود • وجمع اليه شيعته من النوميديين • وبعث منهم بطائفة الى بمبيوس الصغير ليعلمهم حسب الانظمة الرومانية • ومن غير شك ان النوميديين استبشروا بعوده اليهم لانهم صاروا تحت احسانب عنهم في الوطن او في الجنس والوطن جميعا •

خلف بوغيدا ابنه بوكوس الثالث • ورأى عرايون ما له من الجنود ، فعزم على حرب بوكوس لينتزع منه نوميديا السطيفية ⁽¹⁾ • وكان بوكوس غريبا عن محكوميه فاستنجد بوكتافيوس المستبد برومة بعد قيصر • فلم ينجده لاشتغاله بتثيت قدمه برومة •

تعارب الملكان البربريان ، فكانت الخيبة نصيب بوكوس • واسترد عرايون منه نوميديا السطيفية • وبقي له ستيوس • فدبر له مكيدة نجح فيها ففضى على حياة هذا الايطالي المتملك على البربر • واسترجع بذلك جميع ما كان يملكه ابوه • ولكثرة الفتن برومة بين الجمهوريين والقيصريين ذهب دم ستيوس هدرا • ولم يتوجه على عرايون من الرومان ادنى بحث او مسؤولية •

في هذه المدة كان الوالي بافريقية القديمة كورنفسوس • واعطيت نوميديا الحديثة لوكتافيوس • فوجه اليها عامله سيكتيوس • وطمع في الاستيلاء على افريقية القديمة أيضا • ف وقعت الحرب بين الوالي

(1) نوميديا السطيفية هي المعبر عنها احيانا بموريطانيا السطيفية •

والعامل . وخطب كلاهما عرابيون مستنجدا به . فترث في الاجابة مفكرا
في آتي الرجلين أوفق سياسته . ثم رأى ان الاصلح له اجابة وكتافيرس
فانضم له .

وبينما كورنفسوس محاصر القرطة اذ بلغه ان عرابيون انتصر
لوكتافيوس . ففشل وغادر قرطة فارا الى ولايته . ولحقه عرابيون .
وتلقاه سيكستوس شرقا . فانحصر بين عدوين . وأمعن عرابيون في
جنوده قتلا . فلم ينج منهم الا القليل .

دخل بعد هذا الانتصار سيكستوس افريقية . وعاد عرابيون الى
مملكته بغنائم قيمة . وقد يكون توسع في نوميديا الحديثة . وفي سنة
(43) اصطلح وكتافيرس وانطونيوس . وتشكلت حكومة رومة من
رؤساء ثلاثة . هذان الاثنان واميدس . وبقيت افريقية تحت وكتافيرس
ولكنه عزل سيكستوس وعوضه بفانفو .

وفي سنة (42) اقتسم الرؤساء الثلاثة المملكة الرومانية من جديد .
فاخذ انطونيوس افريقية الاصلية . واخذ وكتافيرس نوميديا والجهات
الغربية . فكلف سيكستوس بالنيابة عن انطونيوس في افريقية ، وفانفو
بالنيابة عن وكتافيرس في نوميديا الحديثة .

ولسوء ادارة فانفو ثار عليه البربر وامدهم عرابيون . ولكن فانفو
انتصر عليهم ففر عرابيون الى سيكستوس . وطلب منه فانفو تسليمه
فلم يسلمه . فهجم على افريقية وعاث فيها فسادا . فدافعه سيكستوس،
واعانه عرابيون والنوميديون، فكانت الهزيمة على فانفو .

وبعد هذا خدع سيكستوس عرابيون وقتله غيلة . فمن المؤرخين
من قال : قتله لانه كان قد أعان وكتافيرس على انطونيوس ، ومنهم من
قال : لانه كان يخشى نفوذه ويفار منه . وليس الجمع بين الامرين
بمعندر .

غضب فرسان نوميديا لقتل عراييون • فذهبوا الى فانفو واغروه
بسيكستوس فتحارب هذان العاملان • ولكن فانفو غلب فقتل نفسه •
واصبح سيكستوس هو الوالي الوحيد بافريقية الاصلية ونوميديا
الحديثة • قال مرسيي : «وربما ضم اليه ماكان تحت ملك عراييون» •
كان عراييون عاملا جريئا مفكرا داهية شجاعا مقداما صاحب آمال
كبيرة : ينوي اخراج الرومان من نوميديا • ولكن لم يساعده القدر •
وسلك سبيل غيره من عظماء البربر • فذهب ضحية الاستقلال قبل ان
يحقق تلك الآمال • وهكذا اتخذ عظماء الرومان قتل الاحرار سبيلا
لترضية جشعهم في الاستعمار • وكان عراييون خاتمة ملوك نوميديا
الذين وقفوا في وجه الاستعمار الروماني ووقفوا سيره •

24 — بوكوس الثالث (44 — 33)

بوكوس الثالث هو ابن بوغيد الاول • جلس على عرش الملك بعد
وفاة ابيه • وانتزع منه عراييون نوميديا السطيفية •

وفي سنة (40) توفي بوكوس الثاني • وورثه ابنه بوغيد الثاني •
وكانت الحرب بالاندلس بين وكتافيوس وانطونيوس • وكان الاول
عدوا لبوكوس الثاني صديقا لبوكوس الثالث • فألح انطونيوس على
بوغيد الثاني في اعاقته على عدو ابيه • فذهب سنة (38) الى الاندلس
بجيوش كثيرة نصرة لانطونيوس • وبغيته اختل نظام مملكته وقامت
بها الثورات •

شاهد بوكوس الثالث ما حل بمملكة ابن عمه • فوثب عليها وملكها •
ولما عاد بوغيد من الاندلس لم يجد سبيلا لاسترجاع ملكه • فذهب الى
الاسكندرية — ومصر اذ ذاك تحت يد حليفه انطونيوس — فولاه هناك
اعمالا جليلة • وتوفي بمدينة ميطون •

اصبح بوكوس ملكا على موريطانيا الشرقية والغربية • قال اغسال :

« وهذه الملكة عبارة عما بين جيغل شرقا ، والمحيط الاطلاتيقي غربا »
ولم تتدخل رومة فيما وسع به بوكوس مملكته لمكانة من وكتافوس .
وانتقل بعد هذه التوسعة الى يول (Yol) وجعلها عاصمة ملكه .
واستقر بها الى أن توفي سنة (33) ولم يترك عقبا . قال مرسي :
وكانت مدته — بصفة اجمالية — مدة هناء ، أو نقول : ان عصره غير
متضح للمؤرخ .

كان بوكوس هذا خاتمة أسرة بوكوس الاول الذي وسع مملكته
على حساب ملوك نوميديا . كما كان عرابيون خاتمة ملوك نوميديا .
وهكذا تقارب زمن انقراض هاتين الاسرتين اللتين تولتا ملك البربر
حقبا . وقضى عليها التنافس .

25 — يوبا الثاني «25ق - 23م»

يوبا الثاني⁽¹⁾ هو ابن يوبا الاول . أخذ الى رومة بعد انتحار
والده . ونشأ بها . وفي سنة (30) ق.م توفي انطونيوس . وكان
متزوجا بكلاطرة أخت بطليموس الثاني عشر . وله منها بنت تدعى
كليوباتر سيليني . وقام وكتافوس بكفالة ابنائه فزوج هذا البنت من
يوبا وولاه مصر .

وفي سنة (25) ق.م أو قبلها ولاء على نوميديا بصفة امير نائب .
ولا يعلم نفوذه بقرطة والمدن المحاذية لها . والمظنون انه ضعيف لان تلك
المدن المتحالفة كانت لها امتيازات على باقي مستعمرات رومة . وكان نفوذه
الفعلي بنوميديا الحديثة . والظاهر انه احسن ادارتها ووطد فيها دعائم
السلم . يدل لذلك ان وكتافوس نقله فما بعد الى موريطانيا . وازاف

(1) سماه في تحفة الزائر 14:1 جوبا الروماني وليس بروماني وانما
هو روماني النزعة . وفي المغرب ص 82 : « وجيزة جوبا قبل مرسي
بجاية » فلعل هذه الجزيرة منسوبة الى يوبا هذا .

نوميديا الحديثة الى افريقية الاصلية • ووجه الدلالة ان الرومان كانوا يخشون ثورات البربر • فلا يلحظون بمستعمراتهم التي تحت تصرفهم الفعلي الا الاوطان التي ذلها الحكم وعيها التمدن حتى صارت عاجزة عن الثورات •

وكان الجيتوليون مستقلين تحت عظماء منهم، فتقرب اليهم الرومان اولاً بالملاطفة • وعقدوا معهم معاهدات ، وعدوهم حلفاء مستقلين • قال مرسيي : « وتلك خطوة اولى لاختضاعهم » ومع ذلك فقد كانوا كثيراً ما يهجمون على الجهات الشمالية • وفي سنتي (29) و (21) دافعهم ضابطان رومانيان • وقهقراهم الى القفار • ووقعت بينهم وبين يوبا عدة وقائع كانت جيوشه فيها منهزمة حتى استعان بالرومان • واذ ذاك اهتموا بهم وحاربوهم الى ان انتصروا عليهم وقطعوا جرثومة ثوراتهم سنة (6 م) •

في سنة (17) ق م نقل وكتافوس يوبا من نوميديا الحديثة • و اضافها الى ولاية افريقية • وجمعتا تحت وال واحد الى نظر مجلس الشيوخ • وعوضه عنها بالموريطانيتين وبعض المراكز الجيتولية • فأصبحت له مملكة مترامية الاطراف • حدها الشرقي جيجل او بجاية ، والغربي المحيط الاطلسيقي ، والجنوبي الصحراء •

نزل من مدن هذه المملكة يول ، واتخذها قاعدة • وسماها قيصرية وتولى ادارتها بحسن تدبير • وكانت هذه المملكة قبل لبوكوس الثالث • فلما توفي قدم اليها وكتافوس نفسه • و اضافها الى رومة • وبقيت تحت نفوذه مباشرة حتى نقل اليها يوبا •

يوبا اخذه يوليوس قيصر بعد واقعة طبسوس الى رومة وعمره خمس سنوات • وبعد قتل قيصر كفه وكتافوس ، ف قضى صباه تحت رعايته ، ورباه على احترام رومة ، وقد علم اخلاصه لها • فلما كبر جعله قنطرة لنقل الجراد الروماني الى افريقية الشمالية : فولاه اولاً على نوميديا •

حتى اذا نضجت ثمرتها وسهل على الرومان اجتثاثها نقله الى الموريطانياتين
— وقد كانتا تحت نفوذه ولكنه عجز عن تذليلهما — فاضعف فيهما الروح
الوطنية التي تلازم بساطة العيش : نشطت الفلاحة فتقدمت خطوات ،
واعتنى بال عمران فامتد نطاق المدن وكثرت عمارتها .

أخذ المعارف عن كبار علماء اليونان والرومان . واشتهر بالتاريخ
والجغرافيا والطبيعة والنحو . وكان ذا ذوق وانتقاد للشعر والفن .
وله كتب في التاريخ . منها تاريخ رومة من يوم تأسيسها الى وفاة كافله
أغسطس قيصر (وهو وكتافيوس) . يذكر في تلك الكتب النظم
الرومانية وجزيرة العرب والسران وليبية . ويتكلم فيها عن التصوير
والتمثيل والنباتات . وكتب رسالة في اسباب فساد اللغة الاغريقية ،
وألف تأليف بها . وبالغ في التشيع للاغريق حتى نسب لهم عوائد قديمة
بافريقية وروما . وجازوه على ذلك بتشديد هيكل له بأثينا . ونقل
الحضارة الاغريقية الى عاصمته قيصرية . فجلب لها علماء ورسامين
وممثلين من الاغريق . وأنشأ بها بئات فاخرة رسم عليها تماثيل من
احسن ما تنمقه يد الاغريقي .

ولم يزل يؤيد السيادة الرومانية بوطنه ويخلد ذكر كافلة حيث تسمى
باسمه . فدعى نفسه « كايوس يوليوس » ونسب عاصمته يول اليه
فدعاها قيصرية ، وشاد بها معبدا لاله .

والخلاصة انه كان متشيعا للاغريق في العلوم والحضارة ، وللرومان
في الحكم والسياسة ، عديم الغيرة الوطنية والاحساس القومي .

في سنة (6) م توفيت زوجه فدفنها شرقي قيصرية . وشاد على
قبرها هيكلًا ضخما . وفي سنة (22) م أو (23) م توفي ودفن مع زوجه .
ولم يزل ذلك الهيكل مشاهدا الى اليوم ويعرف بقبر المسيحية . ولكنها

تسمية مخالفة للحقيقة • فان سيلايني لم تدن بالمسيحية ولا كان لهذا
الدين اذا ذاك ظهور في هذا الوطن •



(ش - 16) قبر المسيحية



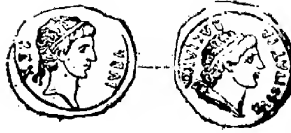
(ش - 17)

رسم يوبا شتر عليه بشرشمال • وهو محفوظ بدار الآثار هناك



(ش - 18)

نقود الملك يوبا وعليها رسمه



(ش - 19)

نقود الملك يوبا وعليها رسمه الى اليسار ورسم زوجه الى اليمين

26 — بطليموس م23 - م40

بطليموس هو ابن يوبا الثاني • سماه بهذا الاسم الاغريقي من شغفه بالاغريق • ورث عرش ابيه بعد وفاته • وكما كان اسمه غير بربري كان هو عديم الغيرة البربرية والحماس القومي • فلم يعمل كجده يوبا الاول ومن قبله من سلفه للاستقلال البربري • بل كان كأبيه يؤيد النفوذ الاجنبي ويخدم مصلحة رومة •

لم يرث بطليموس عن ابيه غير عرشه واخلاصه لرومة • ولم يرث عنه أدواقه العلمية وتدابيره الادارية • فترك أمور دولته بيد الحاشية • وانهمك في الملاهي والفجور • وبذلك وجد البربر سبيلا الى استعادة حياتهم الحربية •

كان بنوميديا ثائر بربري يدعى تققاريناص • فاستدعته حاشية بطليموس الى موريطانيا ووعدته الاعانة • فلبى طلبها ونقل الحرب الى تلك الناحية •

تقفار يناص هذا رجل بربري تجند بالجند الروماني وبلغ رتبة ضابط معين • ثم فر الى القبائل البربرية المقيمة بجهات اوراس • وأثارهم على الرومان سنة (17) م • فهجموا على الجنود الرومانية في مراكزها • واتسعت ميادين الثورة من خليج طرابلس الى الحضنة •

برز لمحاربتة كاملوس والي افريقية فلم يقو تققاريناص على مقابلته وفر الى الصحراء • واشتغل فيها بتنظيم الجنود على الطريقة الرومانية • فاتخذ الفرسان والمشاة • وفي ظرف عام تم تنظيمه وتمرينه • فأعاد الكرة على الرومان • وهزمهم بوادي باجيدة (ساحة لمبس) فتركوا له حصونا • وغنم غنائم جليلة • فتشجع بهذا الانتصار • وذهب الى تالة (بعمالة تونس) وحاصرها • فضاعف الرومان قوتهم مضاعفة أعجزت تققاريناص عن مقابلتها • وفر أيضا الى الصحراء • وذلك سنة (20) م •

وبعد قليل ارسل الى الامبراطور طيبريوس وفدا يعرض عليه الصلح على ان يقسم معه أراضي افريقية • فأبت للامبراطور عظمتة النزول لقبول هذا الشرط • وراءه وقاحة من تققاريناص • فارسل الى الجيتولين يعدمهم بالعفو ان هم وضعوا السلاح • وجعل جعلاً لمن يقتل تققاريناص • فلم يجد من بطانة هذا الثائر خائناً •

وفي سنة (21) وجه الامبراطور لحربه القائد بليسوس (BLOESUS) وكان ذا دراية بالحرب • فقسم جيشه أقساماً وراء كل قسم حصن • فمكث في مطاردة تققاريناص عاماً • وكان يهزمه كلما التقيا • ولما أعجزت تققاريناص الحيلة ويئس من الانتصار عاد الى الصحراء ملجئاً من قديم سنة (22) •

سر الرومان بانتصار بليسوس سروراً عظيماً • ولقبوه الغازي • ولكن هذا الانتصار لم يكن حاسماً للثورة • فان تققاريناص رجل

لا يآبه بمعاكسة الايام • ولا تقف أمام عزيمته العقبات • ولا يفشل
للقواب والصدمات • فمكث بعيدا عن الرومان بالصحراء حتى بلغت
وفاة يوبا • فجدد عزمه • وجمع جموعه • واستثار القبائل الجيتولية
من جديد • وحاصر بعض المدن • فعين الرومان لحربه دولبة
(DOLABELLA) • وابتدأ هذا الروماني بقتل عظماء الجيتولين •
واتخذ مراكز الجنود على حدود الصحراء • وطلب من بطليموس
امداده برجال البربر فأمدّه • وبلغ تقفاريناص مدينه توبوسبوس
(TUBUSUPTUS) — تيكلات — ، فحاصرها • وبرز اليه دولبة بعد
ذلك الاعداد فأجلاه عنها • وفر أمامه — كعادته — الى الصحراء •
فلقيته الجنود المراقبة بحدودها •

هنالك توجه نحو موريطانيا اعتمادا على وعد حاشية بطليموس له
بالاعانة • فأحاطت به الاعداء في الطريق • وما بلغ عوزية (سور
الغزلان) حتى أدركه دولبة • وانقض عليه ليلا فافنى جيشه وقتله !
وذلك سنة (24) •

وهكذا انتهت حياة هذا البربري الذي يحمل بين جنبيه روحا
استقلالية ، وهو يعلم ما فيها من المصاعب ، اذ ما كان يجهل قوة
رومة ولا انتشار نفوذها بالوطن البربري • ولكنها العزائم الفولاذية
تدفع باربابها الى ما وراء التأمل في العواقب • والبطولة قد تنتهي
بصاحبها الى الجنون •

سر الرومان بالقضاء على شخص تقفاريناص الذي شغلهم مدة
ثمانى سنين • وجازى مجلس الشيوخ بطليموس على اعائه بقضيب
من عاج وحلة مطرزة بالذهب • حمل هذه الجائزة أحد الشيوخ
وذهب بها الى بطليموس مكلفا من قبل زملائه بمقابلته وتهنئته باسم
« ملك حبيب حليف » •

ما أجود بطليموس ! بل بش الجود جود بطليموس : يعين
الرومان على قتل بني جنسه ليملكوا أراضيهم ونفوذهم ورقاب بقية
الامة ، في مقابلة القاب وتحف ! وبعد كيف كانت عاقبته معهم ؟

في سنة (39) ارسل اليه الامبراطور غليقلا (CALIGULA)
يستدعيه الى رومة - وكانت بينهما خولة - فلبى الدعوة حيناً .
وذهب في هيئة عظيمة غار لها الامبراطور . وحضرا ذات يوم المسرح .
فأعجب الحاضرون بشوب بطليموس الارجواني . فاعتباط لذلك
الامبراطور وزجه في السجن وقطع عنه الطعام ولم يترك له ماء غير ماء
الميازيب . وانتهى به العيظ الى أن قتله . يقول مرسبي : « أما غيرة
من هيئته واما نهما في سفك الدماء واما طمعا في الحاق مملكته برومة
رأسا » وسواء كان القتل لاحد تلك الاغراض أو لثلاثتها فان غيرة
الامبراطور من هيئة بطليموس وبهت العامة مما يدل على تفوق الازياء
البربرية على الازياء الرومانية .

كان لنعي بطليموس أسوأ الاثر في نفوس البربر دفع بأحد مواليه
المسمى آدمون الى رفع لواء الثورة وعززه الجيتوليين . ولكن الرومان
تمكنوا من اخماد ثورته . فرجع الامر الى نصابه ، والحقت موريطانيا
برومة . وذلك سنة (42) م تقريبا .



(ش - 20) رسم بطليموس عثر عليه بشرشال

7 — انقراض الممالك البربرية

قد رأيت كيف نشأت الممالك البربرية العظمى على عهد قرطاجنة ، وكيف تعرفت اليها رومة • وقد عجمت هاتان الدولتان القويتان عود ملوك البربر • فوجدناه صلبا لا يلين لكل غامز ، ورأنا هدم استقلالهم « دونه خرط القتاد » فاكتفت قرطاجنة منهم بأن يكونوا معها — بحق الجوار — على رومة ذات المطامع الاشعية • اما رومة فاتها بعد ما انتصرت بمن نصرها منهم لم تنفك تتدخل في شؤونهم واذكاء جذوة التنافس بينهم والزيادة في عددهم بتجزئة ممالكهم وشغلهم عن مهماتهم الداخلية بالاستئصال بهم في حروبها أو تقسيمهم على زعمائها المتحاربين • فقد رأيت انهم — أيام تنازع مريوس وصيلة — منهم من كان مع الاول ومنهم من كان مع الثاني • وكذلك كانوا في تحارب بمبيوس وقيصر وعراك وكتافيوس وانطونيوس •

مهما امعن الباحث في علل سقوط تلك الممالك وانعم النظر في ان علة العلل هي تدخل رومة في شؤونها بتلك الصفة التي ذكرنا • حتى اني عندما أريد من الفكر جولة في علل سقوط هاتيك الممالك يذهب الى البحث عن أسباب بقائها وطول أمدها • فيجد السبب الوحيد هو ثروة الوطن البربري وغناه بكثرة رجاله الاحرار وأولى الشجاعة وحدة الافكار • فقضاء رومة على يوغورطة لا يعجز أن يظهر مثل يرباص ويوبا الاول وعرايون • ولكن لكل بداية نهاية ولكل شيء جدة وبلاء • فاتمى عمر الممالك البربرية باتهاء حياة عرايون و وفاة بوكوس الثالث • وجاء يوبا الثاني وبطليموس بعدهما مجردين من الروح البربرية التواقعة الى الاستقلال • فكان عصرهما عصر تثبيتت لقدم السلطة الرومانية شمالا واقامة سد على الجهات

الجنوية التي ربما تبعث منها أشعة للحياة الاستقلالية بالجهات الشمالية .

حقا ان رومة كانت تعمل لاسقاط الملك البربري . وحقا ان تداخلها هو الذي اسقطه ، وحقا ان استمرار حياته — مع استمرار ذلك التداخل — امدا غير قصير مما يدعو الى العجب والتعجب عن السبب . ولكن هل نفعي البربر من تبعة ذلك السقوط ؟ وهل تستطيع رومة ان تخرب ملكهم لو لم يخربوا هم أنفسهم بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ؟

نرجع الى الصعائف السابقة نجد فيها جواب هذين السؤالين . ذلك أن تداخل رومة أخذ يتزايد في عصر يوغورطة واشتد بعده . وفي هذه المدة كانت ملوك البربر من أسرتين : أسرة نوميديا قديمة أسسها نرافاس ، وأخرى موريطنية مبلغ علمنا عنها أنها حديثة أسسها بوكوس الاول .

ومن الأسرة الاولى كان ابطال الاستقلال البربري . ومن وجد منها مؤيدا للرومان — مثل مستابمل وهيصال الثاني — على الاحرار من جنسه لم نجد له ضررا كبيرا ولا أثرا عميقا في هدم الملك البربري . أما الأسرة الثانية فقد كان مؤسسها بوكوس عاملا في القضاء على يوغورطة ، وحفيده قتل يرباص ، وابناه اعانا قيصر وتسببا في انتحار يوبا الاول .

واذن نقول : ان على البربر تبعة سقوط تلك الممالك ، وهم الذين أعانوا الرومان على بلوغ غايتهم ، وان زعماء هذه الطائفة الماروجة هم بوكوس وعقبه . غير أنا لا نقول : أنهم تسببوا في السقوط قصدا ، وأعانوا الرومان حبا فيهم وبغضا لجنسهم . ولكن نرى أن سياستهم مبنية على الجبن وخشية الرومان ، والطمع في بسط

النفوذ وسعة السلطان . أما خوفهم من الرومان ففي غير محله : لان البربر بوطنهم ومعاقلهم الطبيعية أمنع من أن تأخذهم أمة بالقهر والغلبة . وأما طمعهم في التوسع على حساب غيرهم فانما يحققه ويستفيد منه من جمع بين القوة والدهاء والشجاعة . وهؤلاء الملوك لم يكونوا كذلك . ولذلك استغل الرومان اعدائهم الحقيقيون جهودهم ، وقضوا بهم وطرحهم .

وقد جاء يوبا الثاني بعد سقوط الملك البربري — وهو من الاسرة الاولى — فكان عليه ان يعمل لتجديده وتحقيق ما كان يأمله سلفه . خصوصا وهو يعلم ان قيصر هو الذي قضى على حياة والده ، وقسم مملكته بين أعدائه ، وتربى في رومة ، ودرس تاريخها . ولكنه رجل انهك في المعارف وانقطع للعلوم ووقدته الحضارة . فلم تكن له روح مصينيسا ومصيسا التي جمعت بين العلم والمحافظة على القومية . ولذلك صار يرى لرومة فضلا عليه ان منحه بعض ما كان يرثه من أبيه . فخدمها باخلاص . وهما لها الوطن البربري كي يتولى ادارته بنوها من غير واسطة . فكان عصره ومدة ابنه خاتمة لذلك الملك وتمة لذلك السقوط .

أقدم من عرفاه من ملوك بربر الجزائر نرافاس . وكان موجودا سنة (238) ق.م . وآخرهم بطليموس المقتول سنة (40) م . فكان عمر الممالك البربرية العظمى نحو ما ثلاثة قرون .

لم تنسب ملوك البربر الى قبائلهم لان الباحثين في هذا الدور من مؤرخي اليونان والرومان الذين أخذ عنهم مؤرخو الافرنج لا عناية لهم بالبحث في القبائل . وانما فعل ذلك مؤرخو العرب . وهم انما عرفوا البربر ودونوا اخبارهم وفصلوا قبائلهم بعد الفتح على عهد الاسلام .

والظاهر ان القبائل التي ذكرها ابن خلدون بأسمائها وامكتها
 لم تكن قريبة العهد من الفتح العربي • بل هي كذلك من قديم •
 وعليه يمكننا ان نقول : ان أسرة نارفاس — ومنها أكثر الملوك —
 من قبيلة كتامة • اما صيفاقس وبيت بوكوس فلا يمكننا نسبتها لقبيلة
 من القبائل التي ذكرها ابن خلدون : لعدم تحققنا لموضع نشأتهما •

8 — ذكر العواصم الكبرى للملوك البربر

علمت مما سبق في هذا الباب ان من ملوك البربر من استولى
 على جميع التراب الجزائري بل على أغلب افريقية الشمالية ، ومنهم
 من استولى على بعضه ، ودخل الباقي في حوزة ملك آخر ، وقد بلغ
 أحيانا أن تقاسم هذا الوطن أربعة ملوك • لاجرم تعددت عواصمهم
 بتعدددهم • ولكن لم نعثر — بعد البحث — الا على ما يلي من تلك
 العواصم :

1 — قرطبة (CIRTA) • وكانت عاصمة نرفاس وأكثر الملوك
 من بعده • ولا نعلم تاريخ تأسيسها • ولكن من المحقق أن البربر
 أسسوها على عهد الفينيقيين ، وأطلقوا عليها ذلك العلم الفينيقي •
 ومعناه المدينة ⁽¹⁾ فسرنا كذلك اغسال •

هذه المدينة واقعة على جبل حجري مرتفع ، يحيط به وادي
 مساغا (وادي الرمل) من أغلب جهاته • وقد وصفها سترابون المؤرخ
 الروماني بأنها قلعة متمتعة على من رامها • وذكر المؤرخ ابيان : ان

(1) بعض الكتاب يكتبها سرتا ، تبعا للنطق الافرنجي • ونحن اخترنا ان
 نكتبها قرطبة — وأن لم نر من كتبها كذلك — لان حرف (ج) عربيه
 العرب قافا في مثل صقلية وقيصير وقالوا ايضا : قرطاجنة • وهي
 مركبة من كلمتين اولاهما قرطا • ومعناها ايضا المدينة •

مصيبا حصنها تحصينا لا يمكن معه لاحد ان يفتحها عنوة • وقال
البكري : ليس يعرف أحصن منها • ويدل لذلك ان يوغورطة عكف
على حصارها مدة عامين • ولولا المجاعة ما وجد سبيلا لفتحها •
والوندال لم يتمكنوا من فتحها ، وهم الذين فتحوا قرطاجنة ورومة •
كما سيأتي •

استمرت هذه المدينة على عهد الملوك الاولين من البربر في تقدم
ورقي من حيث التجارة والبناءات الانيقة والمعارف • فكثر روادها
واتسع عمرانها ، ثم نقصت من قيمتها وعمارتها كثرة الفتن على عهد
هيمصال الثاني •

ولما منحها قيصر لستيوس أخذت في النمو • وازدهرت في العصر
الروماني بكثرة السكان وسعة العمران وفنون العرفان • وفي أوائل
القرن الرابع للميلاد وقعت حرب بين قسطنطين ومكسنتيوس فدخلها
هذا الاخير وعاث فيها فسادا بقتل السكان وسبيهم واحراق المدينة •

وبعد ان غلبه قسطنطين جدد بناءها ، وأعاد على الناس أموالهم ،
ونشط الفلاحة • فعادت اليها عظمتها وعمرانها • وما زالت شمسها
تيزغ وتأفل • وهي لهذا العهد كثيرة المباني واسعة العمران • كل
سنة تزداد سعة • ولكن ما زالت لم تبلغ حدودها التي كانت عليها
في العصر الروماني •

بقي لها اسمها الفينيقي حتى جاء ستيوس فدعيت « مستعمرة
ستيوس » يريدون بالمستعمرة المدينة • واطلقت عليها اعلام اخر •
ولكن كلها لم تزاحم اسم قرطة ولم تبلغ شهرته • حتى جددتها
قسطنطين • وكانت له اخت تدعى قسطنطان • فسمى المدينة باسمها •
وعلق من ذلك الحين هذا العلم بها • وجر ذيل النسيان على ما

قباة . وقد خفف العرب هذا العلم فقالوا : قسنطينة . والعامّة اليوم تقول قسطنطينه .

قدر لهذه العاصمة الخلود . فلم تزل منذ تأسيسها الى اليوم عاصمة مملكة أو ولاية . وذلك لحسن موقعها وأهمية مركزها . مما يدل على حذق البربر وفضل اختيارهم في وضع عواصمهم .

ولم تزل هيئتها القديمة سواء في أيام عظمتها أو في ليالي انحطاطها الى أن جاءت الدولة الفرنسية فغيرت شوارعها . وربّبت ابنتها على غير نسقها القديم . ولم يبق الا موضع قصبتها فانه كان منذ الدور البربري القديم قصبة الملوك ودار الحكم . وبذلك ذهبت قيمتها التاريخية . واحتيج في استخراج هيئتها الاولى الى جهود كبيرة . وقد رسم تلك الهيئة بارس في كتابه قرطة .

2 — صيغة . هذه المدينة كانت عاصمة صيفاقس قبل ان ينتقل الى قرطة . وهي في ساحل تلمسان على البحر الابيض عند مصب نهر تافنا فيه ، من المؤرخين من قال شرقية ، ومنهم من قال غربية .

وهي من مؤسسات الفينيقيين استولى عليها البربر فيما استولوا عليه من المدن الفينيقية بالسواحل . ولما استولى الرومان على موريطانيا اتخذوها مرسى من المراسي التي تنقل منها الجيوب الى رومة .

وقد خربت وعفا رسمها . وذكر البكري⁽¹⁾ مدينة سماها أرشقول غربي مصب نهر تافنا . ووصفها بما يدل على سعتها وعظمتها . غير أنه لم يذكر — كعادته في المدن القديمة — انها أولية . فعلى ان صيغة شرقي تافنا تكون مدينة أرشقول غيرها ، وعلى أنها غربية لا يبعد ان

(1) المغرب 77 .

تكون أورشقول مؤسسة على انقاضها • ثم وقعت في تاريخ غروت على ان أورشقول هي صيغة •

3 — يول • هذه المدينة من المراسي الفينيقية • أسسها الفينيقيون • ثم دخلت أيدي البربر • وأول من اتخذها من ملوكهم عاصمة بوكوس الثاني • وعلى عهد يوبا الثاني بلغت مبلغا عظيما من العمران والحضارة • بني بها المباني الجميلة والقصور الانيقة • وآثارها تدل على عظمتها ، وعلى أن اليد التي شاد بها يوبا هذه المدينة يد اغريقية افريقية وليست رومانية • وقد اتخذت دار لحفظ تلك الآثار ، وصنعت تماثيل على نمطها نقلت الى متاحف أخرى من متاحف الآثار •

ولغرام يوبا بكافله اغسطس قيصر نسب هذه المدينة اليه تخليدا لذكره • فساها قيصرية • وهذا نظير ما يفعله الارويون اليوم ، ويكثر من • فينسبون مدنا وشوارع وحارات الى عظمائهم • يفعلون ذلك بالاطوان التي استولوا عليها اعفاء لعظماء أهلها حتى يصبح الحكومون لهم وليس بين عينهم وفي آذانهم الا رجال غيرهم •

وتعرف هذه المدينة اليوم باسم شرشال • ولا أدري متى حدث لها هذا العلم ؟ غير ان البكري ذكرها به • وهو من أهل القرن الخامس الهجري •

4 — هبون • ذكر غروت انها عاصمة يوبا الاول • وقد اتخذها جنسريق الوندالي عاصمته قبل ان ينتقل الى قرطاجنة ، ثم كانت عاصمة بعض الامراء في العصر الاسلامي •

وهي من المؤسسات الاولى للفينيقيين التي يرجع تاريخها الى

اواخر الالف الثاني قبل الميلاد • وقد تصرف العرب في هذا الاسم فدعوها بونة • قال البكري : « ومدينة بونة أولية • وهي مدينة أقشتين (القديس أغسطين) العالم بدين النصرانية • وهي على ساحل البحر في نشز من الارض منيع مظل على مدينة سبوس • وتسمى انيوم مدينة زاوي • وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال • ولها مساجد وأسواق وحمام • وهي ذات ثمر وزرع • وقد سورت بونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة » ⁽¹⁾ •

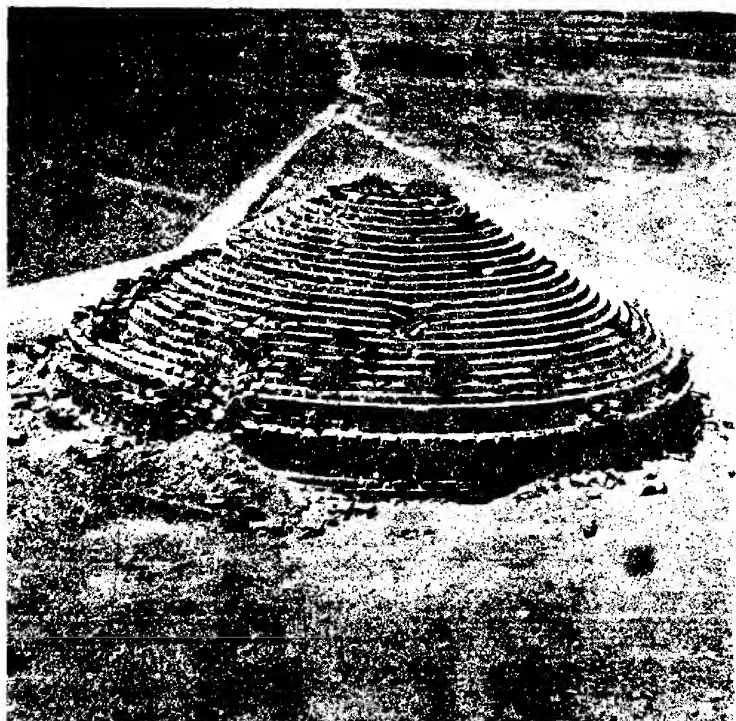
ولكثرة شجر العناب بها أطلق عليها مدينة العناب حتى صارت تعرف اليوم بعنابة •

هذا ما وجدنا من عواصم ملوك البربر القدماء منصوصا عليه • وهناك مدن كثيرة منها ما يحتمل ان يكون عاصمة لبعضهم مثل بجاية وسطيف • ولكننا لم نجد من صرح بأن واحدة منهما كانت عاصمة لملك من الملوك • ومما لا ريب فيه أن هناك عواصم غير تلك الاربع • فاننا نجهل عاصمة يوغورطة قبل ان يفتح قرطبة ، ونجهل أيضا عاصمتي ماصنتة وعراييون •

(ش - 21)
كليوباترا - سيلين



(ش - 22)
سوما ضروب مقبرة هاسينيسيا



(ش - 23)

المدرسان : قبر بربري واسع محاط
والذي منه أخذ القبر شكل الهرم

الباب السادس

في ذكر الرومان وحكومتهم بالجزائر

١ — تمهيد

الرومان أمة من اللطين ، ينسبون الى عاصمة دولتهم رومة .
وهي مدينة مؤسسة وسط ايطاليا . أسسها — على ما يقول الرومان —
روملوس سنة (753) ق.م .

وايطاليا جزيرة مستطيلة . الجهة الشرقية منها عديمة السهول
والمراسي ، والجهة الغربية بخلافها ذات سهول وماس . وهي التي
كونت تاريخ ايطاليا . أما جنوبها فقليل العمارة ، اتخذها اليونان مركزا
ينزلون به في سفراتهم البحرية .

وهي متوسطة في العالم القديم : واقعة بين عالم الشرق المتمدن ،
وعالم الغرب المتوحش .

وكان سكانها أهل حراثة وقيام على المواشي . ثم تعلموا
الملاحة والتجارة من بعد . وكان بها أمم مختلفة لا صلة لها بعضها
ببعض .

وعلى أيدي الرومان تكونت الوحدة الايطالية ، حيث أسسوا
حكومة ملوكية ، اختلف في بدايتها . ودامت الى سنة (509) ق.م
ثم خلفتها الجمهورية . وفي عهدها تمكن الرومان من حماية أنفسهم
فمدوا أعينهم الى غيرهم من الامم قصدا للتوسع وسعيا وراء الثروة
ولذة النفوذ .

حاربوا قرطاجنة معلتهم المدينة حروبا طوالا يشيب لهولها
الولدان ، وانتصروا عليها أخيرا بما امتازوا به من نكث اليهود وخيانة
الشرف . وأخذوا في فتح البلدان واستعمار الاوطان ، حتى ملكوا جل
المعمور في القرنين الثاني والاول (ق.م) . فبسطوا نفوذهم على
افريقية الشمالية تدريجا ، وعلى مصر والشام واليونان ومقدونيا
وجرمانية والغاليا والانديس .

أصبحت دولتهم سيدة العالم القديم . واقتبسوا من الامم التي
استولوا عليها أصول المدينة وأساليب الحضارة وفنون العلوم .
وجروا في ذلك الى مدى بعيد ، حتى ان أوروبا اليوم لم تزل تقتفي
آثرهم في الاستعمار ، وتستمد من نظمهم وسياستهم ، وتبحث عن
أسباب فوزهم وعلل خيبتهم .

ولموقع وطنهم الجغرافي دخل كبير فيما بلغوه من عظمة وسعة
سلطان . وبعد الجمهورية جاءت الامبراطورية . فتمكنت من حفظ
سيادتها على العالم الروماني ، حتى انقسمت أواخر القرن الرابع
للميلاد . ومن ذلك الحين أخذت المملكة الغربية تضعف وتتلاشى
حتى سقطت سنة (476) للميلاد . وذلك بما نال أهلها من بטר النعمة
وسعة السلطان . فانغمسوا في الملاذ واشتغلوا بالملاهي . فضعفوا عن
القيام بأعباء الملك . وقد قال كاتب روماني : « ان انتصارات رومة
هي علة سقوطها » .

2 — اصل الرومان

كانت تقطن ايطاليا في فجر التاريخ أمم مختلفة . منها الغاليا
والاتروسك والاغريق واللطين . وموطن اللطين بين الاغريق
والاتروسك . وكانت هذه الامة متوحشة ، وأهل الجبال منها أصحاب

مواش ، وأهل السهول فلاحون • ومن هؤلاء الفلاحين ظهرت الدولة الرومانية •

وذكر ابن خلدون : ان اللطين من يافث بن نوح • وذكر في أبناء يافث يونان وماغوغ • ثم اختلف نقله في نسبة اللطين الى يونان أو ماغوغ : فنقل عن اهروشيوش مؤرخ الرومان : « ان القوط واللطين من ماغوغ »⁽¹⁾ ونقل عن الاسرائيليين ان يونان « كان من الولد أربعة • وهم : داوود بن واليشا وكيتم وترشيش • وان كيتم من هؤلاء الاربعة هو ابو الروم : والباقي يونان »⁽²⁾ والروم عندهم الرومان • وليس من فرق بينهما من حيث الاصل • وذكر في موضع آخر ليونان خمسة ابناء • وسماهم هكذا : « كيتم وحجيلة وترشوش ودودانم وايشاي »⁽³⁾ • وفي النص الاول تحريف يظهر صوابه من النص الثاني • ذلك انه قال أولا : داوود بن واليشا • وقضيته ان يكون ابناء يونان ثلاثة فقط • وقال ثانيا : دودانم وايشاي • فايشاي هو اليشا ، ودودانم هو صواب كلمة داوود بن • وبذلك يتم عدد الابناء أربعة كما قال •

وكلمة ترشيش او ترشوش عنده قريبة من كلمة الاتروسك عند مؤرخي الافرنج • وهم يقولون : ان الاتروسك أمة مجهولة الاصل واللغة • فان صح حمل الكلمتين على أمة واحدة — كما يظهر لنا — كان الاتروسك اخوان اللطين • ويقربه الجوار • والله أعلم •

3 — تأسيس دولة الرومان

تاريخ ابتداء الدولة الرومانية غير واضح • قال ماليت :

(2 و 1) ج 2 ص 10 (3) ج 2 ص 184 •

والمؤرخون يستمدون على ما كتبه تيت — ليف (TITE - LIVE) الذي كان على عهد أغسطس قيصر متصلاً بآخر حياة الجمهورية .

هذا المؤرخ ينسب تأسيس الدولة الرومانية الى روملوس باني رومة . وينسب روملوس — تبعاً لاساطير الوثنيين — الى الآلهة . ويذكر في نشأته ونشأة أخيه ريموس خرافات ، أضربنا عنها صفحاً لبعدها عن الخيال المستحسن ، وإن لم يتفق مع الحقيقة .

وعد ماليت لرومة سبعة ملوك . خامسهم هو الذي أدخل الى رومة شعار ملوك الاتروسك : الجبة الحمراء والتاج والكرسي وسيف الملكة ، وسادسهم هو أول من تنبه الى طبقة الصعاليك . فادخل قسماً منها في الجندية . وقد كانوا كمية مهمة . وطبقة الاشراف هي التي تقوم بجميع شؤون الملكة . وسابعهم ثارث عليه الامة . فالتجأ الى المعبد ، ولكنه قتل به .

وفي ابن خلدون تصريح بان رومة أسسها روملوس . ولكن الدولة مؤسسة من قبله بكثير . وعد ملوكاً تقدموا روملوس . ويظهر من كلامه ان الدولة أسست أثناء الالف الثاني (ق.م) . وذكر ابن كريون مؤرخ بني اسرائيل : انه جاء بعد روملوس خمسة ملوك . « اغتصب خامسهم رجلاً في زوجه . فقتلت نفسها . وقتله زوجها في الهيكل » ⁽¹⁾ .

فاتفق ماليت وابن خلدون على ان آخر ملوك رومة قتل بالمعبد . وبه انتهى الدور الملوكي . وذلك سنة 509 (ق.م) . وصار نظام رومة جمهورياً من ذلك الحين .

قال ابن خلدون عن ابن كريون : « واجمع أهل رومة على أن

لا يولوا عليهم ملكا • وقدموا شيوخا ثلاثمائة وعشرين ، يدبرون ملكهم • فاستقام أمرهم كما يجب ، الى أن تغلب قيصر » ⁽¹⁾ • وشكل الجمهورية يتألف من قنصلين وشيوخ •

1 — القنصل : ومعناه منفذ الاحكام • ينتخب لمدة عام • وللقنصلين رئاسة الجند ومجلسي الشيوخ والشعب • ولهما النظر في القوانين وعرضها على المجلسين • وهما اللذان يقيمان الاحتفالات الدينية • فهما رئيسان في الدين والسياسة •

2 — الشيوخ : يختارهم القنصل من رؤساء الاسر الشريفة • ومن اختير لهذا المنصب يبقى به مدة حياته • ويبد الشيوخ السلطة على الشؤون الداخلية والسياسة الخارجية •

ومن نظام الجمهورية انه في أيام الشدة يسمي القنصلان متصرفا يمنحانه النفوذ المطلق • فينفذ أحكامه من غير مراجعة مجلس الشيوخ • ويسمي لمدة ستة أشهر فقط •

وقد اتسعت ممتلكات رومة على عهد الجمهورية • فبلغت ولايتها سبع عشر : عشر ولايات بأروبا ، وخمس بآسيا ، واثنين بأفريقية •

لم تكن تقصد الجمهورية الرومانية الى التداخل في عوائد مستعمراتها ودياناتها • وانما تقصد منها الانقياد لدولتها واداء الضرائب لبيت مالها •

ولقد كان نظام الجبايات مضرا بالمستعمرات • فقد كانت الجمهورية تسند استخلاص الضرائب الى أعيان اغنياء ، يؤدون لها ما تريده • وهم يستخلصون من الامة ما شاءوا من غير مرحلة ولا شفقة • حتى أن المعدم يقرضونه بالفائض ليأدي لهم ما يطلبونه منه • وبهذه الصفة انتزعت املاك واقترت أسر •

(1) ج 2 ص 197 •

فشا الجور والارتشاء في جميع ولاة الرومان • واصبحت غايتهم الوحيدة هي الحصول على الثروة بأية وسيلة • ولم تتبق الوظائف مسندة الى مستحقيها • وحدثت برومة نفسها أهوال من تنافس العطاء • وصارت القوانين ضعيفة أمام ذلك كله •

سأت من ذلك حال الامة • ولم تجد في الجمهورية ما يحسن حالها ويخفف من ويلاتها ، فاجتوتها ، وتواطأ على اجتوائها أهل رومة وأهالي الولايات التابعة لها •

وبينما الامة في انتظار الفرج لهذه الازمة اذ ظهر يوليوس قيصر • وحاول تغيير شكل الحكومة بجعلها امبراطورية • فقام في وجه الجمهوريون ، وانتصر عليهم بايطاليا ثم افريقية ثم الاندلس • ولما عاد من الاندلس سنة (45) ق.م سمي برومة متصرفا مستبدا مدة حياته فحارب الجمهوريين بالسياسة كما كان حاربهم بالسيف • واضعف نفوذ مجلس الشيوخ ، فصار مجلس استشارة فقط • وكان عددهم سبعين في نقل ابن خلدون عن هروشيوش أو (320) في نقله عن ابن كريون أو (300) على ما ذكر ماليت ، فاضاف اليهم يوليوس قيصر شيوخا من أهل الولايات التابعة لرومة • فبلغ عددهم (900) •

فرحت الامة بيوليوس قيصر لحسن ادارته وكفاءة ولائه • ولكن الجمهوريين كانوا ناقلين عليه • وتمكنوا من قتله في مجلس الشيوخ نفسه سنة (44) ق.م •

وكان الجمهوريون يظنون أن في ذهاب قيصر رجوع نفوذهم • ولكن الامة كرهت سياستهم ، وسئمت من القتن التي كانت على عهدهم ، واستبشرت بقيصر ووجدت فيه بغيتها ، فزادها قتله نفورا من الجمهوريين •

وكان من قواد قيصر رجل يدعى انطونيوس ، وله شهرة ومجبة في قلوب العامة ، فقام على الجمهوريين ، وهيج العامة ضدهم . وكان لقيصر ابن أخ (أو ابن أخت) متبنيه يدعى اكتافوس ، وكان بأثينا يتعاطى المعارف ، وهو حدث شديد الحماس داهية في السياسة ، فتظاهر بالدين للجمهوريين ، حتى ظنوا انه يكون لهم عضدا على انطونيوس ، فأخذوا ينصرونه في خطبهم ، ويطعنون في انطونيوس وبعد أن توصل الى رئاسة جند كبير طلب الى الشيوخ أن يولوه قنصلا فامتنعوا .

كان انطونيوس ينتصر لقيصر كي يحل محله ، فلما ظهر اكتافوس حسده ، وكادت الحرب تقع بينهما ، ولكنهما اصطلحا ورضا اليهما ثالثا هو لبدوس ، وكان واليا على الغاليا ، اقتسم هؤلاء المملكة بينهم لمدة ثلاث سنوات ، ووافقت الامة على ذلك بالانتخاب العام ، وذلك سنة (42) ق.م .

ثم أن انطونيوس ذهب الى مصر التي كانت له ، واستهوتها كليوباتر ⁽¹⁾ فشغل بها عن الملك . وصار ينوي احداث مملكة شرقية يورثها ابناء عشيقته ، وبذلك زالت ثقة الرومان منه ، ولبدوس جعل رئيسا دينيا ، فبقي اكتافوس يدير مملكة رومة وحده ، لا ينافسه الا انطونيوس صريع تلك الغانية وفاقد ثقة الامة .

نجح اكتافوس في سياسته ، وأراد انطونيوس الظهور عليه بالحرب ، فحاربه ولكنه لم ينجح فقتل نفسه سنة (30) ق.م وفعلت كليوباتر فعله ⁽²⁾ فاستراح اكتافوس من عدوه ، ثم قضى على

(1) يسميها ابن خلدون كلابطرة .

(2) وبموتها انقرض ملك آل بطليموس من مصر . وقد كان

تولاه بطليموس الاول سنة (323) ق.م .

الجمهورية التي عاشت خمسة قرون ، وقال ابن خلدون : عاشت
سبعة قرون .

في سنة 27 ق.م لفظت الجمهورية النفس الأخير ، وسمي
اكتافيوس امبراطورا ، وتلقب اغسطس ، واستمرت الدولة الرومانية
من عهده امبراطورية ، ومعنى امبراطور صاحب الامر .

والجزائر لم يستول عليها الرومان استيلاء عسكريا الا على
عهد الامبراطورية .

4 — ديانة الرومان

للرومان آلهة عظمى عامة ، وآلهة صغرى خاصة بالامر أو
المنازل ، فكانوا يعبدون القوى الطبيعية والنار المقدسة والموتى من
أسلافهم ، وعبادة الموتى هي العبادة الخاصة بالاسر ، ويعتبرونهم آلهة
خير ما نشطوا لعبادتهم ، وقربوا لهم القرابين ، وان هم قصرُوا في
ذلك انقلبوا آلهة شر ، ويمثلون أرواحهم في الديدان ، فيطعمونها
القول الاسود .

ومن آلهتهم العظمى جوبيتر (كوكب المشتري) ، وهو إله
المطر ، ومنها جونون ، وهي الهة النور والزواج ، ومنها منيرف ،
وهو إله الفطنة ، ولهذه الثلاثة برومة معبد مشترك بينها ، ويعتقدونها
حامية رومة .

وهناك آلهة للحرب والبحر والمعادن والفلاحة والتجارة والاخلاق
وغير ذلك ، ويبلغ عدد آلهة الرومان مائة وستين الها .

أولئك الآلهة يستغيثون بها ويستعينونها في جميع شؤونهم .
وهم أكثر الامم اعتناء بالآلهة ، فقد كان ببعض معابدهم ثلاثين ألف

ثمثال « حتى قال أحدهم : « وطننا مملوء آلهة حتى أن وجود اله أيسر علينا من وجود رجل » •

ولم يكن للديانة الرومانية حقائق واصل للعبادة ، وانما كانت ذات أعمال مثل تقريب القرابين ، وغايتهم في العبادة الاستعانة على النصر أو الاستعانة لتصريف المصائب •

ولم يكن لآلهتهم أولا تماثيل ، ثم تأثروا بالاغريق ، فصاروا يتخذون لها تماثيل في صور بشرية •

وعلى كثرة آلهتهم اضافوا اليها آلهة أخرى مما وجدوه لدى الامم التي استولوا عليها ، فأخذوا من آلهة المصريين وأهل آسيا الصغرى ، ولم يدعوا الها من آلهة الاغريق الا عبدوه •

وكان علماء الرومان يرون ان الارباب المختلفة باختلاف الامم ليست الا مظاهر لأصل رباني عام • لذلك لم يأنفوا من عبادة آلهة الامم المغلوبة لهم ، ولم يلزموها بعبادة آلهتهم • وقد اشتهر الرومان بالتسامح الديني والتساهل في شأن الآلهة •

5 — الحياة الرومانية

كانت الحياة الرومانية — منذ عرف الرومان الى القرن الاول للميلاد — حياة بساطة لا رفاهية فيها ، حتى ان من عظمائهم من كان يحرق بيده ، وأكثر أثاث عظمائهم بسيط وأوانهم من خشب •

تمكنت روح البساطة منهم فلم تتغير حالتهم حتى بعد استيلائهم على الاوطان الكثيرة الغنية بنتائجها الراقية في حضارتها • فبقوا فلاحين أو جنديين أو سياسيين لا تجارا ولا فنيين ، وبقيت الصنائع والنموت بيد غيرهم من الاحرار والمماليك •

كان غرض الرومان من الحياة توسيع الثروة جبا في المال نفسه .
ومن كلمات كاطون أحد عظمائهم : « ان من مات والفني بدفاتر
حاصلاته انه ربح أكثر مما ورث فذلك ملهم من الآلهة » ⁽¹⁾ .

ولكثرة اشغالهم وشدة عنايتهم بكسب الثروة صاروا أقل الامم
جبا في الملاهي وابعدها عن التظاهر بالعظمة .

ملابسهم كانت خشنة : يلبس الرجل السراويل وقميصا سابغا
بأكمام وبغيرها . ونسأؤهم يكثرون من الحلي وضروب الزينة كصبغ
الشعر وطلاء الوجه ، ويخرجن سافرات ، ويلبس كل من الرجل والمرأة
خفافا غلاظا .

ولللخاسة لباس يميزهم : الشيوخ لهم قمصان ذات حواش
حمراء ، والقضاة لهم خفاف حمر ، والاحرار لهم حلة من الملف
الايض ، وهي رداء غير مربع ، يبلغ طوله نحو تسعة أذرع .

ولم يزل الرومان على بساطتهم في اللباس حتى ان الامبراطور
قليغولة غار من لباس بطليموس ملك موريطانيا البربري وبهت منه
العامة ، وافضت الغيرة الى الانتقام بالسجن ثم القتل ، فمات بطليموس
شهيد لبسته !

ومساكنهم كانت خشبية مطينة ، ثم ترقوا قليلا فبنوها بالحجارة ،
ولم تكن لها نوافذ لعدم معرفتهم لصناعة الزجاج . وعلى خلوها
من النوافذ كانت ضيقة متقاربة ، والانهج غير واسعة ولا منظمة ،
والنظافة قليلة ، والضوء معدوم ليلا .

وكانت لهم بناءات عمومية ، وهي أرفع من بناء مساكنهم .

(1) ماليت ص 330

لم يزل الرومان كذلك على بساطة حياتهم حتى فتحوا البلدان .
 واستولوا على الامم ، وأقاموا بين ظهرائهم ، وطالت معاشرتهم لهم .
 اذ ذاك تأثر الغالب بالمغلوب وجاراه في حياة النعيم والرفاهية . وفي
 الحقيقة ان المغلوب لا يؤثر في الغالب ، وانما أثرت تلك الامم في
 الرومان لانهم مغلوبون لها في العلم والحضارة .
 أخذوا عن اليونان وأهل المشرق الملابس الرقيقة . وزينوا
 البيوت بالتمائيل والرخام والحجارة النفيسة ، وفرشوها بالزرايب .
 وأكثر ما تأثروا في حياتهم بالاغريق ، ومع ذلك لم يأخذوا عنهم فنههم
 في البناء . ولم تزل آثار البناءات الرومانية دالة على فقد الذوق
 اللطيف للرومان ، وهي تمتاز بأنها عظيمة ذات أقواس . بسيطة ليس
 فيها تحسين .

6 — الرومان في افريقية

انتهت الحرب البونيقية الثالثة بالقضاء على مملكة قرطاجنة
 وتخریب تلك العاصمة وحلول الرومان محل القرطاجنيين ، فاستولوا
 استيلاء فعلياً على التراب الاصلي لقرطاجنة ، وأطلقوا عليه اسم
 « مملكة الرومان بافريقية » وجعلوا على هذه المملكة أو الولاية والياً
 مقره عوتيفيه .

وهذه الولاية عبارة عما بين وادي توسكا (ناحية طبرقة)
 شمالاً ، ومدينة تينة (جنوب صفاقس) جنوباً . وخطها الغربي
 من جهة نوמידيا غير مستقيم فانه يمر من توسكا حتى يقترب من
 قفصة ثم ينحني حيث ينتهي في تينة قرب البحر . فهي عبارة عن جزء
 غير كبير من عمالة تونس .

ولم تكن تضمع الجمهورية الرومانية اذ ذاك في توسيع هذه

الولاية وبسط نفوذها الفعلي على الشمال الافريقي ، لعلمها بشجاعة البربر وحماستهم في الدفاع عن وطنهم ، وجهلها بدواخل هذا الوطن ، فاكنت باعتراف ملوك البربر بالسيادة الاسمية ريشا تلين قناتهم ، وتضعف شوكتهم .

وكانت الجمهورية لما فتحت قرطاجنة بعثت عشرة من الاعيان لينظروا مع سبيون في مصير قرطاجنة ، فاتفق رأيهم على هدم ما أبقاه الحريق منها فتركوها قاعا صفصفا كان لم تغن بالامس ، ولعنوا باسم آلهتهم موضعها ، ولكنهم بعد قليل اضطروا لتجديدها .

وذلك ان ايطاليا ضاقت باهلها بسبب استحواذ طبقة الاغنياء على أراضيها وجلب العبيد لخدمة تلك الاراضي ، ويقال : ان عدد هؤلاء العبيد بلغ ثلاثة ملايين . وأصبح عدد عديد من الايطاليين لا اراضي لهم يستغلونها ولا عمل يشتغلون به ، حتى انه كان برومة أكثر من اربعمائة الف لا عمل لهم غير الجولان بالازقة .

وكان كايوس انتخب للمحامات عن الشعب سنة (123) فاقترح — لرفع هذه الازمة — ارسال جاليات من أولئك الفقراء من المال والعمل الى الولايات الرومانية .

وكان روبريوس من محامي الشعب ايضا فاقترح سنة (120) ف.م . تجديد قرطاجنة وارسال طائفة من فقراء الشعب لتميرها .

قبل الشيوخ اقتراحه ، وعين كايوس لتنفيذه ، فجاء الى قرطاجنة بستة آلاف ايطالي ، ومكث في تجديدها ثلاثة أشهر ، وحينما تم تجديدها أطلق عليها اسم « جونونيا » تبركا باسم جونون وجعلت هي حامية قرطاجنة .

وكما ان هدمهم لمدينة قرطاجنة لم يذهب بها وحييت من جديد

كذلك تغييرهم لاسمها فان تسميتهم لم تراحم الاسم الفينيقي ، وابى الله الا أن يبقى الاسم الاول هو المعروف المشتهر .

نهضت قرطاجنة من جديد وقصدها الرومان بالهجرة ، وانضموا الى بقية العساكر الرومانية التي استوطنت افريقية ، وبما انهم نسخوا القرطاجنيين وحلوا محلهم استفادوا من علاقات القرطاجنيين مع البربر ، فانبثوا في مدن الولاية الافريقية ونوميديا ، وانتصبوا فيها للتجارة والصناعة ، فتمكنوا بذلك في افريقية .

7 — استيلاء الرومان على الجزائر

بعد واقعة طبسوس سنة 46 (ق.م) استعمر الرومان شرقي نوميديا واطلقوا عليها اسم افريقية الجديدة أو نوميديا الحديثة ، ومنحت نوميديا الوسطى (قرطة والمدن التابعة لها) لستيوس . واطلق عليها اسم « مستعمرة ستيوس » .

ولعل الرومان أرادوا أن يجعلوا حكم ستيوس لنوميديا الوسطى دور انتقال يسهل عليهم اضافتها الى مستعمراتهم من بعد ، ولكن عراييون قتل ستيوس فحرم الرومان من هذه المستعمرة . واصبحت من بعد ذهاب الملكة البربرية ولاية رومانية لها أنظمتها وادارتها ، متمتعة بالاستقلال حتى أن من المؤرخين من يعبر عنها بالدولة ومنهم من يعبر عنها بالجمهورية .

اما نوميديا الغربية (قسم سطيف) فقد بقيت بيد عراييون البطل البربري . والظاهر ان رومة اضافتها الى مستعمراتها بعد قتله .

وأما موريطانيا الشرقية فقد بقيت بيد امراء بربريين آخرهم

بوكوس الثالث المتوفي سنة 33 (ق.م) . وبعد وفاته ألحقها الرومان بمستعمراتهم ، وجعلت تحت نفوذ اكتافيوس مباشرة ، وأراد ان يفرس بها الحضارة اللاتينية ، ولكنه خشي شدة شكية البربر ، فلم يعجل بتنفيذ برنامجه ، وتظاهر للموريطانيين باللفظ والمجاملة حتى وجد رجلا من بني جنسهم ولكنه مخلص لرومة ، فولاه على موريطانيا سنة 17 (ق.م) .

هذا الرجل البربري الروماني هو يوبا الثاني الذي مهد وطنه لسادته الرومان وشجعهم على امتلاكه بعد ما حاولوا ذلك منذ أزمان ، واشترأت أعناقهم اليه فلم يقووا على تحقيق آمالهم فيه .

وهكذا لولا الخيانة الجنسية من بعض الرؤساء وضعف الغيرة القومية من الامراء ما حكم أجنبي وطنيا ولا ساد غريب أهليا .

في سنة (42 م) بعد قتل بطليموس ألحقت موريطانية برومة نهائيا . وبذلك تم للرومان الاستيلاء على الوطن الجزائري الذي شرعوا في تحقيقه منذ سنة 46 ق.م فكانت مدة سير استيلائهم ثمانية وثمانين سنة .

ومع بقاء هذا السير فانه لم يكن ثابت القدم عاما على الوطن الجزائري فان الرومان لم يتقدموا لهذا العهد الى الصحراء ، وخط حدودهم يقترب من البحر كلما تقدم ناحية الغرب . وتوجد داخل الحد أماكن غير خاضعة لرومة منها جمهورية المدن الخمس : قرطبة ، ميلوم ، روسقاد ، شولو ، قويلطوم . ولم تدخل في فوضى الاستعمار الروماني الا منذ انحل اتحادها أواخر القرن الثالث . ومنها القبائل الخمس (القبائل) الذين كان الرومان يسمون وطنهم « جبل الحديد » (MONS FERRATUS) .

ولم يتمكن الرومان من اخضاعهم الا سنة (297) . وأكثر البربر

الساكين بالجمال لم يخضعوا لرومة • ومن خضع منهم لا يضيع
فرصة الثورة مهما سحت •

وخلاصة الكلام ان الرومان لم يستولوا حقيقيا على كل الوطن
الجزائري رغم امتداد ايامهم به • وسترى ما ينير لك الحقيقة •

8 — حدود حكومة الرومان بالجزائر

كان من عادة الرومان أن يحدوا ما يفتحون من البلدان اما
بحدود طبيعية أو صناعية : فيحدون بالجمال واللاودية أو ببناء
جدران أو حفر خنادق وجعل كثبان من الرمل أو التراب خلفها •
وذلك اتقاء لهجمات الهاجمين وحفظا لمستعمراتهم ان تروج بها بضائع
أجنبية وهم لا يشعرون •

وقد كان حد حكومة الرومان بالجزائر في القرن الاول للميلاد
يمر شمال أوراس ويجتاز سهول سطيف ومجانة الى سور الغزلان ثم
يتوسع قليلا فيمر بالبرواقية وساحل شلف ويجتاز وادي ميناى الى
ناحية غليزان ووادي سيك • وفي غربي وهران يقترب جدا من البحر
ويتمى بمصب فهو ملوية •

وبعد حين اضطر الرومان الى تقديم الحدود جنوبا • وكانت لهم
مراكز عسكرية على الحدود • وبعد سنة مائة بقليل تقدمت مراكز
الحراسة الى الجنوب ، وأحاطوا جبل أوراس الممتنع عليهم بالحصون •
ولم يتم لهم فتحه الا أواخر القرن الثاني •

وفي بداية القرن الثالث كان الحد الروماني مارا جنوب أوراس
وشاطئ وادي جدي الايمن ثم يصعد شمالا فيمر وسط جبال الزاب
ويقطع وادي الشعير حيث القاهرة ، والمظنون انه يمر بناحية بوسعادة

ويشتمل على الحضنة من جهتها الغربية ، ثم يذهب الى قرب سور
الغزلان جنوبا ، ويمر ببوغار وتيهرت وتلمسان وللامنية •

وقد يكون للحرس الروماني نقط حربية خلف الحدود ، وقد
تقدموا بها في بعض الجهات الى الصحراء حتى أن منها ما كان على
الاعواط بثلاثين ميلا •

ولم يدخل الرومان الصحراء الا في عمالة قسنطينة دخلوها من
ناحية أوراس • أما عمالتا الجزائر ووهران فليس للرومان فيها
الا الجهات التالية المبر عنها بموريطانيا القيصرية ، وبقيت الصحراء
في منجاة من تسلط الرومان • ذلك لانهم أولا ليسوا بأمة صحراوية
حتى يقدروا على فتح الصحراء أو تشتد رغبتهم في فتحها ، وثانيا
لم تكن الجهات التالية خالصة لهم فلم يكونوا مطمئنين منها حتى
يفرروا بانفسهم في الصحراء •

9 — جند الاحتلال

اعتمدت رومة في فتح الشمال الافريقي على ثلاثة أشياء :

1 — السياسة الملعونة : فقد كانت تذكي نار المنافسة بين ملوك
البربر ، وتعمل لتفرقة المملكة الواحدة بين الامراء المتنافسين ، واضعاف
الغيرة القومية بمحاربة ابطالها •

2 — الاستعانة ببعض البربر ضد الآخر : فان سياستها لما راجت
على بعض رجال البربر من ملوك وأمراء صاروا يخدمونها ويعينونها
على اعدائها أجباء الاستقلال • وكلما أرادت رومة رجلا بربريا يخدم
مصالحها لم تعدهم ، لان الشعوب لا تخلو من خونة • فكان لرومة
ملوك وأمراء بربريون مصافون لها أو مغترون بسياستها أو خائفون

من عظمتها • وقد استفادت رومة من سياستها تلك واعانة بعض البربر لها فوائد لا تقدر الجيوش الجرارة على تحقيقها ، بيد أنها لم تفز بها الا بعد أزمان لان مطامعها في الجزائر ابتدأت منذ عصر مصينيسا ولم تستول عليها ذلك الاستيلاء المثقوب الا بعد بطليموس •

3 — الجند الروماني : فان رومة مهما اضطرت للحرب جاءت بجنودها والجندي الروماني معروف باخلاص الطاعة والصبر على الاتعاب • ولم تحتج رومة في فتح الوطن البربري الى جيوش كثيرة لانها لم تجد أمامها جيشا منظما تنظيم جيشها الا في حرب زامة وحروب يوغورطة وتقفاريناص •

ولم تكن لتأمن وثورات البربر لا سيما واستيلاؤها على الوطن الجزائري غير عام ولا ثابت الاركان • فاتخذت حامية بتبسة تراقب البروقنصلية (تونس) ونوميديا (قسنطينة) ، وحامية لمراقبة موريطانيا الشرقية (الجزائر ووهران) وموريطانية الغربية (مراكش) •

أما حامية تبسة فتدعى « الفرقة الثالثة الاغسطية » نسبة الى اغسطس قيصر • وكان بها ستة آلاف جندي وفي رواية (5500) وهذه هي الفرقة الكبرى وهناك فرق أخرى مشاة وفرسان يبلغ جميعها نحو ثلاثة عشر الفا ، وهذه الفرق مدد لتلك الفرقة •

وتلك الفرقة الثالثة رومانية من خيرة جنود رومة ، وبها كثير من الغاليا ، وبعد حين صار الرومان يعلمون البربر ويجندونهم • ومنذ الثلث الثاني من القرن الثاني استغنت رومة بجنود البربر عن جلب الجنود من الخارج الى الفرقة الثالثة ، فصارت هذه الفرقة متركبة من جنود البربر وابناء قدماء الجنود الرومانية •

وأما الفرق الصغيرة فكانت أيضا تجلب من الخارج ، وبقي الامر كذلك حتى بعد دخول البربر في الفرقة الثالثة •

وفي سنة (122) نقل الامبراطور هدریان مركز الفرقة الثالثة من تبسة الى لمبس • وفي أيام ديوقلطيانس صارت لمبس قاعدة عسكرية للجنوب النوميدي •

وبطول عهد هذه الفرقة ودخول البربر فيها وكثرة الاضطرابات برومة نقصت طاعتها لرومة ، وقد تعارض في امباطورية بعض ، وتؤيد بعضا • والغيت سنة (238) وعوضت بالفرقة الثانية والعشرين •

وأما حامية الموريطانيين فكان عددها نحو خمسة عشر الفا • وهي من البربر المخلصين لرومة •

فمجموع جيش الاحتلال بتونس والجزائر ومراكش نحو (34000) ليس به من الجنود الرومانية غير نحو (8000) •

الجنود الرومانية تحارب وقت الحرب وتشتغل بالفلاحة حين السلم • يسمح القانون الروماني للجندي بالزواج ، وكانت لهم مرتبات حسنة • والمتقاعد يعطى كفايته ويسكن قرب المركز الذي كان به ، ويمنح اراضي وحيوانات يقوم بخدمتها ، ويعفى من الضرائب لكن بشرط أن يحل أحد من أبنائه محله •

وبهذه الطريقة أصبحت الحدود عبارة عن مستعمرات من الجند تحول دون غارات الهاجمين • وكان خط الحدود مقسما الى أقسام كل قسم تحت حراسة ضابط •

وفي حوالي سنة (200) اذن الامبراطور سبتيمس سورس للجنود

بالبقاء مع أزواجهم خارج المراكز العسكرية بصفة مستمرة • فصارت تلك المراكز اما مواضع لتدريب الجند واما مخترنات للسلاح والمؤن • ولحسن ذلك النظام في حفظ الحدود بقي الحد الروماني الذي بلغوه في القرن الثالث بحاله رغم الثورات المتعددة داخله • واستمر غير متأثر بما يجري داخل المملكة حتى سقط الحكم الروماني من الجزائر •

10 — النظام الروماني بالجزائر

علمت ان استيلاء الرومان على الجزائر كان تدريجيا وغير ثابت الاركان • لذلك لم يستقر النظام الروماني بالجزائر على حال •

كان ما أخذه الرومان من نوميدا — على عهد يوليوس قيصر — تحت ولاية سالوست • وبقيت نوميدا كذلك لها واليها غير والي البروقنصلية ، ومن هؤلاء الولاة سكستوس نائب اكتافيوس ، واخيرا تغلب على والي البروقنصلية و اضافها الى ولايته • ثم عزل على عهد اكتافيوس نفسه وجعل مكانه فانفو على نوميدا خاصة ، وولي هو على البروقنصلية ، فوقت بين هذين الوالين معارك انتهت بانتصار سكستوس وقتل فانفو نفسه • وأصبح هذا المنتصر هو الوالي الوحيد بجميع ممتلكات رومة بافريقية •

ثم في عهد امبراطورية اكتافيوس ايضا سمي يوبا الثاني على نوميدا • ثم نقل منها الى موريطانيا سنة (17) واضيفت نوميدا الى البروقنصلية وجعلتا تحت عامل يسميه مجلس الشيوخ •

وفي سنة (37 م) على عهد غليقلا تركت البروقنصلية على نظامها العتيق وجعلت نوميدا ذات وحدة ادارية يرأسها ضابط عسكري في

رتبة عضو بمجلس الشيوخ • وهذا الوالي يخاطب رومة من غير واسطة • وهو تحت نظر الامبراطور ويلقب ليغاتوس •

وفي سنة (42) قسم الامبراطور قلوديوس الجزائر الى قسمين :

نوميديا ، من طبرقة شرقا الى مساعا غربا ، وموريطانيا القيصرية من مساعا شرقا الى ملوشات غربا •

وجعلت موريطانيا القيصرية تحت نظر الامبراطور يسمى بها العمال ولهم تفويض في الادارة • وكان لنائب الامبراطور بموريطانيا القيصرية مرتبا يقدر بنحو اربعين الف فرنك •

وقد كان بالشمال النوميدي مدن مستقلة كما كانت جبال جرجرة متمتعة عن الرومان • وفي سنة (297) بعدما انحلت الصلة بين هذه الجمهوريات ، وعت بها الفوضى ، وتغلب ديوقليانس على جبال جرجرة حدث تغيير في نظام الحكومة الرومانية بالجزائر فقسمت الى أربعة أقسام :

- 1 — نوميديا القرطية (وهي الشمال النوميدي) قاعدتها قرطه •
- 2 — نوميديا العسكرية (وهي الجنوب النوميدي) قاعدتها لمبس •
- 3 — موريطانيا السطيفية (ما بين مساعا وصداي) قاعدتها سطيف •
- 4 — موريطانيا القيصرية (ما بين صلداي وملوشات) قاعدتها قيصرية •

ولما ثبتت قدم قسطنطين بامبراطورية رومة أحدث سنة (323) تغييرا في الولايات الامبراطورية ، فقسمها ثلاثة أقسام كبرى :

ولاية ايطاليا ، ولاية الغاليا ، ولاية المشرق • وجعل تونس

والجزائر تابعتين لولاية إيطاليا ، وتداران من طرف واليها المقيم برومة . وهذا الوالي تحته وزراء : وزير للمالية ووزير للإملاك الدولية ووزير للحرية ، وكلهم برومة ولهم نواب يمثلونهم بأفريقية : فكان للوالي يمثلُه قنصل أفريقية ، ووزير الحرية يمثلُه :

- 1 — كونت أفريقية ، ولم 16 قائدا على الجنود المراقبة بالحدود الجنوبية والفرق المتنقلة (الكونت : عين من الاعيان) .
- 2 — دون موريطانيا القيصرية وله 8 قواد . وقد تكون بيد السلطة المدنية (دوق : شريف) .

ولم تكن هذه التقاسيم مبنية على اعتبارات جغرافية ، وانما نظر فيها الى المصالح الحرية ، ولذلك تغيرت حسب الظروف .

وبما ان الاستيلاء الروماني لم يكن عاما فقد كانت المدن تنقسم الى قسمين : مدن تحت السلطة الفعلية للرومان ، ومدن لم تتمكن منها اليد الرومانية . والاولى كانت على ثلاث درجات :

- 1 — مدن رومانية : هذه معتبرة كوطن روماني ، أهلها يتمتعون بكل الحقوق الرومانية ، ينتخبون ومعفون من الضرائب .
- 2 — مدن بلدية (MUNICIPES) . هذه لها كل الحقوق الرومانية ما عدا الانتخاب .
- 3 — مدن لطينية : لها حرية التجارة والتملك ، وليس لها حق الانتخاب والاعفاء من الضرائب ، وانما هذان الحقان لخصوص المتقاعد من حكامها .

والثانية كانت على ثلاثة أقسام أيضا :

- 1 — مدن معتبرة حليفة للرومان .
- 2 — مدن حرة .
- 3 — مدن معفاة من الخراج .

وهذه الاقسام للنوع الثاني من المدن تختلف ادارتها : فمنها ما هو محافظ على شكل الادارة البونيقية لها حكام وقضاة ومجالس من الاعيان ، ومنها ما هو تحت رؤساء بربريين يعينهم الامبراطور ويمنحهم رداء يدعى « رداء الولاية » وقد يعطيهم اعانات ويوجب عليهم حراسة ما بجوارهم من الحدود • وقد تسمح رومة لبعض هذه المدن بانتخاب مجالس بلدية •

ورئاسة الرؤساء البربريين على بني جنسهم وراثية ويدعون اما عمالا أو أمراء ، وقد يلقبون انفسهم بلقب ملك •

اما المدن الرومانية فكانت تنتخب كل سنة حكامها • وهؤلاء الحكام يتصرفون في مالية البلدة ويقومون باصلاح القناطر والطرق والبناءات العمومية ويقبضون المغارم ويسهرون على حفظ الامن العام ويقضون بين الناس •

والى جانب الحكام مجلس بلدي يعينهم ويراقب أعمالهم ويشترط في العضو بهذا المجلس ان يبلغ ثروة محدودة اقلها قانونا ، وان يدفع للميزانية البلدية من ماله قدرا من المال • ولا مرتب له •

وأعضاء هذا المجلس ضامنون في مالية البلدة التي يتصرفون فيها • واذن فادارة المدن كانت بيد طبقة مثرية قليلة العدد •

وكان نطاق أكثر البلديات واسعا جدا : بلدية هبون (بونة) كانت تمتد غرب المدينة ثلاثين ميلا ، وشرقها خمسين ميلا •

وكانت للامبراطور ورجال من أعيان الشيوخ أملاك واسعة مستقلة عن تراب البلديات • يقوم بحفظ تلك الاملاك وكلاء عن اربابها • والوكيل على أرض هو الحكم على من بها والقائم بحفظ الامن فيها • ولسكان تلك الاملاك نواب يختارونهم للدفاع عن حقوقهم •

وبهذا تعلم ان الدولة الرومانية لم تكن تتداخل في ادارة شؤون الجزائر الداخلية ، ولا مكثرة من المتوظفين الذين لا فائدة فيهم غير ائثال كاهل الميزانية . بل انها تركت الدوائر البلدية وشأنها تدير أمورها بنفسها ، ولم تتخذ من الموظفين الا العدد القليل للقيام بالشؤون الهامة . وكان الوالي لا يتداخل — بصفة قانونية — في شؤون المدن الرومانية الا في الخصومات المدنية الهامة والجرائم ، فهو الحكم في ذلك ، وله مراقبة المالية .

II — جمهورية المدن الخمس

كانت قرطبة عاصمة الملوك النوميديين منذ القرن الثالث قبل الميلاد . وقد اعتنى بها بعض أولئك الملوك فرقوها ترقية عالية .

ميلوم (ميله) وروسقاد (سكيكدة) وشولو (القل) وكويكلوم (جميلة) ، هذه المدن يقول عنها المؤرخ بلين : انها كانت أولا قلاعا حربية ، وأخذ عمرانها يتسع حتى أصبحت في عهد طريافاس امبراطور رومة (98—117 م) شبيهة بقرطبة .

وكانت هذه المدن تحت الملك النوميدي . وبعد واقعة طبسوس انفصلت تلك المدن الخمس عن بقية نوميديا حيث ان يوليوس قيصر منحها لستيروس يستعمرها بجيشه المتركب من الاسبان والايطاليان . واشترط عليه أن يقطنها الرومان . وفي أوليتهم من نصره في حرب افريقيه من الجنود . ومن هنا سماها بعض مؤرخي الرومان « مستعمرة ستيوس » .

انفصل من عهد ستيوس هذا القسم الواسع الخصب من نوميديا فلم يصر مرتبطا بها في السياسة والادارة حتى أن يوبا لما ولي على نوميديا لم يعرف له نفوذ بهذا الشمال النوميدي .

وقد كانت قرطة هي العاصمة لهذا الشمال ، وتلك المدن الاربع تابعة لها وجزء منها •

ومن القرى التي كانت تابعة لقرطة في النظام والحكم : ثيدي (الخنق) ، ارسقال (عين الكرمة) ، مستار (عين بني زياد) ، وزيلي (وجل) ، صدار (عين الباي) ، سيلة (سيقوس) •

وعلى القرى رؤساء منخرطون في سلك متوظفي قرطة ، وقد استقل بعضها على عهد سبتس سويس وخصوصا على عهد قراقلا •

وبعد استعمار الرومان لهذا الشمال التوميدي بقليل ظهرت تلك المدن الاربع بفضل انتشار العمران ، وأصبحت تضاهي قرطة • وأخذت نظاما داخليا مستقلا مع بقائها متعلقة بقرطة •

وكانت جميلة دون بقية المدن الاربع • بل قليلا ما تضاف اليهن • وسبب امتياز هذا الوطن عن بقية نوميديا واختصاصه بنظام صار به كملكة مستقلة انه كان تحت رئاسة ستيوس ناصر قيصر ومغلبه على اعدائه الاقوياء الكثيرين •

وسبب اتحاد قرطة وميلوم وروسقاد وشولو انه حدث خلاف بين سكان هذه المدن الاربع على بعض الاراضي أيام أغسطس قيصر • وكان القرطيون قد أعانوه على عدوه ومنافسه انطونيوس ، فكانت لهم بذلك عليه يد • فلما رفعت صورة الخلاف اليه لم يشأ أن ينصف أهالي المدن الثلاث من أهالي قرطة ، ولكنه أصلح بينهم وعقد لهم محالفة رباعية ، وجعل لكل مدينة ادارة شؤونها الداخلية على أن يكون لقرطة فضل الاشراف على الجميع • فكل مدينة تضرب الضرائب وتجيبي الغرامات وتصرفها في مصالحها ، ولكن رئيس قرطة هو

المراقب لاعمال سائر المدن ، ويساعده في بعضها مجلس بلدي ، وفي بعضها مجلس من المتوظفين حيث لم يكن لها حق الانتخاب .

وتدار هذه المدن المتحالفة على ايدي رجال تنقسم وظائفهم اربعة اقسام :

1 — الرجال الثلاثة (تريومفير) • لهم من النفوذ ما لقناصل رومة وينتخبون لمدة سنة فاتحتها يولييه • والمرشح يعلن قبل الانتخاب مباديه ، ويرأس جلسة الانتخاب من الرجال الثلاثة المنتخبين سابقا أكبرهم سنا • وهذا الرئيس ينظر في المترشحين واستيفائهم للشروط • ويعلن بقبول اجراء انتخاب المستوفي لها • ومن انتخب لا يقبل تسليمه •

والرجال الثلاثة يتولون قيادة الجيوش وفصل النوازل بأنفسهم أو بمن يقيمونه نائبا عنهم ، ويدهم نظام الادارة بأسره ، وكونهم ثلاثة هو الغالب • وقد يبلغ عددهم أحيانا خمسة أو سبعة أو عشرة أو خمسة عشر أو عشرين • وهم اما من أعيان الرومان أو ممن كان قنصلا برومة •

2 — رجال الشرطة (الايديل) • وظيفتهم الخاصة بهم مراقبة البناءات العمومية والحمامات الدولية ودخلها والمحافظة على نظافة الشوارع وجلب الحبوب الى المدينة وتشكيل الحفلات ومراقبة الامن بالاسواق والموازين والمكايل وتأديب المعتدين بالجلد أو بالتعزيم • ويرأس هذه الوظيفة رجلان يضع كل منهما خمسة آلاف ضمانا •

3 — وزير المالية • يقوم باستخلاص المغارم ، ويقدم لرجال الشرطة المال عند عروض داع اليه • وهو الرئيس الاعلى لادارة المالية • ولا يوجد ما يدل على انه كان ملزما بوضع ضمان عند توليته •

4 — العمال • كانت وظيفتهم في بلدان الجمهورية ما عدا قرطبة • وهم بمثابة الرجال الثلاثة في قرطبة • والظاهر ان يكون منهم لكل مدينة واحد • وينتقل العمال في المدن الثلاث من واحدة لآخرى •

وهناك متوظف غير من سبق يلقب « كورتور » (CURATUR) يسيه الامبراطور • وقوة نفوذه تابعة لقوة نفوذ الامبراطور في البلد الذي سماه فيه • ولم يكن للامبراطور قوة في هذه الجمهورية الا بعد انحلالها ومجيء البيزنطيين • فصارت وظيفته اخيرا قبض الخراج والقيام بجل الوظائف البلدية •

وكما كان لسياسة هذه الجمهورية رجال كان لديانتها أيضا رجال، وهم أقسام :

1 — القائمون على الهيكل بذبح قرابينه وتقديمه لناره • واقدارهم مختلفة باختلاف عظمة الهيكل القائمين عليه • ولا يكون القائم على الهيكل الا من بيت شريف • ويعتبر هو وذريته وماله وفقا على خدمة ذلك الهيكل •

2 — المراقبون للاعمال الدينية اينما كانت ما عدا القرابين التي هي أهم تلك الاعمال •

3 — العرافون • يتولون افراخ الدجاج لزجرها ومعرفة الحوادث الغيبية منها • ويتفرسون أيضا في الضحايا ، نظير ما يوجد اليوم في بعض الافراد من خصوصية معرفة الحوادث بالنظر في عظام أكتاف الحيوانات • فهي من بقايا الوثية •

4 — المرشدون • يقومون بارشاد العامة الى وجوه عبادتها • وكل كبير أسرة يعتبر مرشدا لاسرته • وهذا في نفسه حسن ، فقد قال (ص) : « فالرجل راع على أهله وهو مسؤول عنهم » •

ولعنائيتهم بالسياسة عنايتهم بالدين كانت دار الامارة حيث هكل
الاله العظيم « جوبتير » • ومكانها بموضع القصبة اليوم • وهي
بذلك الموضع من لدن الملوك النوميديين •

قال بارس : « وهي معمورة بالذخائر • وقد وجدت قطع
رخامية تشتمل على حصر تلك الذخائر ، عثر عليها عندما أراد الاتراك
بناء قسنتهم⁽¹⁾ • وقيمة هذه الذخائر مناسبة لما كانت عليه قرطة من
الثروة والرفاهية » • ثم أخذ في تعدادها • ولكثرهما اكتفينا بالاشارة
اليها محيلين محب الاطلاع على أشخاصها على كتاب قرطة (CIRTA)

وقد كان السكان في هذه الجمهورية على طبقتين : أهل الحقوق
وغيرهم • الاولون هم من كانت لهم حقوق أصالة أو وراثة أو منحتهم
بلديتهم ذلك تشريفا لهم أو تبناهم أهل الحقوق أصالة • والاخرون
هم الاجاب الذين استقروا بوجه نهائي بمدينة من المدن • وهناك طبقة
لا حقوق لها أصلا وهم الاجاب الذين يحلون بالمدينة حلولا مؤقتا
من تجار وطلبة علم وعابري سبيل •

وفي كل خمس سنوات يعاد تقييد أهل الحقوق وضبط أملاكهم
وتجديد النظر في المغارم •

وكانت الطبقتان كلتاها تتحملان الواجبات البلدية على
السواء • وتختص الطبقة الاولى بأن عليها واجبات :

- 1 — القيام بالبريد والطرق
- 2 — استخلاص الغرامات وادائها •
- 3 — نفقات الوفود التي توجه الى رومة •
- 4 — ترميم المعابد البلدية •

(1) القشلة سكن الجنود • وليست عربية •

5 — التبرع على المشاريع البلدية ، مثل التمثيل • القائمون بهذه الواجبات متمتعون بالحقوق السياسية تماما • ويتتخب منهم في كل عمارة عشرة • ثم يجتمع هؤلاء المنتخبون في مجلس أعلى يكون هو الممثل للامة ، فيتولى جميع شؤونها من تسمية وعزل • وأصحاب هذا المجلس أنفسهم على طبقات مرتبة حسبما يلي :

1 — طبقة الديكريون • يختارهم الحكام (الرجال الثلاثة) من أمائل المنتخبين •

2 — طبقة العظماء • وهم من كان عضوا بمجلس الشيوخ أو قائد جيش بلغ درجة تسمح له بالركوب •

3 — لجنة الاعضاء الخمسة • وهم من كان له مرتبة أهل الطبقة الثانية غير انه لم يكن من العظماء السادة •

4 — المرافون •

5 — رجال الشرطة •

6 — أمناء المال البلدي •

ويشترط فيمن يكون عضوا بهذا المجلس زيادة على كونه من أهل الحقوق :

1 — أن يكون نظيف السيرة •

2 — أن يكون ذا مال يختلف تقديره حسب القانون الاساسي •

3 — أن يكون عمره (30) سنة ثم خفض الى (25) •

وظيفة الديكريون يمنحها صاحبها طول حياته ما دام حائزا على شروطها • وعددهم غالبا مائة وقد يزيد أو ينقص • ومنهم قسم يحافظون على الاعمال الدينية وعددهم اربعة عشر •

ولكون هذه الطبقة أعلى طبقة بالمجلس لا يصح شيء من أعماله الا بحضور عدد منهم • وأعمال هذا المجلس هي :

- 1 - تسمية المتوظفين على اختلاف طبقاتهم بعد انتخاب الامة .
- 2 - منح لقب « مولى » (السيد) لمن كانت له أعمال جليلة
اشتهر بها .
- 3 - تهيئة أعضاء الوفود التي ترسل الى رومة للاعراب عن
جور بعض الولاة .
- 4 - تعيين من يرأس جمعية الديانات الاجنبية .
- 5 - تجهيز الجيوش عند الاقتضاء .
- 6 - تعيين مقادير التبرعات الدينية .
- 7 - تحديد مقادير الضرائب البلدية .
- 8 - تنظيم الحالة المالية .
- 9 - محاسبة من كلف بشأن عام من طرف المجلس .
- 10 - تعيين لجنة تشتغل ببيان دخل المدينة وخرجها .
- 11 - النظر في البناءات هدمًا وتعميرًا .
- 12 - الامر بمطالبة من هو مدين للمدينة .
- 13 - تعيين أيام المواسم .
- 14 - الامر بالالعب العمومية مع تكليف من يتولى تنظيمها .
- 15 - الحكم النهائي فيما يتعلق بتحرير الارقاء وأرش التمديدات .
- 16 - امداد أهل الوظائف الخاصة بالنفوذ .

هذا نظام جمهورية المدن الخمس السياسي والديني ، قال بارس (VARS) في كتاب قرطة : « وقد كانت قرطة قرار نظام كاد يكون منفردا في امبراطورية رومة » . وكانت علاقة هذه الجمهورية مع امبراطورية رومة أشبه شيء بعلاقة الحامي مع المحتمي بأشرف معنى للحماية . بل عبر عنها بعضهم بملكة . وكان مبعوثوا الامبراطور للتجول في هذه الجمهورية واستطلاع أحوالها لا يتخذون شعارا

يميزهم • ولم يكن للامبراطور يد في نظام هذه الجمهورية الداخلي
مدة اتحادها •

ونحن هذا النظام عاش السكان تحته عيشة راضية وترقى
الوطن ترقيا عظيما وارفع شأنه في الحضارة وال عمران • وتقدمت به
العلوم والفنون والآداب • ونحن نثبت أبيانا قالاها صانع بقرطة لتنقش
على قبره وهي باللطينية ، وهاك تعريبها من غير تصرف :

« أنا المستحيل علي الكلام الآن أقص عليك حياتي في هذه
الايات :

تمتعت طويلا بالضوء النير وكنت « برسليوس » الصانع بقرطة

صفاء طويتي يضرب به المثل وكنت دائما صادق القول

كان ما عندي للجميع ومن ذا الذي لم أشفق عليه

دائم الابتسام تمليت دواما مع أحبائي في حياة مترفة

وبعد وفاة العفيفة صاحبة « فليريه » لم أجد مثلها

واحتفلت — بكل احترام — مائة مرة بعيد ازديادي

ولكن أتى اليوم الاخير الذي فيه تغادر الروح الجثمان البالي

وهذه الكتابة التي أنت قارئها قد هيأتها أثناء حياتي لماتي

التي أتاحها لي الحظ • وطالما رافقتني ولم يهملني

فاقف أثري واتل سبيلي على ما كانت عليه ثم انتني فما انا ذا منتظر

• هنا •

بلغ الناس في هذه الجمهورية مبلغا عظيما من البذخ والرفاهية
حتى حدثت قرى صغرى وطلبت نوعا من الاستقلال • فاعانها على

ذلك قياصرة رومة تفريقا للكلمة وحبا في النفوذ والاستبداد بالحكم
وكان رجال الوظائف بمكس العامة ذهبت ثروتهم بسبب ما كان يثقل
كاهلهم من النفقات البلدية •

فوجد قياصرة رومة في بذخ العامة وفقر الموظفين سبيلا للتدخل
في اشفاء هذه الجمهورية • فصاروا يفرقون كلمتها بتلبية طلبات
القرى الطامحة الى الاستقلال • ويضعفون نفوذ مجلس الامة بتعيين
الموظفين القيصريين مكان من عجز من أهل الوظائف البلدية عن القيام
بأموريته لفقره حتى اضمحل المجلس ووزعت أعماله على نواب
القيصرة وعمالهم •

وكان انحلال الاتحاد بين المدن في القرن الثالث • فان ميلموم
كانت تنازع قرطة في سيادتها وتجارها في عظمتها حتى استقلت عنها
وضمت اليها روسقاد وشولو • وآخر من تولى رئاسة هذه المدن
الثلاث رجل يدعى كمودس (COMMODUS) أصله من ميلة وكان
أحد الرجال الثلاثة بقرطة أيام اتحاد المدن •

فلما استقلت ميلة عن قرطة وجمعت اليها تينك المدينتين تولى
هذا الرجل رئاسة المدن الثلاث بميلة •

بعد انحلال ذلك الاتحاد وتداخل اليد القيصرية ساءت الاحوال
ونقص العمران وارتفع الامن • وما أصدق قوله تعالى : « ان الملوك
اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة • وكذلك يفعلون »
وبقيت قرطة لحصانتها محافظة على عظمتها حتى أن الوندال لم يقووا
على فتحها •

وكان بها كنيسة عظيمة للمسيحيين تخرج منها قسوس كثيرون
منهم دنتوس الذي أحدث في المسيحية مذهبا نسب اليه وضاد به
الكنيسة الكاثوليكية وفاز عليها في جميع التراب الجزائري •

بقي لقرطبة اسمها واستقلالها حتى ذهب الاثنان على يد
قسطنطين سنة 312 .

12 — الحياة الرومانية بالجزائر

كان بالوطن الجزائري على عهد رومة طائفة من الرومان الا أنها
قليلة ، ويوجد به عدد من الاجانب غير الرومان الا أنه قليل جدا .

قال بيروني : يوجد بافريقية في سنة (200) نحو 200 أو 250
ألف روماني . وفي سنة (400) تقريبا بلغ عدد الرومان نحو مليونين
أو مليونين ونصف الى ثلاثة ملايين . وهذا أكثر احصائية للرومان
بافريقية » . واحصاء بيروني هذا يريد به رومان طرابلس وتونس
والجزائر ومراكش . ومعلوم ان الاستعمار الروماني كان بطرابلس
وتونس أوسع دائرة وأثبت قدما . وكلما تقدم الى الغرب ضاق نطاقه
وقل تأثيره . واذا نقول ان حظ الجزائر من ذلك الاحصاء قليل ، وهو
بعمالة قسنطينة أكثر منه بعمالتي الجزائر ووهران .

قرطبة كان بها عدد من الايطاليان من عهد مصييسا . ولما استولى
ستيوس عليها وما يتبعها من الشمال النوميدي ترك بتلك النواحي
جنودا بعضها من ايطاليا وبعضها من اسبانيا . وقد علمت ان يوليوس
قيصر اشترط عليه أن يفتح أبواب مملكته في وجه الرومان ومن كان
معه في حروب افريقية . ولما اعتلى عرش رومة اكتافوس الملقب
أغسطس وجه جاليات من الرومان الى موريطانيا : بعضها الى قرطنة
(تنس) وبعضها الى رستونيا (مطيفو) وبعضها الى روصازو
(أزفون) وبعضها الى صلداي (بجاية) والى أجلجي (جيجل) والى
زكبار (مليانة) والى تبوسكتو (تكلات) . ثم أرسل الى هذه
المدن عساكر أكثرهم ايطاليون .

وعلى عهد قلوديوس (41-54) ووسبسيان (69-79) أو ربما (96-98) تكونت جاليات آخر من قدماء الجند في « أبدوم تقوم » (المدينة الحديثة وهي وادي الدفلى) وفي مدوروس وفي سيطيفس . وقد كان أكثر الرومان بالجزائر من أبناء قدماء الجند .

علمت سابقا أن الحياة الرومانية بإيطاليا كانت في غاية البساطة والسذاجة : شظف في العيش وتكشف في الملابس وكد في العمل . وقد نقلنا لك - الفصل الخامس - كلمة كاطون منهم فيسن يوجد بتركته انه ربح أكثر مما ورت . وفيها ترى شدة عنايتهم بالثروة وعجز وطنهم عن الوفاء برغبتهم ، حتى صار يرى هذا الرجل ان سعة الثروة المكتسبة ليس لها طريق يفضي اليها البشر بفكره ، وانما ذلك الهام من الالهة خارج عن متناول العقول البشرية .

ان أمة هذه حالها لجدير بها ان تترامى على الاوطان الخصبة بكل ضراوة ، وخلق بها أن تجد في تلك الاوطان ليل نهار لتثار من الثروة التي عزت عليها في وطنها .

لذلك لما حل الرومان بالجزائر استولوا على كثير من الاراضي وقاموا بخدمتها أحسن قيام فمحتهم أحسن النتائج ، فراشوا بعد الفقر وبذخوا بعد الشظف وأصبحت الحياة غير الحياة .

بنوا المنازل الشاهقة ووسعوا نطاق المدن التي حلوا بها . فكانت قرطه تشتمل على مدينتين : داخلية يحيط بها سور ، وخارجية وهي أوسع نطاقا . ومساحتها تمتد غربا الى جنان الزيتون ومقبرة الاسلام ، وجنوبا غربيا الى قشلة باردوا ، وشمالا الى ضفة وادي الرمل الشمالية . قال بارس : « وذكر أبطاط قديس ميله : أنه كان ملاصقا لقرطه حارة عظيمة تدعى «موغاي» . والظاهر انه المعروف اليوم بسيدي المبروك ، وتمتد هذه الحارة الى ناحية المنصورة » ،

انى ان قال : « وبضواحيها نزلات متقطعة • وقد عثر على آثار بعضها بناحية الحامة » .

وقد مر أن ميلة والسكيدة والقل وجبيلة كانت قرى صغيرة ، ثم أصبحت مدنا عظيمة • ومن القرى التي عظمت على عهد الرومان وصارت مدنا : باغاية ، مسكولة (خنشلة) لمبس ، تمغادي ، فتيانزوم (ديانة قدماء الجند) لمصبة (بالشمال الغربي من أوراس) جميلي ، بادبي (بادس) •

والمدن التي كانت بالخط الصحراوي انما رفع عمرانها الجند ، لان الجندي الروماني اذا لم تشغله الحرب فهو عامل نشيط •

والغرض من تأسيس المدن قرب مراكز الجنود المراقبة على الحدود المحافظة على تلك المراكز وتأمينها من روعات الهجمات الصحراوية •

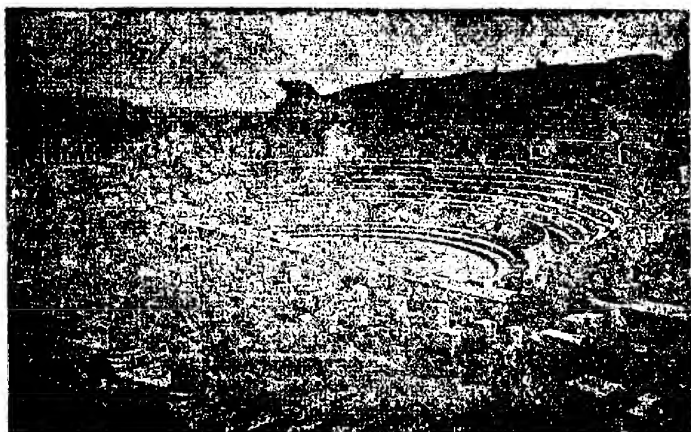
والمدن الرومانية تنقسم خمسة أقسام :

- 1 — المدن البحرية وهي تجارية •
- 2 — المدن العسكرية يسكنها الجنود ، ولها أزقة واسعة •
- 3 — المدن الفلاحية ، أكثر من يسكنها البربر العملة في أراضي السادة الرومانيين •

4 — عواصم أولية وثانوية ، سكنها كبار الولاة ، وبنائها أفخم وخيراتها أكثر وعمرانها أوسع •

5 — مدن النزهة ، وهي لاصطياف الاسر العظيمة • ومن هذه المدن جبيلة • قال بيروني : كانت المدن الرومانية على غاية من الرقي في الحياة والعمران • تيمغادي كان بها من السكان (35) الف : وأكثر المدن يبلغ عدد سكانه نحو عشرة آلاف ، أو خمسة أو ستة الى ثلاثين الفا • كل ذلك على سبيل التخمين • ولكل مدينة هيكلها

الوثني أو كنيسة المسيحية • ولها أسواق وحمامات • ومنها ما فيها
المراسح للتشيل والملاعب لمصارعة الحيوانات الضارية •



(ش - 17)

مسرح تيمفاد

والبريد سائر بين المدن • ومواقع المدن برأى فيها وجود الماء
ومناعة المكان •

المباني الرومانية متنازة بالعظمة غير أنها خالية من الدقة وجمال
الفن • وفي كل مدينة ساحة عمومية للاجتماع تدعى : « الفوروم » •
وكان من عادة الرومان اذا أرادوا تعمير مكان خطوا به خطين
أحدهما من الشرق الى الغرب والآخر من الشمال الى الجنوب ، ثم
يجعلون شكلا مربعا حول نقطة التقاء الخطين ، ويتخذون ذلك المربع
ساحة للقرية (فوروم) • ويحيطون هذه الساحة بدكاكين وأقواس
جميلة • والساحة هي المحل الذي تقام فيه الحفلات وتجري به
الانتخابات وتقرأ به على الامة القرارات •

ومن محال الاجتماع عندهم الحمامات • ولهم عناية بها • قال بارس : « وكان بقرطة قرب دار الامارة التي هي المبد العظيم حمامات عظمى • عرف آثارها سائح انكليزي ووصفها وذلك سنة 1742 وماء الحمامات معدني » •

ومن المباني التي يعتنون بشأنها المراسح والملاعب والهيكل الدينية • قال بارس : « وكل طريق توصل الى كنيسة محفوفة بالتمائيل يمينا وشمالا ، علاوة على ما في الكنيسة » • وقد عبث الدهر بتلك المباني الرومانية على عظمتها • فلم يبق منها غير خرابات أكثرها مستور بطبقات التراب • قال غروت : « ولم يزل الباحثون يستكشفون مدنا تدهش أهل القرن العشرين » •

13 — الحياة البربرية تحت السلطة الرومانية

مر بك في الباب الخامس ما ينير أمامك الحياة البربرية قبل الاحتلال الروماني ويكفي للعلم بسعادة البربر اذ ذاك أن تعلم أنهم مستقلون ، ورومة تخطب ود ملوكهم وأمرائهم •

اما بعد الاحتلال الروماني فان الحياة البربرية تختلف درجة سعادتها ودركة شفاوتها على نسبة النفوذ الامبراطوري : فالجهات التي يضعف فيها ذلك النفوذ أو ينعدم تكون سعيدة ، والجهات التي يتمكن منها تكون حياة البربر بها حياة العبيد •

قال بيروني : « ان الادارة الرومانية لم تكن متحدة في جميع المستعمرات ولا في أقسام افريقية نفسها ، وذلك لاختلاف أنظار القياصرة في التشريع وفيما يناسب نفوذهم على الطائفة التي تحت حكمهم » •

انتزع الرومان من البربر جل أراضيهم وأثقلوا كاهلهم بالضرائب وأدخلوهم في الجندية ولم يحفلوا بحقوقهم الطبيعية .

1 — أما الأراضي البربرية فانها في الاصل اما مملوكة للملوك البربر واما مملوكة للشعب . فلما جاء الرومان أخذوا كل ما كان مملوكا للملوك والامراء . فاختصت الحكومة ببعضه ، ووزعت بعضه على الرومان الاصليين ، ومنحت بعضه قدماء الجند . وما كان مملوكا للشعب بقي لاربابه مع ضرب الخراج عليهم .

ومن ثار عليهم منهم انتزعت أملاكه وتصرفت فيها الدولة بوجه من الوجوه السابقة . وبطول المدة استولى المليون من الرومان على أراضي البربر . ومن الرومان من كانوا يكترون من البربر الى آجال ، ولهم أن يجددوا عند انتهاءها ، وبفضل العدل الروماني كان المكتري الروماني أسعد من المالك البربري . قال بيروني : « والمالك الاهلي انما هو عامل مجبور على العمل طبعا لا قانونا . وحالة العملة سيئة جدا لا تنصفهم الحكومة في شيء » .

ولكل أرض عدد من العملة يتعاون معها . والرومان يعتبرون سادة لهم . وبطول الامد أطلق عليهم لقب « ممالك » .

وقال غروت : « ان الرومان ألزموا البربر بالعمل في أراضي المعمرين تحت قوانين ثقيلة » .

2 — واما الضرائب فانها من أهم مقاصد الاستعمار الروماني ، وهي — وان كانت مختلفة المقادير — متحدة في كونها فادحة . وتنقسم أربعة أقسام :

1 — الاداء الشخصي : وهو واجب على الرجل والمرأة . ومقداره مختلف .

- 2 — الاداء على العقار : وهو اما عين أو حبوب • وفي الغالب يكون العشر من حاصل الفلاحة • حتى ان الجابين يسمون العشارين.
- 3 — الاداء على التجارة الخارجية : وهو واجب على السلع المنقولة من عمالة الى أخرى •
- 4 — سخرة ادارية : منها تموين الجند واسكانهم • وقد تكون منها كسوة بعض رجال الشرطة •

وكانت الدولة الرومانية لا تتولى استخلاص الضرائب ، وانما تسندها الى اعيان يتولونها ، هؤلاء المستخلصون كانوا يسمون « العشارين » تتفق معهم الدولة على مقدار يؤدونه لها من مالهم ، ويجبون من الاهالي ما يشاؤون • ولهم جنود يستعينون بها على قبض الضرائب حتى انهم في خروجهم للاستخلاص أشبه شيء بالخارج للفرز •

ولقد كان ضرر العشارين بثروة الشعب فادحا جدا وأشهر أبطال الضرر الخراجي الامبراطور غلاريوس • فانه زاد في الضرائب على الاهالي • قال مرسى : « فصار يقيد اسماءهم ذكرانهم وأناتهم وصغارهم وكبارهم ، ويضبط أموالهم • واتخذ لذلك الجواسيس حتى سارت المرأة تسعى بزوجها والولد يسعى بوالده • فتغيرت لذلك قلوب البربر عليه • ولم يبق له صديق غير الجنود لكونهم معفين من الضرائب » •

3 — واما التجنيد فقد كانت رومة تجند من البربر وتنقلهم خارج وطنهم : تنقل فرسان نوميديا الى أوروبا الشمالية (المجر ، جرمانيا • بلجيكا) ، وتنقل المشاة الى ضفاف النيل • ترسل جنود البربر الى الخارج وتأتي الى الوطن البربري بجنود أجنبية • ومنذ أواخر القرن الثاني استغنت بجنود البربر المقيمين في افريقية عن

الجلب من الخارج • وعندما تدعو الضرورة الى الاستزاد في الجيش
تطلب الحكومة من رؤساء البطون البربرية مددا نظير ما يعرف اليوم
« بالقوم » •

4 - واما الحقوق فقد كان الرومان - سواء القادمون من
إيطاليا أو من مستعمرات أخرى - لهم التفوق المطلق على جميع
السكان ، والبربر عندهم متساوون في فرض طاعة رومة عليهم
واعتبارهم - كوطنهم - أداة لسعادتهم : يستغلون أرضهم الخصبة
وابدائهم القوية • فكل ما كان للرومان من خدمة الاراضي للفلاحة
وضخامة البناء للفخفة والنزهة فهو على حساب الجهود البربرية •

وكانت حالة البربر على عهد الجمهورية أتمس منها على عهد
الامبراطورية • ذلك بان الجمهورية كانت في آخر دورها ، فالولاة
انما كانوا يعملون لانفسهم لا للدولة ، فتضاعف جورهم وكثر
تعديهم •

وفي عهد الامبراطور طريانس (98-117) كان الولاة بافريقية
يسعون الحق بالاثمان وفشا فيهم الجور ، ذلك بان هذا الامبراطور
كان مشغلا بحروب بعيدة عن افريقية • ضج الاهالي من سوء سيرة
الولاة ورفعوا عقيرتهم بالشكوى الى رومة • وكان بها علماء أهل
انصاف فأيدوهم وحكموا بأحقية مطالبهم • ولكن الحكومة لم تقض
بغير عزل والي افريقية مريوس برسكوس •

وفي سنة (193) تولى سبتيموس سوريس أمبراطورية رومة •
وهو بربري أصله من طرابلس • فاعتنى بافريقية كثيرا وترك بها آثارا
لم تزل الى اليوم • وكانت حاشيته وحرسه أكثرهم افريقيون وبالغ
في الاحسان الى ابناء جنسه حتى أنهم ربما تحدثوا بلغتهم في مجلسه
الامبراطوري • قال مرسيي :

« وترقى الافريقيون على عهده وظهرت مواهبهم المدهشة برومة في الجندية والمحاربة . ولم يهمل البربر هذا الاحسان بل اعترفوا به ، واحبوا الامبراطور حبا جما بحيث لم تقع ثورة أيامه . ولما مات اتخذوه الها » .

وبعد سويس جاء ابنه قراقلا وسار سيرته وقابله البربر بالمعروف وبقي اسمه منقوشا على الاحجار .

قال مرسبي : « وفي سنة (216) أصدر قانونا بحرية البربر ومنحهم كل الحقوق التي للرومان . فصارت افريقية ذات طبقتين فقط : الاحرار والعييد . ولكن هذا القانون لم ينفذ . فلم يستفد منه البربر بل أضر بهم واستفادت منه الدولة الرومانية . بهذا القانون التحق البربر بالرومان في الواجبات الدولية من خراج وتجنيد ، وبقوا كذي قبل في الحقوق السياسية » . وهكذا القانون العادل اذا لم يجد ولاية عادلين ينفذونه انقلب أداة شر على الشعب . فعلى الامة التي ساقها القدر الى أن تكون تحت رحمة أمة أخرى — اذا رأت منها قوانين غير ملائمة لحياتها واستصدرت قوانين عادلة — أن تستصدر ولاية عادلين ، ولا تكتفي بمراقبة الاحكام عن مراقبة الحكام .

واذا كان لبعض الاباطرة احسان الى البربر فان أكثرهم أساءوا اليهم . ولم يكن لاساءتهم من مصدر سوى التخليق بالجور أو حب الانتقام من قوم نصرؤا مترشحا الى الامبراطورية رجاء عدله ، فتغلب عليه منافسه .

واذا أجبنا لك في هذا الفصل سياآت الرومان اباطرتهم وولاتهم وملاكهم فان البربر يفصلون لك ذلك بما تقرأه عن ثوراتهم وما كانوا يقتحمونه لها من خسارة الانفس والاموال .

14 — الثورات بالوطن البربري

ان التاريخ الجزائري على عهد الرومان مملوء ثورات وحروباً .
وذلك لعدم ملائمة العنصرين : الحاكم والمحكوم بعضهما لبعض في
المبادئ والاخلاق ، مع ما للعنصر الحاكم من التفوق والاستبداد على
ابن البلاد الذي رضع الحرية من اسلاف أمجاد .

لقد كان للامن وجود في العصر الروماني غير ان عمره قصير .
ولم يستمر سنين طويلا الا في شمال نويميدا بفضل نظامها الخاص
على عهد الاتحاد القرطبي .

ومنذ انحل هذا الاتحاد صار الوطن الجزائري متشابها في قلة
الامن وكثرة الفتن . ويمكننا أن نقسم الفتن بهذا الوطن الى ثلاثة
أقسام : قسم كان بيد ولاية رومانيين تطلعا الى الامبراطورية أو تحزبا
لبعض الاباطرة على بعض ، وقسم كان على أيدي الفائزين من البربر
الذين لم تنلهم عاهة الاحتلال سواء خارج الحدود أو داخلها ، وقسم
كان على أيدي البربر الذين لم يرتضوا الحكم الروماني تطلعا
للاستقلال أو تطلبا للعدل .

1 — اما القسم الاول فمنه ثورة قلدديوس مصير . كان واليا
على افريقية وثار على نيرون ، وقطع على رومة حبوب افريقية ، وبعد
وفاة الامبراطور نيرون (68) خلفه غلبا فبادر بقتل هذا الوالي واستعان
عليه بوالي موريطانيا ألبنوس . وبعد تسعة أشهر من امبراطوريته
قتل فخلفه أتون فكانت مدته نحو ثلاثة أشهر ثم تولى الامبراطورية
ويتليوس ، فثار عليه ألبنوس المتقدم وجمع جنوده وقصد بها
الاندلس ، ولكنه قتل وخضعت جنوده للامبراطور ويتليوس .

ومنه ثورة كالبليان والي موريطانيا . وذلك انه في سنة (235)

قتل مكسينس الامبراطور الكسندر سويرس واتصب مكانه فلم يرتض ذلك رومان قرطاجنة وأعلنوا بامبراطورية واليهم غرديانوس وانضمت اليهم الفرقة الثالثة . فسار والي موريطانيا ضد غرديانوس لفائدة مكسينس ، وهجم على نوميديا بمساكر كثيرة ومنظمة غاية النظام ، ودخل قرطاجنة فنهبا وعاث في افريقية فسادا .

ومنه ثورة سيانوس والي افريقية . وذلك انه بعد قتل مكسينس سنة (238) نصب مجلس الشيوخ مكانه غرديانوس الثالث حفيد الاول . فثار عليه هذا الوالي سنة (240) ولقب نفسه امبراطورا . وكان والي موريطانيا من حزب غرديانوس . فتحارب هذان الواليان وامتد غرديانوس تابعه . فانتصر والي موريطانيا وبلغ أن حاصر قرطاجنة ، ولم تسلم منه الا بتسليم سيانوس اليه .

وقد قاست رومة أهوالا شديدة من جراء التنافس على العرش الامبراطوري وقضت قرنا في الفوضى (192-270) . والجزائر مرتبطة بها فكان لها نصيبها من تلك الاهوال والحروب في عصر الفوضى وغيره .

2 — وأما القسم الثاني فمنه غارة برابرة المغرب على عهد انطونان (138-161) . هجم هؤلاء المغاربة على المستعمرات الرومانية وعاثوا فيها فسادا . فأهم ذلك الرومان وضعفوا عن مقاومة الغائرين حتى قدم الامبراطور انطونان نفسه الى افريقية وتولى رئاسة الجيش . وبذلك تمكنوا من رد هذه الغارة الكبرى .

ومنه غارتهم على عهد كمودس (178-192) اذ تجدد سنة (188) وعجز رومان افريقية عن رد تيارهم فاستغاثوا برومة . وكان هذا الامبراطور من عشاق الملاهي . فطلب من الشيوخ أن يمدوه بالمال ليذهب هو نفسه الى افريقية . فلما أمدوه استعان به على ملاهيه ،

وارسل الى افريقية عوضه ضباطا . وفي سنة (190) اتهمت هذه
الفارة .

ولولا تحصين الحدود بانشاء المدن ومراقبة الجنود لم تسترح
رومة ولا يوما واحدا من غارة الغريين والصحراويين . على أن
الصحراويين (الجيتولين) كانت رومة - علاوة على تحصين حدودها
منهم - تستميلهم بأساليب سياسية . وقد تستعين بهم لذلك في بعض
المهام . وكانت تحيط المدن بأسوار امتناعا من أهل موريطانيا الغريبة ،
وتتخذ الحصون بالاكمام .

3 - واما القسم الثالث فمنه ثورة لسيوس كيتوس ، وهو
رجل بربري تسمى باسم روماني . وتقلب في الجيش الروماني .
حتى منحه الامبراطور طريانس الرئاسة على جند . ثم ولاء على يهود
فلسطين . فخدم رومة خدمات جليلة . ثم عاد الى افريقية فثار بها .
واهتمت رومة لثورته لما تعلمه من مقدرته الحربية . ولكن دارت
عليه الدائرة فقبض وقتل . وبقيت الثورة من بعده ملتبة نارها .
ولم تستطع رومة اخمادها الا بعد غناء كثير .

ومنه ثورة سكان جبال أوراس والجبال التي بين قرطبة
وسطيف ، وجبل جرجرة . وكانت هذه الثورة في عصر القوضى سنة
(265) وامتدت في كامل الوطن الجزائري . هجم هؤلاء الثائرون على
المستعمرين الرومان خصوصا بجهات ميلة . وأهلكوا الحرث
والنسل . ولم يتمكن الرومان من ايقافهم عند حد لكثرة الهرج
برومة ، اذ كانت الجنود تبيع المنصب الامبراطورية لمن أغلى لها في
المرتبات وقضى لها ما تبغي من شهوات .

ومنه ثورة أرديون في سنة (270) سمي بروبس واليا عاما لجنود
افريقية فنزل قرطاجنة . وفي تلك الاثناء أثار أرديون النوميديين

ونوجه بهم الى البروقنصلية قاصدا قرطاجنة • فقابله برويس وتبارزا • فقتل ذلك الوالي أرديون وحفر له قبرا كبيرا عرضه مائتا قدم تفخيما له • قال مرسىي : « والظاهر أن هذه المباراة كانت بنواحي شسق بنارية » • وانهزمت جموع أرديون • ولكن الثورة لم تمت بموته • وحقد البربر على برويس حتى انه لما ارتقى امبراطورا (276-282) وكان له أضداد كان البربر عليه مع الاضداد •

وقد اشتدت ثورة القبائل الخمس سنة(288) على عهد الامبراطور ديوقليانس فجعلت رومة جائزة لاورليوس على حربهم • فتمكن من اخضاعهم ولكن خضوع هؤلاء القبائل لم يكن نهائيا • وبعد أمد قصير أعادوا الثورة وهجموا على نوميديا وانتشرت ثورتهم في الجهات الشرقية • وكان ديوقليانس قد قسم مملكة رومة على ولاءة ، منهم مكسميانس وجعله على ايطاليا وافريقيا • فلما اشتدت الثورة وتفاقم هولها قدم هذا الوالي بنفسه الى افريقية ليتولى ادارة الحرب • أرجع هذا الوالي القبائل الخمس الى مقرها بجبال جرجرة ، ثم تتبعهم في رؤوس تلك الجبال ونالوا منه أشد النكال • وأخيرا انتصر عليهم ونقل بعضهم خارج وطنهم ، وذلك عام (297) • وقبل هذا الحين لم يكن الرومان مستولين على وطن القبائل • ولما استولوا عليه جعلوا عاصمته بيدة (جمعة صهريج) •

وبعد استيلاء الرومان على وطن القبائل لم ينقطع منه رجال الاستقلال مثل فرموس وجلدون • وسترى في فصل آخر ما لهذين الزعيمين وغيرهما من عظيم الاعمال في سبيل الاستقلال •

15 — العمران الروماني بالجزائر

علمت من الفصل الثاني عشر ان الحياة الرومانية بالوطن

الجزائري كانت راقية • وذلك يرجع الى عناية الرومان بالثروة ومظاهر العظمة • وقد حلوا أرضا خصبة وحكموا أمة عاملة حاذقة نشيطة • فلا جرم كانت آثارهم في العمران عظيمة •

وأهم موارد الثروة بالوطن البربري الفلاحة ثم التجارة • أما الصنائع فلم تكن من موارد الثروة ، وإن كان الوطن لا يخلو منها •

وكانت مراس معتمدة للتجارة ، منها اجلجلي ، صلداي ، قيصرية صيفة • وصنعت الطرق داخل الوطن ، وأجادوا في اتقانها وتوسيعها ، الا فيما بين القرى • فقد كان بها شيء من الضيق • كانت الطرق تخترق الوطن البربري ، والقوافل تقطعها للتجارة • وأكبر طريق هي التي تصل بين برقة والمحيط الاطلانطيقي • وقد كان لبعض الاباطرة يد في جعل الطرق والقناطر ، منهم أدريانس والكسندر سويرس •

والوطن البربري لم يكن في العصر الروماني اخصب منه اليوم وأكثر ماء • قال غسال : « بل الظاهر ان الحالة من حيث المطر مماثلة لما هي عليه اليوم ، فلم تكن البحيرات التي بوسط عمالة قسنطينة أوسع منها اليوم • يدل لذلك وجود الآثار البرية بشواطئ هذه البحيرات • ولم تكن الاودية أكثر ماء منها اليوم • وفي الكتب الاغريقية روايات عن تكرر اليبس بالجزائر حتى وقعت مجاعات » • وذهب بعضهم خلاف هذا ورأى ان هذا الوطن كان على عهد الرومان أخصب تربة واغزر ماء • ونحن نرى أن دعوى المماثلة غير صحيحة ، وإن الفرق لم يكن بعيدا جدا اما من حيث الري فمن المحقق ان غابات الوطن كانت اذ ذاك أكثر من اليوم • وهي من أسباب الري لانها تمسك الماء عن الجريان فتروي الارض وتؤثر في الهواء برودة ما • واما من حيث طبيعة الارض فان كثرة استغلالها تضعف من قوة ترابها • وقد ذكر غسال نفسه : « ان شمال نوميديا كان من أخصب الاراضي لكثرة

حجر الجير به • » قال : « وقد نقص هذا الحجر منه تدريجا ونقص معه حجم الحبوب » •

ومما يوضح لك تقارب حالة الارض في ذلك العهد وفي هذا العصر شدة العناية بجلب الماء حسبما دلت عليه آثار بأماكن متعددة • قال غسال : « وكثير من تلك الآثار وقع قبل الرومان • وانما هم حافظوا عليها وأنشأوا غيرها » •

وهذه الآثار منها تفجير العيون ، ومنها حفر الآبار ، ومنها اتخاذ المآجل ، ومنها بناء السواقي ذات الحنايا ، ومنها سد الاودية • قال بيروني : « ومنها بالحضنة ثلاثة سدود بواد واحد • الكبير منها يحمل نحو (1200 000) ليتر • » قال غسال : « ولم يزل الى اليوم مئات من الآبار بجنوب سطيف وشمال أوراس •

ولهم قوانين دقيقة لتوزيع المياه على السكان • عثر على قانون لتوزيع المياه على سكان لمصبه (مروانة) ينص على عدد أشجار كل فلاح من زيتون وغيره ، وعلى عدد ساعات السقي •

ونفقة تلك الخدمات المائية اما على البلديات أو شركات أو أفراد •

قال غسال : « والفرس من جلب المياه اما الشرب أو سقي أشجار الزيتون والبساتين • ولم يعتنوا بجلب المياه الى الاراضي الزراعية على احتياجها الى ذلك » •

وكانت آلة الفلاحة بسيطة • وهي مثل ما للجزائريين اليوم • وللفلاحين معرفة بتوزيع الحبوب على الارض حسب الصلاحية •

وكان شجر الزيتون وغيره من ذوات الاثمار والفواكه كثيرا يظنه الرائي غابات • وتوجد آثار معاصر الزيت بجهات كثيرة •

ولقد تشارك الاغنياء والاباطرة في تنشيط الفلاحة . فكان
المشتغلون بغراسة الزيتون والكروم يعفون من الضرائب سنين . ومن
الاباطرة الذين اعتنوا بتنشيط الفلاحة قسطنطين . فقد أعفى آلات
الفلاحة من الاداء على التجارة الخارجية ، وأعفى العملة بأرض
الفلاحين من الخدمات التي كانت تلزمهم بها الدولة عند العجز عن اداء
الخراج ، واشتد على الاغنياء الذين يريدون ان يبتلعوا بقروضهم
صغار الفلاحين حتى صار يحكم بالقتل على كل مالي يريد ان يفتك
من الفلاح الصغير عند العجز عن اداء الدين أرضه أو عبيده أو
حيواناته أو آلاته . وقبله كان الامبراطور اديانوس (117-138)
اعتنى بافريقية وقدم اليها بنفسه سنة (122) فنشط الاستعمار .
وادخل على الوطن البربري اصلاحات جمة . واقتدى به بعض
البلديات في ذلك . فأثقت قرطة من ماليتها على جعل طريق منها الى
رسقاد . وأجته العامة . ولكثرة حسناته على افريقية دعي « مصلح
افريقية » RESTAURATEUR del' AFRIQUE ، وطبع هذا
اللقب على صفحات النقود .

وعلى نتائج الوطن البربري كانت رومة تعتمد في حياتها ، حتى
أن الوالي الذي يثور بهذا الوطن على رومة يسرع قبل كل شيء الى
قطع اصدار الجيوب الى رومة .

كانت رومة تجلب من افريقية الشمالية الجيوب والزيتون والعنب
والتمر والفواكه والتوابل . وتجلب ايضا الرخام والاشخاب والخيل
والغزال وبعض الحيوانات المفترسة لترويضها في الملاعب والنحاس
والرصاص والحديد وسبائك الفضة والتبر والعبيد السود والصوف
والجلود والبقر والغنم وشمع النحل وكل مواد الحياة والرفاهية .

مواد حياة رومة كانت تأتيها من افريقية الشمالية لمدة ثمانية

أشهر (شتنبر - ابريل) ، ومن مصر لمدة اربعة اشهر • ولما اتخذ
قسطنطين بيزنطة عاصمة لمملكته اختصت افريقية بتموين رومة ، ومصر
بتموين بيزنطة •

وبلغ في بعض السنين ما تأخذه رومة من شمال
افريقية (348000 طن) •

واتخذت رومة سفنا خاصة لنقل حبوب افريقية ، ومراكز
نجمعها ووكلاء للقيام على اصدارها ، وأعفتها من أداء التجارة
الخارجية •

ومن المراكز التي كانت تجمع بها الحبوب لتصدر الى رومة :
وادي مجردة ، تغاست ، مدورس ، تقيست ، لمبس ، ناحية سيظيفس •
قال بيروني : « يحمل من هذه المراكز كل عام ما يقرب من مليوني
قنطار قمحا » •

وما تأخذه رومة من افريقية بصفة خراج تبيعه هنالك لابنائها
ثم صارت تقسمه مجانا على أهل الحاضرة والبادية • وكان عدد الذين
تموّنهم الجمهورية برومة (320000) • ولما جاء يوليوس قيصر نقص
من هذا العدد نصفه • وبعده جاء أغسطس فبلغ عددهم (200000)
وفي سنة ٦٤ م احترقت رومة فكان نيرون الامبراطور محتاجا الى
تعزيز مالية الدولة فقطع هذا المعاش عن أهله • وبعد وفاته أعاده
خلفه •

وكان لتوزيع القمح قوانين خاصة مشتقة من اسمه
(FRUMENTAIRE) والايطاليون اذ ذاك يستعملون القمح في
معاشهم أكثر مما يستعمل اليوم • ولشدة ارتباط حياتهم بافريقية
كان عظماء رومة اذا اجتمعوا في ساحة المدينة (الفوروم) يقرن أحدهم

سلامه على صاحبه بقوله : « ما حدث بافريقية ؟ » (QUID NORD AFRICA) واذا كنى الرومان عن رجل بسعة ماله قال : في مخازنه قمح افريقية • وكانوا يقولون : افريقية مخزن رومة (GRENIER de ROME)

قد يتعجب المرء من كثرة هذه النتائج على قلة أيام السلم • وقد يعجب أيضا بفضل الرومان في العمران • ونحن لا نقف ازاء هاتين النقطتين موقف الدهش بل نعطي رأينا فيهما وللقارئ حق التعقيب :

1 — أما النقطة الاولى فنقول بازائها : حقيقة ان الاضطراب لم ينقطع مدة العصر الروماني ، خصوصا بعد ظهور الديانة المسيحية ، ذلك أن الفتن كانت سياسية ثم تولدت مع هذا الدين فتن دينية • غير ان الاضطراب لم يكن مستمرا بصفة تمنع أيدي العاملين في التعمير • فما وقعت فتنة شغلت رجال العمران الا أعقبها سلم يمكنهم من مباشرة أعمالهم • على أن أكثر الفتن انما كانت بموريطانيا حيث تضيق المملكة الرومانية وتنحصر الى البحر • ونتائج الارض بهذا القسم كانت قليلة • وتلك النتائج المدهشة من زروع واشجار انما كانت بالجهات التي تمكن منها الحكم الروماني فقلت ثوراتها • والخلاصة انه لا منافاة بين وجود الثورات وكثرة الثمرات •

2 — واما النقطة الثانية فنقول عنها ان ذلك العمران لا يزيد في فضل الرومان بل هو عندي بعكس ذلك : يدل على جور الرومان وضعف انسانياتهم • وذلك ان تلك النتائج ان لم تكن كلها من أراض مملوكة للرومان فجعلها لهم من غير شك • والاراضي الرومانية انما كان العامل فيها يد البربر اما بصفة عملة مملوكين واما بصفة فلاحين مكترين وكلاهما تحت الضغط الشديد • فأني فضل للرومان في هذا العمران ؟ الارض المنتجة بربرية الاصل واليد المستنتجة بربرية

والرومان انما يأكلون ويتمتعون ويمنون أهل وطنهم • واذن ففضل
الرومان انما هو في جورهم بسلبهم أراضي البربر وضعف انسايتهم
بجبر صاحب الارض على العمل بها لفائدتهم •

16 — اللغة والآداب الرومانية بالجزائر

الرومان اخوان اليونان في النسب ، وتلاميذهم في العلم • فلفتهم
أخت اليونانية • وآدابهم وليد الادب الاغريقي • فكان للرومان
آدبهم اللطيني ، وهو لا يقصر في روعته عن آداب الامم الراقية لذلك
الحين • واذا نظرت الى سعة السلطان الروماني وتحكك ابناء رومة
بالامم الشرقية الراقية وتواردتهم على منهل أثينا تصورت اجماليا
رقى الادب اللطيني •

ولما حل الرومان بالجزائر ووجدوا أمة لها لغتها وآدابها وهي
نافرة منهم سعوا في نشر لغتهم وآدابهم بما أقاموه من المراسم والنواحي
وما شادوه من المدارس الابتدائية والثانوية بالقرى والمدن •

وكانت قرطه ومدوروس من أشهر المدن التي يؤمها طلبة التعليم
الثانوي ولكي تحمل رومة على البربر لغتها جعلتها هي اللغة الرسمية
ومنعت الكتابة بغيرها • وذلك في القرن الثاني للميلاد •

ومع حرص رومة على تعميم لغتها وآدابها لما في ذلك من تثبيت
سلطانها لم تر من البربر اقبالا يفي بحرصها • العامة بقيت بعيدة عن
اللطينية ، والمتعلمون كانوا يحدون فيها صعوبة حملتهم على تغييرها
بما يقرب من لهجتهم ، حتى أصبحت لطينية افريقية متميزة عن لطينية
رومة • وهذا لا ينافي ان هناك رجالا من البربر نبغوا في الآداب
اللطينية وكانت لهم فيها شهرة خلدت ذكرهم •

كان الادب اللطيني أرقى من الادب الليبي والفينيقي ، واللغة

الطينية أوسع من اللغتين الآخرين ، ومع ذلك فقد عاش الثلاثة بالوطن البربري ، ولم تستطع اللطينية — على اتساعها ورقي أدبها — أن تتغلب على تينك اللغتين ، بل كانت أقل منهما رواجاً بين الطبقة السفلى من الامة وأقل ذكراً في بعض الجهات التي لم يوقظها الاستعمار الروماني . قال بيروني : « وفي أيام القديس أغسطين — التي هي بعد الاستيلاء الحقيقي بقرون — كان الولاة الاداريون والرؤساء الدينيون يحتاجون الى ترجمان بينهم وبين البربر البادين . وكانت اللغة الفينيقية لغة الاكثرية البربرية . حتى ان العظماء الذين تخلقوا بالاخلاق الرومانية كانوا يتكلمون بها . »

ومما تقدم تتضح لك نقطتان :

1 — ان الرومان لم يؤثروا على البربر في اللغة والآداب مثل تأثير القرطاجنيين ولا قريباً منه . وذلك للفرق بين مقاصد الامتين في الشعب الجزائري . اذ القرطاجنيون مقاصدهم تجارية ، والرومان مقاصدهم استعمارية بالمعنى العصري . فالبربر أقبلوا على من كانت مقاصدهم معهم حسنة ، ونفروا من أصحاب المقاصد السيئة .

2 — الذين تعلموا اللطينية صبغوها بصبغة وطنهم وغيروها عن أصلها . وذلك دأب البربر في كل ما أخذوه عن غيرهم . وبذلك حافظوا على جنسيتهم ، وابتلعوا الامم التي احتلتهم وارادت ان تبتلعهم وتكثر بهم سوادها . وهي مزية لا تعرف لسواهم من الامم غير العرب .

17 — ديانة الرومان بالجزائر

قدمنا لك ما للرومان من كثرة الالهة ، وما لهم من عناية بها ، وانهم أخذوا من الامم التي استولوا عليها بعض آلهتهم . وقد كان

علماء رومة يرون ان الارباب المختلفة باختلاف الامم ليست الا مظاهر لاسل رباني عام . ومن ههنا نشأ التسامح الديني عند الرومان ، فلم يضغطوا على أي شعب استولوا عليه في دياناته ولا ألزموه بديانتهم . وانما كانوا يلزمون من تحت رايتهم بعبادة قيصر . وظاهر ان هذه العبادة سياسية لا دينية . ولذلك لم تكن لها هيئة خاصة تتحد الشعوب المحكومة لرومة على أدائها . بل كانت كل أمة أو قرية تعبد على الوجه الذي تراه عبادة .

وانت تعلم ان البربر ما أتوا بشيء من باب الاختيار الا قبلوه وأخذوا منه . فكان للبربر آلهة رومانية الى جنب آلهتهم البربرية وما أخذوه عن الفينيقيين . وهكذا عاشت الديانات الثلاث بين ظهرائي البربر متأخية . غير انه لا بد ان يكون — بمقتضى طبيعة البربر — طابع البربرية على الجميع .

بقيت هذه الديانات في ظل التسامح المتبادل بين البربر والرومان حتى ظهرت الديانة المسيحية فتضادت معها ، ولم يتسع التسامح الديني الروماني لها فعارضها ، لان الاباطرة والعظماء رأوا في انتشار هذه الديانة ما يضعف عظمتهم وينقص من غلوائهم .

في سنة (303) أحدث امبراطور رومة قانونا باتخاذ بعض الايام لعبادة الآلهة الرومانية . لا يتخلف أحد عن حضور هذا اليوم المعلوم . ومراد الامبراطور مضادة المسيحية التي تنظره وأحققر انسان في امبراطوريته بعين واحدة . وتراها في منزلة واحدة ، بل تفضله لحقارته وفقره عليه لجلالته وغناه .

قام بتنفيذ هذا القانون والي نوميديا فلريوس ، ولم يمثل له كثير ممن تمكنت المسيحية من قلوبهم فقضى عليهم بالقتل . ولكثرة المقتولين دعى هذا العصر عصر الشهداء .

18 — الديانة المسيحية

الديانة المسيحية هي الديانة التي جاء بها عيسى المسيح عليه السلام . وهو عيسى بن مريم ابنة عمران . وعمران اختلف المؤرخون في سiquة نسبه ، ولكنهم اتفقوا على انه يتصل بسليمان بن داود عليهما السلام . وأم مريم اسمها حنة . وأختها ايشاع (أو خالتها) كانت تحت زكريا عليه السلام . ومنها يحيى الذي قال فيه القرآن : « وآتيناه الحكم صبيا » . عمران كان كبير كهنوتية بيت المقدس . وحنة زوجه كانت من العابدات . أقاما ثلاثين سنة لا يولد لهما . فدعوا الله ونذرت حنة : ان ولدت لتجعلن ولدا حبيسا بيت المقدس يقوم بخدمته . فولد لها مريم ، ووفت بنذرهما . فدفعتهما الى عباد بيت المقدس . وقام بكفالتها هنالك زكريا حتى كبرت ، وصارت تقوم بقسطها من خدمة البيت ، واشتهرت بالتقى والفضيلة ، وظهرت على يدها الخوارق كما قص ذلك القرآن في آية آل عمران : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله . ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

وما زالت على عبادتها وورعها حتى بشرتها الملائكة بانها ستلد ابنا من غير أب يكون نبيا رسولا . فمعبت من ذلك . وأجابها الملك بأن الله يخلق ما يشاء .

قدر الله أن تحمل مريم من غير زوج فارسل اليها جبريل ونفخ فيها ، فحملت بعيسى . ولما ظهر بها الحمل خشيت ان تهتم في عرضها . فخرجت من بلدها وأخذها المخاض في الطريق ووضعت شرقي بيت لحم قريبا من بيت المقدس .

كانت ولادة عيسى في زمن اغسطس قيصر . قال ابن خلدون لاثنتين واربعين من ولايته . وهو صحيح اذا قدرنا ولايته منذ كان أحد الرجال الثلاثة .

ولادة عيسى من غير أب أمر خارق للعادة حقيقة ولكن الله على كل شيء قدير . وقد أزال القرآن الغرابة في ولادة عيسى بأن آدم أغرب منه . وذلك قوله تعالى : « انما مثل عيسى عند الله كمثل آدم : خلقه من تراب ثم قال له كن » .

كبر عيسى وظهرت على يده الخوارق منذ صباه — كما في القرآن — من ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى وخلق الطير من الطين . ونزل عليه الانجيل ودعا الى طاعة الله واشتهر ذكره .

هناك خافه رؤساء اليهود على دينهم فتآمروا على قتله . وبحشوا عنه فدلهم عليه أحد أصحابه . فقصدوا موضعه . والتقى الله شبهه على أحد اليهود فقتلوه وصلبوه معتقدين انه عيسى عليه السلام .

وكان لعيسى من الحواريين (الاصحاح) اثنا عشر وهم : سمعان بطرس ، أخوه انداورس ، يعقوب بن زبدي ، أخوه يوحنا . فليس ، برتلوماوس ، توما ، متى العشار . يعقوب بن حلفا ، تداوس . سمعان القناني ، يهوذا الاسخريوطي .

ذهب الحواريون بعد رفع عيسى وافترقوا في النواحي لبث دينه . وكان منهم بطرس برومة ، وهناك كتب الانجيل بالرومية ونسبه الى تلميذه مرقس . وكتب متى انجيله بالعبرانية في بيت المقدس . ونقله يوحنا بن زبدي الى الرومية وكتب لوقا انجيله بالرومية . كل ذلك على عهد قلوديوس . وكان نقل يوحنا ببعض جزر ايطاليا على عهد طريانس .

وكان بين هذه الاناجيل اختلاف بالزيادة والنقص ، وقد يقع بينها التناقض . وذلك من عدم جمع الانجيل في أيام من أنزل عليه وتدوينه باللغة التي أنزل بها . فكتب كل من الحواريين ما حضره من غير أن يجتمعوا . وبطرس كبيرهم كتب انجيله بالرومية . ومعلوم ان ذلك ترجمة قد يخطئ صاحبها .

ومن ههنا اشتمل الدين المسيحي على أصول تخالف الدين الاسلامي مع أن مصدرهما واحد . وعقيدتنا ان دين الله واحد لا يختلف في روحه وحقيقته باختلاف الأزمان ، وانما تختلف صورته ومظاهره .

وقد ذكر الاستاذ الامام محمد عبده أصول الدين المسيحي ملخصا لها في ستة :

- 1 -- الخوارق .
- 2 — سلطة الرؤساء الدينيين .
- 3 — ترك الدنيا .
- 4 — الايمان بغير المعقول .
- 5 — ان الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد .
- 6 — التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الاقربين .

وقد شرح هذه الاصول مستشهدا عليها بكلام الاناجيل . ثم بين سوء نتائجها . ونحن نكتفي بالاشارة الى ذلك محيلين محب البسط والبيان على كتاب الاستاذ : « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » .

وقد ذكر ابن خلدون طبقات الرؤساء الدينيين الذين لهم السلطة على العامة ، ولقب كل طبقة وهاك بيانها :

- 1 — البترك : رئيس الملة وخليفة المسيح . والاساقفة يسمونه أبا . والقسوس يسمون الاساقفة أبا . فوقع الاشتراك في اسم الاب ، فأطلق على البترك اسم البابا . ومعناه أبو الآباء . وكان البابا يطلق على بترك الاسكندرية . ثم صار يطلق على بترك رومة الى يومنا

هذا • واختص صاحب رومة بهذا اللقب لانها مركز بطرس كبير
الحواريين •

- 2 — الاسقف : نائب البترك •
- 3 — القسيس : القراء •
- 4 — الجاثليق : صاحب الصلاة •
- 5 — الشماسة : قومة المسجد •
- 6 — الراهب : المنقطع للعبادة بدير (خلوة) •
- 7 — المطران : القاضي •

وقد لقيت المسيحية في طريقها اضطهادات • وحدث بين رؤسائها
اختلافات • ولبثت على ذلك حتى تعززت بتمسيح قسطنطين في القرن
الرابع الميلاد • هنالك ارتفع عنها الاضطهاد وقل الخلاف • لانه
مهما ظهرت قولة الا اجتماع الاساقفة والبتاركة عليها وتناظروا في
شأنها وقرروا رأي الاغلبية ولعنوا خلافه •
ومن مذاهب النحرانية مذهب دوناتوس بنوميديا في بداية القرن
الرابع •

ومنها مذهب أريوس • وكان أيضا في القرن الرابع لعهد
قسطنطين • قال ابن خلدون : واستقرت الكنائس أخيرا على ثلاثة
مذاهب : يعقوبية وملكية ونسطورية • وليس من غرضنا شرح هذه
المذاهب • فلنقتصر على الإشارة إليها •

19 — الديانة المسيحية بالجزائر

تأسست الكنيسة المسيحية بقرطاجنة أو ان تأسست برومة •
وذلك بعد رفع عيسى (ص) وتفرق أصحابه في الجهات •
واختلف هل كان تأسيسها على يد أحد الحواريين ؟ فمن

الامبراطور قسطنطين فأحسن الى الكنيسة ومنحها الحرية ثم تمسح
هو نفسه .

تعززت الكنيسة بهذا الناصر العظيم . ولكنها انتقلت من
الاضطهادات الخارجية الى الفتن الداخلية ، اذ حدث بين رجالها
اضطرابات أفضت الى انقسامها على حزين متنافسين متباغضين .

وذلك ان من المسيحيين من لم يتحمل الاضطهادات وارتد عن
دينه . ومن بين المرتدين بعض الاساقفة . وفي عصر ديوقليانوس
طلبت منهم الحكومة تسليم الكتب المقدسة . فخشي كثير من الاساقفة
أن يقتلوا فشحوا بأنفسهم وجادوا بدينهم وكتبه . ومنهم بنوميديا
أساقفة قرطبة وتجيست (عين البرج جنوب قسنطينة) ومصكولة
(خنشلة) وقالة .

في سنة (305) مات اسقف قرطبة بولوس . فاجتمع الاساقفة
للنظر فيمن يخلفه فكان سلفانوس . وهو من المتهمين بتسليم الكتب
المقدسة . فلم يرضه كثير . وأخذ الخلاف يتسع بين المسيحيين ويشتد
من ذلك الحين .

وفي سنة (311) مات اسقف قرطاجنة فاجتمعوا للنظر فيمن يخلفه
فكان سيسليان . ولم يرضه كثير من الاساقفة . وأخذت الدعاية
تتمشى ضده ، حتى بلغ عدد أصداده من الاساقفة سبعين يرأسهم
سوغندوس أسقف تجيست .

ثم اجتمع هؤلاء الاساقفة وطلبوا من سيسليان المثول أمامهم
لاتهامهم له بأنه من المقصرين في جانب شهداء الاضطهادات . فامتنع
من الحضور . فسجلوا امتناعه واطلقوا عليه لقب (TRADITEUR)
واعتبروا منصبه شاغرا فسموا مكانه بقرطاجنة مجورينوس من
حزبهم .

سنة (316) مات مجورينوس وسمي مكانه دوتوس . وكان أسقفا بباغاية . وقد نظم مذهب هذا الحزب حتى نسب اليه . واستعان بسميه دوتوس أسقف الديار السود (قرية شمال أوراس اندثرت) . أخذ هذا المذهب ينتشر بقوة وسرعة في نويميدا وموريطانيا . وقاومته الحكومة فلم تظهر به . وابتدأ قسطنطين مقاومته في مهده فجمع الاساقفة مرتين كانت النتيجة فيهما ضد دوتوس . وأخيرا قابلهم بالقوة واشتد عليهم فلم ينل منهم .

وفي نواحي سنة (326) توفي سيسليان فاجتمع بقرطاجنة من أساقفة الحزبين 270 واصطلحوا . وقد كانوا قبل ذلك متنافسين كل حزب يريد التغلب على الآخر . ويتوسل الى ذلك بالاكثر من الاساقفة .

وفي سنة (330) بلغ من كثرة اتباع دوتوس ان استحوذوا على جميع الكنائس ، حتى طلب اسقف قرطبة زيزيوس احداث كنيسة للارثوذكس .

وفي سنة (340) تجددت الفتن بين حزبي الكنيسة . ومات قبل ذلك قسطنطين (337) وخلفه ابناءؤه الثلاثة كل بناحية . وكان قسطنط احدهم على ايطاليا وافريقية . وكان ناصر الارثوذكس . فوجه جنوده لحرب اتباع دوتوس . واقتتل جنود الامبراطور وهؤلاء الاتباع . فانتصر الامبراطور واخذ اتباع دوتوس بالقتل والنفي .

وبعد سنين ثار الدوتسيون من الارثوذكس . وذلك ان قسطنطيوس أحد أبناء قسطنطين استقل بالملك بعد وفاة أخويه . وفي سنة (360) ظهر يليانس المرتد ، ونازع قسطنطيوس السلطة . وأراد فتح افريقية ، فامتنت عليه . وكان الارثوذكس مع قسطنطيوس ، فلما توفي هذا الامبراطور خلا الجو ليليانس المرتد ، واتقّم من الارثوذكس فسلط عليهم الدوتسيين ، ففتكوا بهم فتكا ذريعا ، ولم

المؤرخين من جزم بنفي دخول الحواريين الى الشمال الافريقي . ونسب
نشر خبر الكنيسة بهذا الوطن اما الى تجار شرقيين لوجود المواصلة
بين المشرق وقرطاجنة ، واما الى الرومان الذين تمسحوا وقدموا
افريقية .

ومن المؤرخين من أثبت دخول بعض الحواريين الى افريقية نقل
البكري عن اسحق بن عبد الملك الملشوني انه قال : « لم يدخل افريقية
نبي قط . واول من دخلها بالايماذ حواري عيسى بن مريم عليهما
السلام » ⁽¹⁾ .

وفي ابن خلدون ان الذي دخل افريقية من الحواريين فليس .
وقال القيرواني : اسمه متى العشار . وابن خلدون ذكر متى العشار ،
وانه أرسل الى أرض السودان والحبشة . ومراد ابن خلدون بافريقية
وطن تونس .

وكيفما كان الحال فان انتشار المسيحية بافريقية مقارن لانتشاره

(1) المغرب ص 45 . واسحاق الملشوني ذكره البكري
ص 52 واباه . وقال فيهما : « عالمان يحمل عنهما العلم » . وقال عن
ملشون : « قرية من قرى بسكرة » .

ومن هذا النقل عن عالم جزائري صحراوي قديم مشهود له
بالصدارة في العلم — تعلم ان لا صحة لاعتقاد العامة وجود خالد بن سنان
العبيسي بوطننا ، وزيارتهم لمكان زعموا انه ضريحه . قال صاحب
المؤنس ص 18 : ومنهم من قال بل دخلها (افريقية) خالد بن سنان
زمن الفترة . ولكن لم يدخلها بدعوة . قال : « وانكر بعض الفقهاء ذلك
وصححه آخرون » .

وليس في التاريخ ما يؤيد تصحيح وجود خالد بصحراء الجزائر .
وليس من المعقول أن يأتي نبي من جزيرة العرب الى هذا الوطن البربري
من غير أن يكون مرسلًا الى اهله . هذا على فرض ان يكون خالد نبيا .
والصحيح ايضا خلافه .

بايطاليا • وانتشاره كان بمساعدة اليهود الافريقيين واللغة اللطينية التي هي اللسان الرسمي للكنيسة •

وقد كان لليهود هجرات الى الوطن البربري أولاها على عهد الفينيقيين جلبوهم عندما أسسوا المراكز التجارية بشاطئ البحر الابيض لفضل حذق اليهود بالتجارة • وثانيها بعد هلاك الاسكندر على عهد بطليموس صاحب مصر ، اذ حاصر هذا الملك بيت المقدس وشرد اليهود منها فانتقل بعضهم الى الشمال الافريقي وذلك سنة (320) ق.م • وثالثها على عهد الامبراطور ادريانس اذ نقل الى المغرب بعضهم من بيت المقدس وبعضهم من برقة •

لبثت المسيحية بافريقية تحت جناح من الظلام لا يعلم لها تاريخ حتى بداية القرن الرابع • والمعلوم عنها في هذه المدة كلها هي احاديث الاضطهاد ، وانعقاد مجمعين للاساقفة احدها أواخر القرن الثاني اشتمل على سبعين أسقفا من افريقية ونوميديا والثاني سنة (240) حضره تسعون أسقفا •

وجدت الطبقة المستعيلة في تعاليم هذا الدين ما ينافي كبرياءها وجورها واستعبادها للضعفاء فعارضته • واستعمل الاباطرة قوتهم في اخفات صوته واعتدوا على التمسكين به حتى أن من سلم منهم من القتل لا يسلم من السجن • وكان سبتيموس سويرس أشد الاباطرة وطأة على المسيحيين •

وقد قابل رؤساء الكنيسة تلك الاعتداءات بكل شجاعة وثبات • وكان رجال من البربر وقفوا حياتهم لنشر هذا الدين ومات منهم عظماء في سبيله •

لم يزل رجال هذا الدين يقاسون الاضطهادات الامبراطورية — وقليل من الاباطرة من خلاهم ودينهم مثل نربا (96-98) حتى ظهر

يسلم منهم حتى النساء والصبيان •
وفي سنة (372) ثار فرموس البربري بوطن القبائل وشغل
الرومان ثلاث سنوات • كان الدتسيون من أنصاره في تلك الثورة •
ولما أيس من النجاح وقتل نفسه انتقم الرومان من حزب دوتوس
وساموهم سوء العذاب •

وفي سنة (395) ثار جلدون أخو فرموس على الرومان ونصره
اتباع دوتوس وقتل بالارثذوكس • ولما قبض عليه اتحر • وحق
الرومان على الدوتسيين ، فجاروا عليهم واستعبدوهم •
انتشر مذهب دوتوس بنوميديا وموريطنيا (الوطن الجزائري)
وحاز الاغلبية على الارثذوكس • وهاك بيان مراكز أساقفة الفريقين
بسدن هذا الوطن : في سنة (411) كان عدد المراكز مائة وسبعة وثمانين
منها (87) دوتيسية ، (34) كاثوليكية ، (66) للفريقين •
ومهما كثر عدد أساقفة حزب بناحية آذوا أتباع الحزب الآخر
بالسلب والسرقة وهدم المعابد • وقد بلغ من تباغض الاحزاب
المسيحية ان قال فيهم اميان مارسلان — وقد عاش قريبا من أوائل
القرن الخامس — : « ان العداوة بين المذاهب المسيحية أشد من عداوة
السبع للانسان » •

ولم تقف الكنيسة عند هذا الحد من الانقسام • بل ان اتباع
دوتوس أنفسهم انشقوا طائفتين : طائفة متساهلة مع بقية المسيحيين
والاغنياء ، وأخرى متشددة مع المسيحيين ومتعمقة في الزهد تكره
الاغنياء • وكان مركز الطائفة الثانية بتمغادي ، وهي تتركب من العبيد
الماليك الصعاليك ، وقد أخذت على نفسها العمل لتحقيق المساواة
بين الافراد في الفقر • فصارت تجوب البلاد وتطوف في البوادي لنهب
الاغنياء وافساد الاموال • ورؤساء مذهب دوتوس يعدون ثوارا
على الحكومة • ولذلك أقبل بربر الجزائر على هذا المذهب

لما كانت تنطوي نفوسهم عليه من كراهية السلطة الاجنبية . ولذلك أغانوا فرموس وجلدون في ثورتها ، وكانت الحكومة دائما ضدهم . وأصدر الامبراطور هونوريوس سنة (410) أوامره في التشديد عليهم ، ولكثرتهم لم يستطع تنفيذها . ولما أعياه أمر باجتماع شيوخ الدين سنة (411) فانعقد المجلس بقرطاجنة ، وحضره من مساقفة الكاثوليك والدوتيس 286 فحكم رئيس الجلسة على الدوتيسيين ولكنهم لم يحفلوا بذلك الحكم . فأصدر الامبراطور أمره بالتشديد عليهم وسلب حقوقهم والتضييق على حريتهم .

قال مؤرخ المسيحية بافريقية الاب مسناج : « لما عجز البربر عن طرد الرومان من وطنهم اكنفوا باظهار الكراهية لهم . فامتنعوا من لغتهم ومذهبهم . فان شعبا لا يتعلم لغة المستولي عليه يعد نائرا خصوصا اذا أضاف الى ذلك مخالفته له في المعتقد . ويقول بعض المؤرخين : ان البربر ما دخلوا أولا في المسيحية الا لكون الرومان وثنيين . فلما أقبل الرومان عليها خالفهم البربر وأسسوا لانفسهم مذهباً جديداً » .

20 — المسيحية والوثنية بالجزائر

لم تتجاوز المسيحية بالجزائر حدود المملكة الرومانية ، ولم تنتشر داخل تلك الحدود الا على نسبة انتشار اللطينية ، فكانت الاغلبية للوثنية ، وما كان من كثرة الاساقفة ومراكزها بمدن نوميديا وموريطانيا فانما نشأ عن تنافس حزبي الكنيسة لا عن كثرة اتباع المسيحية . وقد رأيت أن مذهب دوتوس هو مذهب الاغلبية المسيحية بالجزائر وذلك لانه مذهب ظاهره ديني وباطنه سياسي يؤيد السيادة الوطنية . ومن هنا كانت كراهية أتباعه للارثذوكس الذين ينصرون الرومان ويؤيدون السيادة الاجنبية .

ولان غاية اتباع دوتوس سياسية لم يتمكن الدين من تحويل
 طبائعهم وعاداتهم وعباداتهم • وكذلك كثير من الارثوذكس لم يكن
 الدين ليفضي الى قلوبهم • وقد كان القديس أغسطين يخضب في
 المسيحيين ويرشدهم الى المسيحية الصرفة • قال الاب مسناج : « اذ
 كان في عصره أكثر المسيحيين لم تزل بين جنوبهم عقائد وثنية : يأتون
 الكنائس ويعبدون فيها آلهة وثنية ، ويذهبون أيضا الى الهياكل
 الوثنية » — وقال أيضا : « فجر القرن الخامس هو أزهر عصر للديانة
 المسيحية بافريقية ، ومع ذلك فانه لم يصل الى قلوب معتقيه من
 البربر ، وانما كان شعارا ظاهريا ، وفي حقيقة الامر لم يزالوا على
 وثنتهم » •

وكان عصر قسطنطين عصر الحرية الدينية فارتفعت عن المسيحية
 الاضطهادات وصار كل من المسيحيين والوثنيين يأتون أعمالهم بحرية
 تامة • ثم تأثرت المسيحية من الوثنية وأصبحت تضطهدها : في عصر
 قسطنط سنة (341) منعت القرايين ، وفي أيامه أيضا سنة (346) أغلقت
 الهياكل الوثنية وشدد في منع القرايين حتى هدد فاعلها بالقتل • وفي
 سنة (380) لم يعترف امبراطور رومة غراطيانس بشيخ الديانة الوثنية •
 ثم صادر سنة (382) املاك الهياكل ، ونزع لشيوخ الوثنية امتيازهم ،
 وأزال من مجلس الشيوخ تمثال الهة النصر •

وفي سنة (399) أمر هنوريوس بإبطال عبادة الاصنام وهدم
 معابدها • وامتنع الوثنيون — وكانوا كثيرين — لهذا الامر •
 ولم تجد الوثنية حريتها الا في زمن يوليانس المرتد (361—363) .
 كان هذا الامبراطور قد تعلم بأثينا • وبعد امبراطوريته فتح
 داره للحكماء والفلاسفة ، فنبذ المسيحية ، وبذلك سمي المرتد ، ومنح
 الوثنيين حريتهم • واشتد على المسيحيين لانهم كانوا في نصره خصمه
 قسطنطيوس ما عدا الدوتسينين •

قال الاب مسناج : وقد استبشر بانتصاره للوثنية بربر افريقية الشمالية ، ولقبوه « محيي القرابين » . وأظهرت مدن كثيرة استثمارها بذلك . وبث مجلس بلدية تمغادي الى يوليانس تهانيهم في مجالس اخرى . وقد كان أكثر الولاة بنوميديا وموريطانيا وأغلب المتوظفين بالمجالس البلدية في أوائل القرن الخامس مسيحيين .

قال الاب مسناج : « ومداوروش كانت كلها وثنية . وهي العاصمة العلمية لوطن أغسطين . ووجدت آثار هياكل وثنية من القرن الخامس ، تدل على عظمتها . في حين ان الكنائس اذ ذاك في غاية الفقر » .

وقد تقدم ان الديانة المسيحية لم تتجاوز حدود المملكة الرومانية . وقد قسم الاب مسناج هذه المملكة الى ثلاثة أقسام :

1 — مدن رومانية ، كانت الاغلبية فيها مسيحية ، ولكنها مزوجة بالمعائد الوثنية .

2 — بوادي رومانية لم يتمكن بها نفوذ الرومان . كانت الاغلبية فيها للوثنية .

3 — جهات غير خاضعة للرومان . هذه لا أثر للمسيحية بها . وقد اتضح ان الاغلبية الساحقة بالجزائر في جانب الوثنية ، وان الاقلية المسيحية لم تكن خالصة ، وان جلها من اتباع دوتوس الذين يرمون الى غرض سياسي .

وقد عاشت المسيحية على أقليتها وعدم خلوصها وتعدد مذاهبها الى أن جاء الاسلام ففضى على الجميع بسرعه المدهشة .

21 — ذكر بعض رجال البربر في الدور الروماني

قد رأيت ما كان للبربر من رجال عظماء وملوك كبراء قبل أن يصابوا بكابوس الاحتلال الروماني . وقد ظهر منهم بعد ذلك الاحتلال

أيضا رجال في العلم وفضلاء في الدين وعظماء في السياسة ونحن نذكر لك ما وقفنا عليه من أسماء الجميع ، وإن كنا نأسف لفقدان تراجم حياة كثير منهم :

1 — فمن رجال العلم الذين كانت لهم شهرة فرنطونس • كان أستاذ الامبراطور مرقس أوراليوس • وله سمعة بين جميع الطبقات في الفن الهندسي ، وهو مولود بقرطة •

ومنهم أبوليوس • قال بيروني : « هو من أكمل الرجال وأعظمهم فائدة في عصره • وأحسن وصف له وأصدقه أن تقول : هو رجل مخترع مؤسس لمباد كثيرة » • وكان قبل القديس أغسطين وأصله من مداوروش •

2 — ومن رجال الدين نمفانيو ، مفعيس ، لسيتة ، سنايس • هؤلاء من أهل القرن الثالث الذين اضطهدوا في سبيل الدين وقتلوا شهداء •

ومنهم دوتتوس مؤسس المذهب المنسوب اليه • وسميه أسقف الديار السود •

وكان بقالمة ومصكولة (خنسله) اسقفان كلاهما يدعى دوتتوس • وكانا عصر تسليم الكتب المقدسة •

ومنهم أبطاط اسقف ميلة • كان في عصر القديس اغسطين • وأعانه في حملته على المسيحيين المتهتكين • وترك تأليف ذات أهمية • وأهمها كتب في تاريخ مذهب دوتتوس •

ومنهم القديس أغسطين • ولد اغسطين بتغاست وتعلم بمدوروس ثم انتقل الى قرطاجنة ثم ذهب الى ميلان بايطاليا ثم عاد الى مسقط رأسه سنة (388) • ونزل دار أبيه وجعلها ديرا يتعبد به • وفي سنة (391) سمي قسا بهبون ، ومنح ارضا خارج المدينة ليبنى بها ديرا ،

ثم سمي اسقفا . واتخذ داره نفسها ديرا . وقد اشتهر هذا الدير وتخرج منه نحو عشرة أساقف . منهم البيوس بتغاست ، وسفروس سمي بيلة سنة (396) ، وفروتوتوس سمي بقسنطينة سنة (402) ، وبوسديوس سمي بقالة سنة (397) وهو مؤرخ حياة اغسطين وافوديوس بأزليس (وجل) في حدود سنة (400) ، ونفاتوس بسطيفي قبل سنة (411) .

ويقال ان أول من أحدث الاديرة بافريقية القديس أغسطين ، وكان من حزب الارثوذكس (سلفي) واتصب للدفاع عن المسيحية . فرد على أدباء عصره الزارين عليها بكتاب سماه « مدينة الله » وما جاء فيه في مقام اثبات الاله قوله : « اني متحقق وجودي . ولا أخشى أن يقال اني غايط في ذلك . لان الغلط دليل الوجود »⁽¹⁾ .

وارشد مسيحي ذلك الوقت الذين انحرفوا عن الدين وانغمسوا في الملاهي والخمر حتى كانوا يتعاطونها في المجامع الدينية . واشتد في حماسه الديني عليهم حتى عزم مسيحيو قرطاجنة على الفتك به . ومن أقواله في سبيل الارشاد : « ان الشهداء ترتجف قلوبهم من زجاجاتكم وآلات طبخكم واصطباحكم » .

وناظر أصحاب دوتنوس بالحجة وأغلق باب السباب الذي لا تخلو منه مناظرتهم سابقا وفتح باب النقد النزيه .

قال بيروني : « وهو أخطب خطيب لطيني وأكبر مفكري كل زمان » . عاش القديس أغسطين حتى فتح الوندال . وحوصر ببونة في جملة المحصورين . وتمكن له الفرار فلم يرضه لنفسه ومنصبه . وبقي مع المحصورين الى أن أدركه أجله سنة (430) .

(1) عثرت على هذه الجملة الفلسفية في كتاب الدين الطبيعي . نقلها عنه مؤلفه جول سمون ، ص 7 .

3 — ومن رجال السياسة لـيوس كـيـتـوس وأـرـديـون . وقد ذكرنا سابقا . ومنهم فرموس وجلدون . وقد أخرجنا ذكرهما الى هذا الفصل لان أنصارهما كانوا من حزب دوتتوس . فرأينا ان نذكرهما بعد الكلام على ذلك الحزب .

كان رجل بربري يدعى نوبال ملكا على القبائل الخمس . وتوفي في عشرة السبعين من القرن الرابع ، وترك أولادا ، وهم : فرموس ، جلدون ، مسيزال ، ديوس ، صلمسيس ، زامة وكلهم مسيحيون .

وفي سنة (372) ثار فرموس على الرومان بجبال جرجرة . وأعانه أهل الموريطانيتين واتباع دوتتوس . فجمع من الجنود نحو عشرين ألفا ذهب بها الى قيصرية فحاصرها ثم افتتحها وحرقها . وامتدت الثورة بنوميديا . وأراد والي قرطاجنة مقاومتها بالحرب فانهزم . ونادى البربر بفرموس ملكا .

بلغ خبر هذه الثورة الشاملة للوطن الجزائري مسامع الامبراطور والتتينايس ، فوجه جندا تحت رئاسة ثاودوسيوس فنزل هذا القائد جيلا وتوجه منها الى سطيف سنة (373) . والتحق به جلدون ومعه جنده ليعينه على أخيه !

وكان مع فرموس أخواه مسيزال وديوس . ولكنه رأى نفسه ضعيفا عن الحرب فراسل ثاودوسيوس في الصلح فلم يقبل ، وتحاربا . وبعد معركتين أعاد فرموس طلب الصلح فقبل ثاودوسيوس . وانعقد الصلح بينهما على الصفة الآتية :

1 — اهداء مدينة الجزائر (اقسيوم) لثاودوسيوس .

2 — تنازل فرموس عن تاجه .

3 — أداء مال كثير لثاودوسيوس .

4 — اعطاء رجال رهنا لتنفيذ مواد الصلح .

ذهب ثأودوسيوس بعد الصلح الى قيصرية ليجددھا وأخذ أعوان فرموس بها بالقتل والجلد . وحاول فرموس تجديد الثورة فلم يفلح . ولما أيس خرج مشرقا لينجو بنفسه . فراصده الرومان ، فعاد الى وطنه وأوقد نار الثورة من جديد . وجمع نحو عشرين الفا هزم بها ثأودوسيوس ففر في جناح الظلام وجمع عساكره بعيون بسام . واستد غيظه على من لم يشب منهم في المعركة فقتل فريقا وحرق آخرين بالنار . وجمع الباقين بسطيف ونظمهم تنظيما حسنا .

كان رجل بربري يدعى اغماسن رئيسا لقبيلة تقطن جنوب جرجرة . وكان هذا الرئيس قد أتان بقبيلته فرموس .

في سنة (375) ذهب ثأودوسيوس الى تلك القبيلة وأرشى رئيسها ليقبض له على فرموس . فلم يخف على فرموس ضعفه وعجزه فانتحر ، ولم يجد اغماسن الا جثته فوجهها على بعير لثأودوسيوس .

قد يكون اغماسن خائنا لفرموس لما عرف به رؤساء البربر من التخاذل . والظاهر عندي انه غير خائن ، بل هو سياسي حاذق لانه علم عجز فرموس وضعف قبيلته عن المقاومة وان الرومان سينتقمون منه ومن قبيلته . فقبل رشوة ثأودوسيوس ليكون له فضل على الرومان فيأمن على نفسه وقبيلته .

فرموس من رجال البربر المعدودين . وقد مازجه شيء من الخلق الروماني فكان مجبا للرفاهية متمتعا بالملذات كأنه قيصر . ومع ذلك قاسى في سبيل الاستقلال البربري أهوال الحروب ثلاث سنين .

فرموس وتقار يناصر ويوغورطة ومصينيسا رجال متشابهون في الجلد ومقارعة الاهوال وعدم الخضوع للعدو وقوة الرجاء في النصر . ومن لم يفلح مات شهيدا في سبيل الاستقلال .

هكذا انتهت حياة فرموس أما أخوه جلدون فقد بقيت العلائق حسنة بينه وبين ثأودوسيوس ، والمكاتبة سائرة بينهما . وكانت له بنت تدعى « صلفينة » ربيت مع ابناء ثأودوسيوس . وتولى هو خطبتها لبعض قرابته فزوجها أبوها ، وأصبحت بالقسطنطينية . وتقوت بذلك العلاقة بين الزعيم البربري والامبراطور الروماني .

وفي سنة (387) سمي جلدون رئيسا أعظم على فيلقين رومانين وفي سنة (395) توفي ثأودوسيوس . واقتسم مملكته ابناءه ارقاديوس على الجهات الشرقية قاعدته القسطنطينية وهنوريوس على الجهات الغربية قاعدته رومة .

هنالك تبين ان جلدون لم يكن محبا للرومان رغم حظوته عند امبراطورهم . وأعلن الحرب على هنوريوس . وقطع عن رومة ما كانت تستورده من حبوب افريقية . وعظله بقرطاجنة .

تهياً وزير هنوريوس الى حرب جلدون وتهياً الدوتسيون لنصرة جلدون . وشقي الكاثوليك اذ ذاك لانهم من دعاة السادة الاجنبية .

وفي هذا الحين ذهب مسيزال الى ايطاليا ولم يعلم مراده فظنه جلدون يتجنس عليه للرومان ، فقتل له ولدين ، وتظاهر بخضوعه للامبراطور .

وجد وزير هنوريوس في قتل ولدي مسيزال أحسن فرصة للانتقام من جلدون . فكلف مسيزال بحربه وأعطاه خمسة آلاف جندي .

وكان لجلدون من الجنود سبعون ألفا . وتقابل الاخوان بجيوشهما نواحي تبسة . وأعجب جلدون بكثرته فلم ينظم جيشه وخفي عليه ان النظام هو القوة . فانهزم جمعه وفر هو قاصدا

القسطنطينية . فأدركه شيعة أخيه بطبرقة ، وجأؤوا به اليه فأودعه السجن . فمجل جلدون أيام نحسه وانتحر بعدما ملك اثني عشر عاما .
بعد انتحار جلدون وجهت رومة الى قرطاجنة واليا ليحوز لها أملاك جلدون وأبيه من أراض وأموال وذخائر . وكانت كثيرة جدا خصص لادارتها نائب خاص .

هكذا انتهت حياة جلدون ، أما مسيزال فانه أعاد افريقية تحت السيادة الرومانية . ثم توجه الى ميلان بايطاليا طمعا في ان يعطى منصب أخيه جلدون جزاء انتقامه من جنسه لقتل ولديه وخدماته للرومان . ولكن وزير هنوريوس لم يجازه جزاء العاملين المخلصين بل جزاء الخائنين السافلين فقتله غريقا في الماء وهو ينظر اليه . وقد أصاب هذا الوزير في قتل مسيزال وجه الصواب في خدمة دولته . فانه لو منح هذا البربري مطلوبه لسلك سبيل جلدون . بل انه سبق جلدون الى كراهية الرومان اذ كان في صف أخيه فرموس .

22 — سقوط حكومة الرومان بالجزائر

ابتدأت علاقة الرومان بالجزائر منذ سنة (213 ق.م) على عهد سيفاقس وتعرفوا بالتراب الجزائري منذ سنة (104) بعد يوغورطة . وتصرفوا في التراب النوميدي منذ سنة (46 ق.م) بعد يوبا الاول . وتم لهم الاستيلاء على الوطن الجزائري سنة (42 م) بعد بطليموس . فكانت المدة بين ابتداء علاقتهم بالجزائر واستيلائهم عليها خمسا وخمسين ومائتين من السنين .

وفي سنة (430) انهدم سلطانهم على ايدي الوندال ، فكانت مدة حكومتهم بالجزائر ثمانية وثمانين وثلاثمائة من السنين . ولم تكن هذه المدة — على طولها — كافية لتثبيت قدم حكومة الرومان بالجزائر . فان البربر ما انفكوا خلال هذه المدة يعربون عن

كراهيتهم للرومان بالقول والفعل • فمن أقوالهم الماثورة في ذلك :
« نقبل رومة في افريقية بشرط ان تضيفها اليها » ومن أفعالهم كثرة
ثوراتهم التي لم تحسم مادتها من عصر تققاريناس الى عصر جلدون •
وقد ظلت جهات محافظة على استقلالها وسط الحكومة الرومانية
وهي جبال أوراس وجرجرة ووانشريس ، وقد كانت هذه الجهات هي
مادة تلقح الحركة الاستقلالية • ومن وصايا بعض السياسيين
الرومانيين : « لا تتم طاعة أية أمة ما دامت حولها أمم غير مطيعة •
واذا أردت ان تحمل أمة على الاستعباد فانزع من بين عينها منظر
الحرية » •

وقد عد بعض المؤرخين من الاغلاط الرومانية تركهم لهذه
الجهات استقلالها • وعندي ان هذا يعد من الرومان عجزا لا غلطا •
فانهم ما كانوا يمينوا على البربر بمساواتهم لهم في الحقوق فكيف
يتركون لبعضهم استقلالهم لو وجدوا الى ذلك سبيلا ؟
واذا بحثت عن علة سقوط حكومة الرومان بالجزائر فلن تجد
لذلك غير ضعف الحاكم ونفور المحكوم منه •

اما ضعف الحاكم فهو ضعف مادي وأدبي • وأما نفور المحكوم
فبعضه ناشئ من الطبيعة البربرية وبعضه من معاملة الرومان • ونحن
الآن نوضح هذه النقطة بإيجاز :

أ — ضعف الرومان المادي : ظهر هذا الضعف في السلطة المركزية
والجندية والعمران •

1 — اما السلطة المركزية فقد كانت تتناها بين آونة وأخرى
— علاوة على الحروب الخارجية — الفتن الداخلية الناشئة من تنافس
العظماء على عرش الامبراطورية • وامتاز عصر ما بين سنتي
(192 — 270) بتداخل الجنود في اسناد الامبراطورية لمن وافق هواهم
حتى عرف بعصر الفوضى • وبلغ من التلاعب بها أن انتقل مركز

السلطة من رومة الى قرطاجنة سنة (237) على عهد غرديانس الاكبر ،
وبقي سرير الملك شاغرا بعد سنة (251) مدة عامين .

وفي عصر ديوقلطيانس بلغ من عجز السلطة المركزية أن قسمت
الممالك الرومانية أربعة أقسام على رأس كل قسم متصرف مطلق .

وما زال سرير الامبراطورية يطفو ويرسب حتى جلس عليه
ولنتيانس الثالث سنة (423) وكان غلاما ابن ست سنوات ، فقامت
أمه مقامه . وكان بونيفاس واليا عاما بافريقية حاذقا في ادارته مخلصا
لدولته . وله منافس يدعى ايتيوس ، وهو قائد عام . فأوغر عليه
صدر بلاصيدية أم الامبراطور العصبي ، وروج عليها انه عازم على
الاستقلال ، وقال لها : ارسلني اليه ليحضر لديك ، فان امتنع فتلك
آية صدقي . وأرسل اليه أن الامبراطورة تريد قتلك . فلما أرسلت
اليه لم يحضر ، واذا ذاك ايقنت صدق ايتيوس ، فعزلته سنة (427)
فرفض عزلها . ووجهت اليه الجنود ، فهزمها . ودخل الوالي
والامبراطورة في حرب ، ولما خشي الغلب راسل الوندال في الاعانة
على أن يمنحهم من وادي مساجا الى آخر ما يملك الرومان بالشمال
الافريقي غربا . فصادف ذلك هوى في نفوس الوندال ولبوا
مسرعين .

2 — واما الجندية فأخذ شأنها يضعف منذ امبراطورية سبتيموس
سويرس اذ أذن للجنود المراقبة على الحدود بالاقامة مع أزواجهم
خارج المراكز الرباطية بصفة مستمرة ، حتى أصبحت تلك المراكز اما
مختزفات للسلاح والمؤن واما ساحات لتدريب الجند .

وفي سنة (237) انتصب غرديانس الاكبر امبراطورا بقرطاجنة
باعانة الفرقة الثالثة . فلما انتصر عليه مكسيمينوس انتقم منها . قال
مرسيي : « وربما قضى عليها لمساعدتها غرديانس » .

وكما كان لبعض الإباطرة يد في ضعف القوة العسكرية بالجزائر كان للزمان أيضا يد في ذلك ، فإن الجنود بطول إقامتها في هذا الوطن ومُنع الأراضي لها عشت الحياة الفلاحية ، وأُسحبت تنافس الأغنياء في تعمير الحقول وتشييد القصور ، فابتعدت بذلك عن الصفات الجندية .

3 — واما العمران فقد كان لضعفه سببان : أحدهما تطلع الاعضاء البلديين لمجلس الشيوخ ، وبعد تسنهم لذلك المنصب تقل عنايتهم بالشؤون البلدية ، ويمفون من الاداء على أملاكهم الواسعة . وثانيهما النزاع الواقع بين المذاهب المسيحية . وقد مر ان من المسيحيين طائفة كانت تجوب البوادي لنسف العمران واعداد الطبقة المثيرة من البلاد .

ب — واما ضعف الرومان الادبي فذلك انهم وجدوا بالجزائر أرضا طيبة التربة ويذا ناشطة في العمل ، فاستغلوها جميعا . وبلغوا بهما أقصى درجات البذخ والنعيم ، فانغمسوا في الملاهي والملاذات ، حتى ان الديانة المسيحية — على ما فيها من تهذيب للنفوس وتزهد في الدنيا — لم تصدهم عن ذلك . وقد حدث أسقف قرطاجنة القديس قريان (248 — 258) عن أكثر أساقفة عصره بانهم كانوا سراقا منهيكين في اللذائذ مرايين الى غير ذلك من الصفات الذميمة . وقد جاهد القديس اغسطين في تقويم الاخلاق جهادا أكبر ولكن الامر قد أدبر وفساد الاخلاق عم وانتشر فلم يكن لكلامه بالنفوس كبير أثر واذا ذهبت أخلاق أمة فيشرها بالزوال

وانما الامم الاخلاق ما بقيت وان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ج — واما نفور البربر الطبيعي فان هذا الجنس سقيت طينته بماء الحرية وعجنت بيد الشدة وجفت بريح الثورة ، فليس في وسعه

ان يخصص للسيادة الاجنبية مهما طال أمدها عليه ، وامتدت عروقها بوطنه ، وكثرت سكاكين حضارتها لتقليم أظفار بدويته ، وفيما سقناه من أحاديث الثورات البربرية ما يغني عن الاسهاب في بيان هذه الحقائق .

د - واما نفور البربر الكسبي فقد رأيت ما كان للرومان عليهم من التفوق والاستعباد . الامر الذي كان يلحق دائما نفورهم الطبيعي . ولا أزيدك في انارة هذه الحقيقة عما تقدم غير كلمة واحدة أنقلها عن بيروني ، وهي لا تخرج في معناها عما سبق . قال هذا البحاث : « والاماكن التي كان للرومان بها سلطة حقيقية وقدم راسخة لا يعامل البربري فيها الا للاتضاع منه » .

هذه أصول علل سقوط حكومة الرومان بالجزائر . وقد أكثر المؤرخون في هذا الموضوع من الابحاث والاستنتاجات . وقد لخصنا لك في هذا الفصل زبدة أقوالهم الصحيحة ، وأعرضنا عن تتبع ما كان لهم من أقوال ساقطة وأفكار سقيمة خشية الاطالة من غير كبير فائدة . والمطلع على كلامهم يرى فيه غرضين واضحين : أحدهما حمل القارىء على الاعتقاد بعظمة الرومان الى درجة أن يدهش من سقوط استعمارهم ، وثانيهما تحذير قومهم من الفرنسيين من الوقوع فيما وقع فيه الرومان . وكلا هذين خارج عن غرضنا من تاريخ الجزائر .

23 — الحضارة الرومانية والبربر

كانت لبعض الاباطرة عناية بفرس الحضارة الرومانية بالجزائر . وأشدهم عناية بذلك اديانوس وسبتيموس سورس وقسطنطين . ويقول بعض المؤرخين : ان الرومان أكملوا حضارتهم بالجزائر حتى أصبحت لا فرق بينها وبين حضارة رومة . ويستدل لذلك بأنه زمن طريانس

صار من يحكم عليه بالنفي من رومة يمنع من افريقية لما بين الوطنين من المشابهة في الحياة والرفاهية .

ونحن لا ننازع في وجود حضارة رومانية بالجزائر شبيهة بحضارة رومة . وانما نبحث عن هذه الحضارة هل كانت خاصة بالرومان أم أن البربر أقبلوا عليها ؟

اختلفت أقوال الباحثين من المؤرخين ازاء هذه النقطة وانقسموا ثلاث فرق :

1 — فرقة تقول : كل ما كان بافريقية الشمالية من بناءات وفلاحة وسائر وجوه العمران انما كان من البربر ، أخذوا الاساليب عن الرومان وعمرُوا لانفسهم . وزعيم هذه الفرقة هو لويس بيرتران . ومما قاله بيرتران : ان البربر أقبلوا على الحضارة الرومانية أكثر مما أرادت منهم رومة ، وان افريقية اللطينية لم تزل قائمة الى يومنا هذا ، لم ينسخ ظلها نور الاسلام اذ أنه انما أتاها بدين ولم يأتها بحضارة ، وانه لم تقع معارضة بين البربر والرومان مع كون السيادة للرومان لا سياسيا ولا دينيا ولا اقتصاديا .

وهذه أقوال سخيفة . وقد تعرض بيروني لردّها . أما أنا فلا أطيل الفصل بنقض أمثال هذه الأقوال ، وكونها صادرة عن فكر لويس بيرتران كاف لسقوطها . واذا كنت تجهل هذا الرجل — رغم كونه رئيس المجمع العلمي الفرنسي — فهو الذي قال فيه أحد الكتاب الفرنسيين وأجاد : « اذا أردت الحقيقة في كلام بيرتران تجدّها في نقيض ما يقول » .

2 — وفرقة تقول : ان الحضارة الرومانية بالجزائر مركبة من أيدي واذهان الرومان والبربر ، وان العنصرين كانا مشتركين في الاحساسات الدينية والسياسية والفوائد الاقتصادية ، وان رومة تداخلت في أخلاق البربر فغيرتها تغييرا معتبرا .

والتاريخ الصادق يشهد لخلاف هذا الرأي أيضا : فان البربر — وان عملوا في تكوين الحضارة الرومانية بوطنهم — انما كانوا بصفة عملة مجبورين • والذين لم تستطع يد الرومان ان تنالهم بالقهر لم يعملوا شيئا في هذه الحضارة • وقد رأيت أن البربر كانوا دائما خلاف الرومان في الدين واثارين على سياستهم ، وانهم كانوا محرومين من الفوائد الاقتصادية ، وان اخلاقهم لم تزل بحالها فان أكثر القائمين بالشورات كانوا ممن عرفوا الحضارة الرومانية واخذوا منها ما لا يضر بقوميتهم •

3 — وفرقة — منها مرسىي وفرنال — تقول : ان البربر لم يقبلوا على الحضارة الرومانية ، وانها ذهبت بذهاب سلطانهم • وهاك أهم حجج هذه الفرقة :

1 — مدة وجود الرومان بافريقية — على طولها — لم تنقطع الثورات ، ولم يفتأ البربر فيها مدافعين عن ديارهم وعوائلهم ، ولم توجد أية قوة تنزع من قلوبهم حب التمتع بالاستقلال •

2 — لم يوجد من البربر من أعان الرومان ، وما كان من مسيزال فانما كان انتقاما من أخيه الذي قتل له ولدين لا حبا في الرومان • ويوضح لك ذلك انه كان حارب الرومان مع أخيه فرموس ، وانهم لم يجازوه على أعاتته لهم على جلدون جزاء المعين المخلص •

3 — عدم انتشار اللغة اللطينية بين البربر حتى آخر عصر الدور الروماني اذ كان عصر القديس أغسطين الولاة الاداريون والرؤساء الدينيون يحتاجون الى ترجمان بينهم وبين البربر •

4 — لم يبق من مدينة رومة غير الخرابات والاحجار المنقوشة ، ولو أثرت رومة في البربر حقيقة لبقى من حضارتها أشياء أخر غير الخرابات •

وهذه الفرقة هي ذات القول الصحيح والحجة القوية ، هي التي صدقت التاريخ ولم تتأثر بدعاية مجدي الرومان ومكبري شأنهم .

قال بيروني : ويمكن اسناد سقوط الحضارة الرومانية بافريقية الى ثلاثة أسباب :

- 1 — فساد الاخلاق الرومانية ، وذلك لكثرة الملاهي والمتنزهات .
- 2 — نقص الرومان الذين ييدهم تسيير الحضارة ، وذلك ان كثرة الملاهي تضعف اليد العاملة فيقل الفلاحون والنوتيون وغيرهم .
- 3 — وجود الديانة المسيحية ، وذلك بما حدث فيها من الاحزاب المتباغضة .

قال بيروني : « والسبب الحقيقي لسقوط الحضارة اللطينية من افريقية هو عدم استقلالها استقلالاً يحفظ بقاءها بعد سقوط رومة » وفي هذا الكلام شيء من الابهام . فان أراد من الاستقلال استقلال الرومان العاملين على نشرها سياسيا واداريا فهذا لا يكفي لحفظها من السقوط لان الجنس الاصلي بهذا الوطن غير مقبل عليها اقبالا يحفظها بعد الرومان . فان قال : ان الرومان لو استقلوا بافريقية لبقيت لهم سلطتهم وحضارتهم ، ولم يضرهم ما يصيب الامبراطورية برومة قلنا ان سلوكهم مع الجنس الاصلي لا يضمن بقاء سلطتهم . بل لو استقلوا عن رومة لتعجل سقوطها . وهذا بونيفاس لما أراد الاستقلال احتاج الى الاستعانة بالوندال . على ان للدول مثل الاشخاص أعمارا تنتهي بانتهاء آجالها طالت أو قصرت .

وان أراد من استقلال الحضارة اللطينية بافريقية الشمالية ان تكون بيد الجنس البربري فصحيح ان تبقى بعد سقوط رومة كما بقيت حضارة قرطاجنة بعد سقوطها . ولكن الرومان ليس غرضهم من

الاستيلاء على الشمال الافريقي نشر حضارتهم به حتى يتخذوا الوسائل اللازمة لقبول البربر اياها . وانما كان غرضهم توسيع دائرة نفوذ رومة ، وتوزيع ابناءها على المستعمرات لكسب الثروة التي عزت عليهم بوطنهم ، وجلب نتائج تلك المستعمرات الى ايطاليا القاحلة .

واذن نقول : ان السبب الحقيقي لسقوط الحضارة اللطينية بالجزائر هو عدم اقبال البربر عليها ، وليس عدم اقبالهم عليها لآفة في طباعهم . فانهم اقبلوا على حضارة قرطاجنة قبلها . وبقوا محافظين عليها حتى جاءهم العرب بحضارة سامية حديثة جرت ذيل النسيان على حضارة سامية قديمة . وعدم اقبالهم على حضارة رومة يرجع الى الاسباب الآتية :

1 — ترفع الرومان عن مخالطتهم . قال يبروني : « وكان الرومان لا يخرجون عن وظيفتهم السياسية والادارية ، ويرفون عن مخالطة البربر . ومن البربر من كانوا يتجنسون بالجنسية الرومانية ، ولكنهم يجدون — بعد تجنسهم — الرومان متمسكين بترفهم عن مخالطتهم » .

2 — سياسة الضغط التي سلكها الرومان مع البربر ، وذلك بانتزاع اراضيهم وسلب حقوقهم وجبرهم على العمل في ارضهم لفائدة غيرهم . فالبربر الذين تحت الاستعباد الروماني ذهب مواهبهم في خدمة الرومان ، والذين سلموا من ذلك الاستعباد تفروا من كل شيء روماني .

3 — اهمال الرومان للبربر ، فلم يعتنوا ببث الاخلاق الفاضلة بينهم وتحويل عوائدهم . اذ كان غرضهم من الاستيلاء الفوز بنتائج الوطن وخيراته .

ومن ههنا نعلم ان البربر لم يمتزجوا بالرومان ويندمجوا فيهم . ولكن لا ننكر وجود شواذ وقدتهم الحضارة الرومانية وتأثروا بساداتهم

في لغتهم وآدابهم ونظام حياتهم • غير ان ذلك لا يعد شيئا بالنظر لطول اقامة الرومان بينهم • بل ان طول اقامتهم بالوطن البربري أثر فيهم أنفسهم حتى صاروا متمييزين عن اخوانهم برومة •

والخلاصة ان استيلاء رومة على الجزائر انما أفاد الرومان ولم يحد البربر لا علميا ولا أخلاقيا ولا اقتصاديا الا عرضا • بل انه بعكس ذلك أعزبهم • ولولا ازعاج رومة لهم واسقاطها لدولهم لكان يكفهم ما أخذوه عن قرطاجنة • وفي مواهبهم الفطرية ما يهزهم لترقيته • فان البربر من أغنى الامم رجالا في صفاء الازهان وقوة الجئان •

24 — ذكر اباطرة رومة مدة الاستيلاء على الجزائر

لم تزل رومة منذ تأسيسها عاصمة الدولة الرومانية الى أن جاء قسطنطين فاختار ان ينقل سرير الملك الى بيزنطة • فاتقل اليها سنة (330) وكان له ثلاثة أبناء اقتسموا المملكة الرومانية بعد وفاته • ثم مات منهم اثنان فاستقل الثالث بالمملكة •

ولم تزل المملكة الرومانية بين انقسام واجتماع حتى سنة (395) حيث تم في هذه السنة انفصال العاصمة الشرقية عن العاصمة الغربية • والجزائر لم تزل تابعة لرومة العاصمة الغربية الا سنة واحدة تبعت فيها القسطنطينية العاصمة الشرقية •

وهاك اسماء اباطرة هذه المملكة في جدول استخرجته من ابن خلدون (2 : 199-216) وقبل ان أرسم لك الجدول أقدم بين يديك ملاحظات :

1 — ذكر ابن خلدون اختلافا في أسماء بعض الاباطرة ومدتهم •

ونحن تقتصر من ذلك على ما كان متحدا أو قريبا مما في كتب
الافرنج . لان ذلك التاريخ الهام قد عبث به الايام فكثرت فيه
التحريف خصوصا في الاعلام .

2 — اقتصر ابن خلدون على ذكر مدة أولئك الابطرة . ونحن
نتمم الجدول ببيان ابتداء ولاية كل واحد منهم ونهايتها بالتاريخ
الميلادي مأخوذا من كتب الافرنج . وما يوجد من اختلاف في مدة
ولاية بعض الابطرة بين ابن خلدون وغيره فذلك مما لا تخلو منه
التواريخ .

3 — قد يكون ما ثبته عن ابن خلدون من الاعلام بعيدا عما في
غيره . فننبه عليه في تعاليق . وقد يظهر لنا ان ما فيه محرف أو
مصحف فلا تثبه في الاصل ولا نهمل التنبيه عليه في التعاليق . وقد
يكون بعض التعاليق لفائدة تاريخية .

جدول الاباطرة

الامبراطور	س	ق	هـ	م	الامبراطور	س	ق	هـ	م
قبحر اکتبيان	27	ق	14	1	طريانس	17	98	117	
طباريش	23	14	37	2	اندریانوس	21	117	138	10
غانيس	4	37	41	3	انطونيس	22	138	161	
قلوديش	14	41	54		اوراليانس	19	161	178	
نيرون	14	54	68	4	كمودة	13	178	192	11
غلبان	9	68	69		برطانوس	3	192		12
أتون	3	69	69	5	يوليانس	2	193		
ابطالس	8	69	69	6	سورس	18	193	211	13
اسباشيانس	9	69	79	7	اقطونيس	6	211	217	14
طيطش	2	79	81		مقرين	1	217	218	15
دومتیان	15	81	96	8	انطونيش	4	218	222	16
نربا	2	96	98	9	اسكندروس	13	222	235	

(1) لم يذكر مدته ، وقال : ولد المسيح لاثنتين واربعين من ولايته .
 وغيره يسميه اکتافيوس ، ويقول : واي سنة 27 ق.م وهو صحيح في نفسه ، ورواية ابن خلدون معتد فيها بما قبل امبراطوريته حيث انه كان أحد الرجال الثلاثة منذ سنة 42 ق.م (2) غيره يدعو طييريوس (3) غيره يدعو قليفولا (4) اضهد المسيحية ، وحرق رومة تلذذا بمنظر الحريق ومات في شهر يونيه (5) فيه أنون بالنون . وهو تصحيف (6) غيره يدعو ويتليوس (7) غيره يدعو وسبسيان (8) فيه دومريان بالراء . وهو تحريف (9) فيه برما . وهو تحريف وتصحيف (10) في غيره أدريانوس باسقاط النون (11) قال : في عشرة ملكه ظهر أردشير بن بابك أول ملوك الدولة الساسانية من دول الفرس (12) في غيره برلينكس (13) في غيره سبتمس سويرس (14) في غيره قراقلا (15) فيه مفريق . وهو تصحيف وتحريف (16) المستفاد من غيره ان علمه الشخصي بسيانس ، وبعد امبراطوريته لقب نفسه « مرقس أريل أنطونين » .

الامبراطور	ق	د	و	ت	ق	الامبراطور	ق	د	و	ت
مخشميان	3	235	238	1	قلوديس	2	268	270	270	7
يونوس	3			2	اورليانس	6	274	270	274	
غرديانوس	6	238	244	3	طافسوس	9	274			8
فلفش	6	244	249	4	فروش	7	276	282		9
دقيانوس	2	249	251	5	ديفلادياوس	21	284	305		10
اورليوس		260			مقسيمانوس					11
غليوس	15	260	268	6	غلاريس		305	311		12

(1) دعى في غيره مكسمينس (2) حكى في اسمه قولين آخرين هما :
لوكش ، بليناوس . ولم أقف عليه في غيره (3) هذا حفيد غرديانس
الاكبر الذي بويج بقرطاجنة بعد الكسندر سويسرس المسمى عنده
اسكندروس . ولم يذكر غرديانس الحد (4) في غيره فليس بالباء
(5) قال : في أيامه كانت قصة فتية أهل الكهف . وفي غيره فليس بالباء
الملك بقي بعد وفاته شاغرا مدة عامين (6) لم يذكر بين دقيانوس
وقلوديس غير امبراطور واحد واختلف نقله في اسمه وفي مدته :
سماه بالاسمين الذين في أصل الجدول وبغيرهما مما لا يختلف عنهما
الا بزيادة الحروف ونقصها . وذكر في مدته روايات منها ما في
الاصل . وفي غيره والريانس ملك بعد شغور الكرسي عامين ، واتخذ
ابنه غالينانس شريكا في الحكم . فلما توفي استقل ابنه . ومن هذا
يظهر ان أورليوس هو والريانس ، وان غلينوس هو غالينانس ، وانهما
شخصان ، وان ما في الاصل من كون مدة غلينوس 15 هو مجموع
مدة الاب وابنه (7) فيه فلوديس . وهو تصحيف (8) عند غيره
تاكيتس (9) عند غيره بباءين بدل الفاءين ، وملكه غير متصل بملك
أورليانس . وجاء بعده خارس ثم هلك وجاء ديوقلطيانس . وقد
أهمل ابن خلدون خارس (10) عند غيره ديوقلطيانس (11) حكى في
مدته سنة وسبع سنين . ثم ذكر مخشميان ، وانه كان شريك
ديوقاريان ، وان ديوقاريان هو ديوقلاديانوس . وعليه فمقسيمانس
هو مخشميان ، وسياق التاريخ يؤيده . وفي غيره يدعى مكسميانس
(12) لم يذكر مدته .

الامبراطور	سنة	الولاية	النجاة	القبيلة	الامبراطور	سنة	الولاية	النجاة	القبيلة
واليس	4	375	378	قسطنطين	50	312	337	1	قسطنطين
واليطينوس	12	364	375	قسطوس		337	350	2	قسطوس
اغراديانوس	3	378	83	قسنطش	24	337	360	3	قسنطش
ثاداسيوس	17	392	95	يوليانوش	2	360	363		يوليانوش
انوريش	15	395	423	يوبينانوس	1	363	364	4	يوبينانوس

(1) كان والده قسطنطيوس خلورس أشركه ديوقليانوس في الحكم ، وجعله على بلاد غاليا واسبانيا وموريطانيا . فلما توفي سنة 306 خلفه ابنه هذا في منصبه . ثم حارب منافسيه . وملك رومة سنة 312 والمدة التي ذكرها ابن خلدون بعيدة عما في هذا البيان (2) عند غيره قسطنط . وهو ابن قسطنطين (3) عند غيره قسطنطيوس . وهو ابن قسطنطين كان على القسطنطينية . وبعد وفاة أخيه استقل بملك القسطنطينية ورومة (4) فيه يوشانوس . وهو تصحيف (5) يدعى عند غيره ولنتانوس ، وهو أخو واليس ، وتولى الملك قبله (6) عند غيره غراطيانوس . وثار عليه رجل يدعى مكسيمس . وملك إيطاليا حتى قتله ثأودوسيوس سنة 388 (7) قال في الخامسة عشر من ملكه ظهر أصحاب الكهف . وعند غيره يدعى ثأودوسيوس ، كان وزيرا كافلا لولنتيانوس الثاني أمبراطور المشرق الذي تولى سنة 378 وبعد قتل مكسيمس جعل مكفوله على بلاد المغرب ، وبقي هو بالقسطنطينية . وفي سنة 392 قتل ولنتيانوس الثاني، ونصب مكانه حاضنه ثأودوسيوس . والمدة التي ذكرها ابن خلدون صحيحة بالنظر لابتداء وزارته اذ كان في الحقيقة هو امبراطور (8) عند غيره هنوريوس ، ومدته أكثر مما ذكر ابن خلدون . وبعد وفاته نصب مكانه ابن اخته باسم ولنتيانوس الثالث ، وفي مدته دخلت الجزائر في يد الوندال .



شكل (24) المر والقوس الذي نسب الى طريانس
بنيت هذه الابنية في عهد طريانس



شكل (25) موازيك « الجميلة »



شكل (26) الصيد : لوحة تمثل حمام فينوس

البَابُ السَّابِعُ

في ذكرى الوندال ومدل امرهم

١ - تمهيد

القوط (ويقال لهم أيضا : الغوث - LES GOTHs) أمة شديدة
البأس صعبة المراس • قال ابن خلدون : « كانوا يعرفون في الزمن
القديم بالسييسين ، نسبة الى الارض التي كانوا يعمرونها بالشرق ،
فيما بين الفرس واليونان » ⁽¹⁾ قال : وكانت لهم حروب مع الملوك
السريانيين من لدن عهد ابراهيم الخليل عليه السلام (كان أواخر الالف
الثالث قبل الميلاد) ثم مع الفرس ثم قهرهم الاسكندر المقدوني
وأخضعهم فيمن أخضع من الأمم • ومن ذلك الحين اختلطوا بالروم
واليونان • هذا ملخص كلامه •

وقال غروت : كانوا في القرن الثالث (ق.م) على شواطئ بحر
البلطيق • ثم انتشروا في جنوب جرمانيا وتعددت شعوبهم فاشتهرت
منها شعوب هيرول (HERULES) وسويف (SUEVES) والان
(ALAINS) وبرغند (BURGONDE) ووندال (VANDALES) قال :
وفي النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد تغلبوا على بلاد مقدونيا
وبلاذ الاغريق • وانتشروا على ضفاف نهر الدنوب ⁽²⁾ بعضهم جنوبه ،
ويسمون القوط الشرقيين ، وبعضهم شماله ، ويسمون القوط
الغربيين •

(1) ج2 ص234 (2) منبع هذا النهر من الغابة الكحلاء غربي المانيا ،
ويعر جنوب المانيا ثم بالنمسا والمجر ، ويفصل بين صربيا والمجر ورومانيا ،
وبين رومانيا وبلغاريا وروسيا ويصب بالبحر الاسود •

وفي سنة (376) على عهد الامبراطور واليس هجم الهون من التتر على القوط الشرقيين . فاجتازوا نهر الدنوب . والتحقوا باخوانهم الغربيين . وهجم الجميع على المملكة الرومانية . واستولنوا تراقية باذن من الامبراطور واليس . ومن هذا الحين انفتحت لهم الطرق في المملكة الرومانية ففي سنة (382) كلفهم ثأودوسيوس وزير ولتنيانس الثاني بحراسة مجار نهر الدنوب ، وملكهم ولايتين هنالك ، ولما ولى ابنه هنوريوس على رومة ، وكان صغير السن ، استوزر له ستيليقون الوندالي . وكان هذا الوزير متزوجا من بنات أباطرة الرومان . وفي أيام وزارته اجتازت طوائف من القوط حدود ايطاليا . فكلفه هنوريوس بحربهم . فجهز الجيوش ، وكانت جنود مرابطة على نهر الرين لحفظ الحدود ، فاستدعاها ، واستعان بها على حرب تلك الطوائف . انتصر ستيليقون في حربه ، ولكن حدود ايطاليا من ناحية الرين بقيت من غير حراسة ، فاجتاز بها من شعوب القوط السويف والألان والوندال ، وانتشروا بالغاليا . وذلك أول يناير سنة (407) .

وكان أليك⁽¹⁾ قد حارب بقومه من القوط الغربيين أرقادبوس أمبراطور القسطنطينية . وتم بينهم الصلح على ان يمنح الامبراطور أليك ولاية اليريا⁽²⁾ . ولما اصططح مع امبراطور المشرق أخذ في الغارات على المملكة الغربية ، ودافعه ستيليقون . ولما أعياه أمره عرض عليه رئاسة الجند الروماني على أن يكف غارات القوط . وكان من الرومان من لم يرض سياسة ستيليقون فقتلوه سنة (408) .

غضب أليك لقتل ستيليقون . فتقدم الى رومة . وحاصرها

(1) سماه ابن خلدون انطرك .

(2) اليريا : وطن جبلي على الشاطئ الشرقي من بحر الادرياتيک .

حصاراً قضى على حياة خلق كثير من أهلها • وأخيراً أفرج عنها عوض غرامة كبيرة أخذها • ثم عاد إليها سنة (409) فخضعت له • وتداخل في شأن الامبراطورية • فأسقط هنوريوس لانه لم يسند اليه رئاسة الجند • ونصب مكانه شخصاً يدعى اتال • ثم نزل هنوريوس على رغبته • فأعاد عليه كرسيه وعزل اتال • وما زال ألريك على عظمتة حتى طمع في فتح افريقية سنة (410) ولكن الزوابع اغرقت اسطوله • فعاد الى إيطاليا وتوفي سنة (411) •

وكان لالريك صهر يدعى اتولف • فقربه هنوريوس وزوجه أخته بلاسيدية وسماه بطريقاً • كل ذلك ليعينه على ابعاد أمم القوط عن إيطاليا • فانتقل اتولف بالقوط الغربيين الى العليا • وكان بها السوف والألان والوندال • فأخرجهم منها الى اسبانيا • وفي سنة(415) قتل اتولف وخلفه في ملكه وليا • فتوسع في اسبانيا ، وأخرج الوندال الى نواحي غرناطة وجيان من الجنوب الاسباني • فاستقروا بذلك القسم • ونسب اليهم • فصار يدعى « وندلوسيا » وقد صقلته العرب فغيرته الى كلمة اندلس •

2 — اصل الوندال

قد رأيت من سياقة تاريخ الوندال عند الافرنج انهم شعب من القوط • وذكر ابن خلدون ان القوط من ماغوغ ابن يافث • ورواية الافرنج هذه هي الصحيحة عندي لما فيها من الشرح والبيان لاحوال الوندال الى ان استقروا باندلس • وذلك يدل على فضل اطلاعهم في هذه المسألة • فيترجح الاخذ بروايتهم •

وهناك روايتان أخريان حكاهما ابن خلدون :
الاولى انهم من الاغريق • وهم أيضاً من يافث • وهاك عبارته :

« ولحق بالاندلس ثلاث طوائف من الغريقيين فاقسموا ملكها •
وهم الايبون والشوانيون والفنداش • وباسم فندلس سميت
الاندلس » ⁽¹⁾ وعبر عن هؤلاء الطوائف بالطوالع •

الرواية الثانية حكاهما بقوله : « وقد يقال ان هؤلاء الطوالع كلهم
من ولد طوال بن يافث ، وليسوا من الغريقيين » ⁽²⁾ •

وفي كلتا روايتيه نظر : أما الاولى فيبطلها ان الرومان كانوا
يطلقون على الوندال وغيرهم من أمم القوط اسم المتوحشين • ولم
يعهد منهم هذا اطلاق في الاغريق • كيف وهم اساتذتهم في العلوم
والحضارة ؟ ولعل منشأ الوهم في هذه الرواية ما ذكره ابن خلدون
نفسه من ان القوط اختلطوا بالروم واليونان منذ عهد الاسكندر •
فاختلط على صاحب الرواية بعض شعوب القوط بشعوب الاغريق •

وأما الثانية فقد أشار الى ضعفها بقوله وقد يقال • ووجه
سقوطها ان أبناء قوطبال استوطنوا الاندلس بعد الطوفان على ما ذكره
في موضع آخر ، وتقدمت الإشارة اليه في الباب الثاني • وهؤلاء
الطوالع انما نزلوا الاندلس أوائل القرن الخامس للميلاد كما تقدم
في سياقة تاريخ الافرنج • وتدل عليه أخبار ابن خلدون •

ومما يرشح الاخذ برواية الافرنج أن أسماء الطوالع عند ابن
خلدون قرية من أسماء الشعوب التي صرح الافرنج أنهم من القوط :
فالاندلس هم الوندال ، والايبون يظهر أنهم ألان صحفت النون باء ،
والشوانيون يظهر أنهم السوييف ، ووضع الشين مكان السين من
الشائم ، فابن خلدون نفسه عبر عن الوندال مرة باسم فندلس وأخرى

(1) ج 2 ص 235 وما ذكره باسم طوال ذكره في تفصيل انساب العالم
باسم قوطبال ، وذكره في الكلام على انساب اليونان والروم باسم
طوبال •

باسم فندلس ، والفاء عربت باء فيما يظهر ولكنها صحفت في الطبع
نونا ، وكثيرا ما يعرب ابن خلدون حرف (V) باء •

والخلاصة ان الوندال شعبة من القوط يدل على ذلك سيافة
تاريخهم ، واتحادهم في الاخلاق حتى أطلق الرومان على الجميع اسم
المتوحشين ، واتحادهم ايضا في الدين واللغة •

وقد بقي اسم القوط لبعض شعوب هذه الامة • وهم الذين
أسسوا دولتهم بالغاليا الى أن سقطت سنة (507) وانتقلت الى
الاندلس وبقيت هنالك الى ان قضى عليها طارق بن زياد وموسى
ابن نصير سنة (711) •

أما الوندال فانهم أسسوا دولتهم بافريقية وبقوا بها حتى قضى
عليهم الروم البيزنطيون •

ع — ديانة الوندال

كان الوندال — كبقية القوط — وثنيين يعبدون الشمس والقمر
والارض وغيرهن من آلهتهم حتى بلغتهم دعوة المسيحية أواخر القرن
الرابع للميلاد •

كانت المسيحية قد انقسم أتباعها الى مذاهب متنافرة متباغضة •
ومن بين تلك المذاهب مذهب أريوس • وكان أريوس هذا لعهد
ديوقليانس وأدرك دولة قسطنطين • قال ابن خلدون : وهو كبير
تلامذة ماربطرس بطرك الاسكندرية • وكان كثير المخالفة له • فسخطه
وطرده • وقال في موضع آخر : « وكان يذهب الى حدوث الابن
— عيسى عليه السلام — وانه انما خلق الخلق بتفويض الاب اليه في
ذلك » ولعل المراد من الخلق ما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى :

« واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني ، فتنفخ فيها فيكون طائرا باذني » واذن تكون عقيدة أريوس في عيسى مثل عقيدة الاسلام .

بعد وفاة ماريطرس انتصب اسكندروس مكانه بطركا . فأشاد بكفر أريوس . وكتب بذلك الى جميع النواحي . فبلغ الخبر قسطنطين . فأحضر أسكندروس وأريوس في أساقفة آخرين . وتناظروا أمامه . فمال الى أسكندروس . واذن له أن يشيد بكفر أريوس . وما أقبح تداخل القوة المادية في القوة الفكرية ! وما أعجز فؤوسها عن ايجاد قبر يعني وجودها !

حاول أسكندروس ان يعني مقالة أريوس فانتشرت على الرغم منه ومن قسطنطين حتى أن كثيرا من الملوك أخذوا بها وانتصروا لها . قال ابن خلدون : « وغلبت تلك المقالة على أهل قسطنطينة وانطاكية ومصر والاسكندرية » .

بلغت المسيحية في أواسط القرن الرابع الى القوط على يد أتباع أريوس . وكان الوندال منهم كلهم أريويين . ويقيمون مراسم ديانتهم باللغة القوطية لا باللاتينية . وكانوا على غاية من التعصب لمذهبهم حتى ان جل ما يجده المؤرخ من أحاديث الوندال بأفريقية هي اضطهاداتهم للارثوذكس . ومما زاد في تعصبهم واضطهادهم لغيرهم ان ملوك الارثوذكس في نواح أخرى كانوا يعدبون الارويين أيضا . فكان الوندال ينتقمون لآخوانهم في الدين من أعدائهم الذين تحت سلطانهم . وليست يد السياسة ببعيدة عن تلك الاضطهادات .

4 — استيلاء الوندال على الجزائر

ظهرت أمة الهون من التتر وأمم القوط بأروبا . وأخذت تلك الامم تنقص الامبراطورية الرومانية من أطرافها حتى بلغوا قلبها ،

وصاروا يتحكمون في تنصيب الامبراطور • فأصابا أوروبا والمملكة الرومانية منهم جوائح القتن وارتفع الامن وذهب العمران •

والجزائر — كبقية الشمال الافريقي — كانت في هرج من أجل تنافس الاحزاب المسيحية وثورات بعض المتطوعين الى الاستقلال من البربر والرومان • ولكنها لم تزل أحسن حالا من أوروبا وانعم بالا منها •

ولما استقر الوندال بالاندلس اتخذوا سفنا لخوض لجج البحر الابيض المتوسط • فكانوا ينظرون الى شمال افريقية من كتب • ومع علمهم بضعف رومة وجرأتهم على ولاياتها بأروبا لم يجرأوا على افريقية • فبقوا ينتظرون سنوح الفرصة لهم بفتحها ، حتى وجدوا في الكونت بونيفاس تحقيقا لأمانهم وانجازا لآمالهم •

في سنة (422) سمي بونيفاس واليا على افريقية • وفي سنة (423) توفي هنوريوس ، وتطلع الى خلافته أناس ، ووقعت رومة لذلك في هرج ، وكانت بيلاسيدية أخت هنوريوس بالقسطنطينية ، ومعها ولدها من قسطنس قائد هنوريوس • تزوجته بعد قتل اتولف • وتدخل امبراطور القسطنطينية ثادوسيوس بن ارقاديوس أخي هنوريوس في عرش رومة • فنصب به ابن عمته بيلاسيدية باسم ولتنيانس الثالث تحت كفالة أمه • وذلك سنة (424) •

لما أفضى الامر الى بيلاسيدية فوضت لبونيفاس في التصرف • فخدم دولته خدمة صادقة ، وصار من عظماء الحكومة • فحسده لذلك بعض منافسيه • وقام بدور السعاية به مع بيلاسيدية قائد عام يدعى ايتيوس • وأخذ يدس عليه الدسائس معها حتى أصغت اليه وعزلت بونيفاس من ولايته سنة (427) •

كانت المصلحة الشخصية أغلب على بونيفاس من المصلحة العامة •

فلم يمثل أمر العزل ، ولم يبال بما يصيب دولته من شغبه عليها وهي على فراش الاحتضار . وصمت الامبراطورة على عزله . وعززت أمرها بالقوة العسكرية . فحاربها بونيفاس ، وهزم جنودها . فعادت لحربه في السنة التالية . ووجد هو موقفه حرجا ، البربر أهل الوطن ضده ، ودولته تحاربه ، وارادته أبت من الامتثال للعزل . فأراد أن يستعين على الخلاص من الازمة بالاجنبي . فاستنجد الوندال على أن يمنحهم غرب المملكة الرومانية بأفريقية الى وادي مساغا ، ويسلموا له في شرق هذه المملكة ، يبقى به مستقلا⁽¹⁾ فأسرع الوندال الاجابة .

وفي سنة (429) نزل الوندال والسويف والألان وغيرهم من أمم القوط بموريطانيا الطنجية . وانبثوا في الوطن البربري كالجراد المنتشر . قال مرسيي : « وكان عددهم ثمانين ألفا المقاتلون منهم خمسون ألفا » .

وفي هذه المدة كان القديس أغسطين يسعى في الصلح بين بونيفاس والامبراطورة . فأدركت أخيرا غلظها وتحققت الدسيسة . فرضيت عنه وأعادت عليه منصبه ، ولكن بعد نزول الوندال بموريطانيا .

ولما عاد بونيفاس الى منصبه ندم على اتفاقه مع الوندال فأرسل اليهم أن عودوا الى الاندلس ، واخرجوا من المملكة الرومانية ! فلم يسرع الوندال الى اجابته هذه المرة ، بل تمادوا في سيرهم . وعدوا أمر بونيفاس هذا ناقضا لاتفاقهم معه . فلم يبقوا عند حد وادي مساغا ، وتعدوه الى نوميديا . وصدق على سياسة بونيفاس معهم المثل العربي : « لا هنك أنقيت ولا ماءك أبقيت » .

(1) ابن الثرى من الثريا ؟ أين بونيفاس من خالد بن الوليد (ض) الذي كان قائدا عاما وغازيا منصورا ، فلما عزله عمر (ض) امتثل ورجع تحت لواء أبي عبيدة جندبا مخلصا ؟

ولما رأى بونيفاس تقدم الوندال في الوطن تهيأ لحربهم ، وجمع
جموعه • فالتقى الفريقان قرب قلعة • ودارت الدائرة على بونيفاس ،
ففر الى بونة ، وتحصن بها • وذلك سنة (430) •

وبعد فراره قسم الوندال جنودهم قسمين : قسما تركوه
للاستيلاء على نوميديا ، وآخر وجهوه لحصار بونة • فكان الاول
يفتح مدن نوميديا بمساعدة اتباع دوتنوس ، ويطش بالارثدوكس ،
وكان الثاني يجمع جث القتلى في خنادق حول المدينة ليفرق من
منظرها المحصورون •

وفي سنة (31) أرسلت ييلاسيدية نجدة الى بونيفاس تشجع
بها ، وخرج لقتال الوندال • ولكنه انهزم أمامهم • فدخلوا المدينة ،
ونهبوها ، وحرقوها • وايس بونيفاس من المقاومة ، فترك الوطن
لفاتحيه ، وذهب الى الامبراطورة ، فأكرمته ، ورفعت منزلته ، ولم
تؤاخذة على خسارة وطن هو حياة رومة لعلها بأن لها يدا في ذلك
باصغائها للوشاة •

وبفتح بونة وذهاب بونيفاس تم للوندال فتح الوطن الجزائري
(موريطانيا ونوميديا) وذلك في مدة عامين •

ويجب ههنا أن نتذكر سير الاستيلاء الروماني على الجزائر •
فقد تقدم أنهم تعرفوا الى هذا الوطن سنة (213) ق.م وشرعوا في
تحقيق استيلائهم عليه من سنة (46) ق.م الى سنة (42) للميلاد •
أما الوندال فلم تتقدم لهم معرفة به ، ولم يمشكوا في فتحه غير عامين •
وهذا مما يبعث على البحث في سبب الفرق الكبير بين سير
الاستيلاءين •

لا يصح أن ترجع سرعة الاحتلال الثاني وبطء الاول الى تفوق
الوندال على الرومان في السياسة والجندية • فان الواقع يشهد

لخلاف ذلك • فلنبحث عن العلة في غير القوة الحربية والحكمة السياسية •

يقول بعض المؤرخين : ان الذي سهل على الوندال احتلال الوطن البربري وقرب أمده هو اتفاقهم والبربر طبعاً وديناً • ذلك بأن طبع الجميع حب الثورات وهدم الحضارات ، ودين الجميع كان على خلاف دين الرومان الارثوذكس • وليس ذلك عندي بصحيح • فان البربر انما كانت ثوراتهم حبا في الاستقلال وتطهير هوائهم من سموم الانفاس الاجنبية ، وكانوا أكثرهم وثنيين والمسيحيون منهم كانوا غير متفقين مذهبا مع الوندال •

ومن المؤرخين من يعترف بوجود فروق بين البربر والوندال من شأنها ان توجد الكراهية والبغضاء بين الامتين • وهذه الفروق هي : اللغة ، القوانين ، الاخلاق ، العوائد ، اللون • ويعمل هذا المؤرخ سرعة احتلال الوندال بأمرين : انتشار الفوضى في الوطن ، وحسن سياسة القائد الوندالي •

وليس هذا بصحيح عندي أيضا • أما الفوضى البربرية فانما هي من حيث فقد أمير عام يلتفون حوله ، لان الرجال الذين يصلحون لذلك قد قضت عليهم رومة ، ولا يمنع ذلك من وجود رؤساء على عشائر يقومون بالدفاع عن وطنهم وتعطيل سير الوندال به ، وأما حسن سياسة القائد الوندالي فليست هي التي استمالت اليه البربر ، وانما نفعت في جمع كلمة من تحت رايته من قومه وتثبيت قدم دولته بعد الاحتلال •

وعندي أن لا سبب لسرعة احتلال الوندال غير مساعدة البربر لهم • وعلّة مساعدتهم أنهم كانوا ينفرون من سلطة رومة ، ويمشقون الاستقلال • وقد حاولوا مرارا أن يبلغوا مرادهم من طرد الرومان

والاستقلال بوطنهم فلم ينجحوا • فلما وجدوا في الوندال نصيرا على طرد الرومان أعانوهم مكتفين بهذا الشر من غايتهم ، اذ رأوا أنهم عاجزون عن الشر الآخر وهو الاستقلال • فاستبدلوا احتلالا باحتلال ، تحقيقا لاحد المقصدين ، وتلك قاعدة ارتكاب أخف الضررين •

5 — تأسيس حكومة الوندال

استولى الوندال على نوميديا وما يليها غربا • واتخذوا بونة عاصمة مملكتهم • وأيست رومة من ارجاع ذلك الوطن بالحرب ، لما كانت عليه من الاختلال والانحلال • ورأى الامبراطور أن يحافظ على ما بقي له من تراب افريقية • فأرسل رسولا الى جنسريق قائد الوندال ومملكتهم ، ليفاضه في الصلح • وفي سنة (35) تم الاتفاق بين الفريقين حسبما يلي :

- 1 — يدفع أمير الوندال لامبراطور رومة غرامة سنوية •
- 2 — لا يتجاوز ملكه حدود نوميديا شرقا •
- 3 — يعطي ولده هنريق رهنا على الوفاء •
- 4 — يعمل بهذه المعاهدة لمدة ثلاثين سنة •

قضت هذه المعاهدة ببقاء حق امبراطور رومة في الجزائر وقبول جنسريق لان يكون تحت سيادته • فأظهر له حسن الولاة ، وحافظ على مواد المعاهدة • وبعد اربع سنوات وثق الامبراطور باخلاصه ، فسمح له ولده • وذلك ما كان ينتظره جنسريق لتوسيع مملكته بفتح البروقصلية (تونس) •

لم يبق لجنسريق بعد رجوع ولده ما يحمله على احترام المعاهدة • واتفق ان كان الرومان اذ ذاك مشغولين بحرب القوط • فلم يهمل هذه

الفرصة • وذهب الى قرطاجنة ، ففتحها من غير عناء • واستولى على البروقنصلية • وتم له بذلك الاستيلاء على تونس والجزائر ومراكش وذلك سنة (439) •

لم يستطع ولنتيانس الثالث أن ينتقم من جنسريق لتعديه على المعاهدة • وقديما عد الرومان مدافعة القرطاجنيين لهجوم مصينيسا خرقا لمعاهدة (201) ق.م وهكذا ترى القوي يعد مدافعة الضعيف عن حقه تعديا ، والضعيف يداس حقه فيتظاهر بالحلم والسماح •

رأى ولنتيانس ضعفه أمام قوة جنسريق • فلم يحتج بالمعاهدة التي بينهما • واكتفى بتجديد معاهدة أخرى معه • فوقع الاتفاق بينهما بقرطاجنة سنة (42) على ان يسلم الامبراطور للامير من سرت شرقا الى تبسة وشرق بنارية وباجة غربا ، ويسلم الامير للامبراطور بقية نوميديا وجميع أقسام موريطانيا •

قضت هذه المعاهدة بعود الجزائر الى السلطة الرومانية • ولكنها سلطة ضعيفة ، وقصيرة العمر ، اذ قضى عليها جنسريق سنة (55) وما قبل هذه المعاهدة الا بنية القضاء عليها ، حيث أنه استبدل وطننا هادئا غنيا لسلامته من جوائح الثورات بوطن قضى على عمرانه تعدد الفتن وأنهكه تهاتل الارزاء والمحن •

في سنة (450) توفيت بلاسيدية • وبقيت الملكة بيد ابنها ولنتيانس • فعبث بها عبثا كبيرا • وأخيرا قتل سنة (54) وانتصب قاتله مكانه • وزاد ذلك في اضطراب أحوال رومة • وكان جنسريق يراقب أحوال أروبا • فرأى في اختلال رومة ما شجعه على غزوها • فجهز جيوشه من الوندال والبربر • وقصدها ففتحها سنة (55) من غير عناء ولا تعب • وسرح جنوده فيها للنهب اربعة عشر يوما • ثم عاد الى قرطاجنة ظافرا منصورا يحمل غنائم جليلة واسارى من أعيان الرومان •

من ذلك الحين انتهت بقايا سيادة الرومان على شمال افريقية .
واستقل به الوندال . وعدوا أنفسهم سادة هذا الوطن . فكانوا
يؤرخون بايام ملوكهم . ولم يقبل الملوك القبا تشريفية من رومة لئلا
يعدوا كموظفين رومانيين ، وصاروا يرسمون صورهم على النقود .
وكانت المملكة الشرقية القوية تنظر الى أختها أو أمها المملكة
الغربية بعين الحنان والشفقة . فأراد امبراطورها ان يتداخل في شؤون
الوندال تارة لفائدة رومة وأخرى لفائدة الارثوذكس . ولكن ملوك
الوندال كانوا يرفضون تداخله بكل شمم .

والخلاصة ان جنسريق كان في بداية استيلائه يتظاهر باحترام
دولة الرومان . وبعد رجوعه من رومة رفع غشاء السيادة الرومانية .
وبقي يلين القول لامبراطور القسطنطينية لقوته . فلما جاء خلفاؤه
تمموا استقلالهم ، وطهروه من شائبة أي تداخل أجنبي .
وقد علمت ان استيلاءهم على الجزائر فيما بين سنتي (30-42)
كان تحت سيادة الرومان الاسمية . وعادت الجزائر الى الرومان من
سنة (42) الى سنة (455) ومن هذه السنة استقل الوندال بالجزائر
وغيرها . وجعلوا عاصمتهم قرطاجنة .

6 — نظام دولة الوندال

بعدما استقر جنسريق ببونة أخذ ينظم شؤونه ويستأصل جرثومة
الخلاف عليه . كان له أخ يدعى غندريك ، وكان هو رئيس الوندال
بالاندلس . فقتله هنالك ، وأودع زوجته وابناءه السجن . فلما حل
ببونة قتل الجميع ، وتتبع شيعة أخيه حتى أخضعهم . واعتنى بالجندية
والبحرية . فاتخذ جيشا من الوندال والبربر يشتمل على ثمانين
فرقة . وكان يستميل البربر ، ويتقي كل ما من شأنه ان يثيرهم عليه .

وإذا اضطر لمحاربتهم لم يحاربهم الا بالوندال الحقيقيين ، لانهم أكثر اخلاصا له ، وأشد قوة على الحرب . وكان يمنح الجيش من الغنائم . واتخذ اسطولا عظيما خاض به عباب البحر الابيض المتوسط ، وملك به أهم جزره ، وأدهش به الايطاليين . قال مرسيسي : وقد وجد في هذا الاسطول فائدتين : الغنائم التي كان يجلبها بالقرصنة ، وتمرين الجنود على الحرب . وأرى فائدة ثالثة وهي اشغال البربر من جيشه بالقرصنة حتى لا يثوروا عليه . وقد غفل خلفاؤه عن هذه الفائدة ، فلم يجدوا في البربر السلم التي وجدها هو .

وبعد ان دخل جنسريق قرطاجنة وثبتت قدمه هنالك بمعاهدة سنة (42) اتخذ الوطن التونسي وطننا ونداليا . فقسم ادارته الى خمس عمالات ، وقسم اراضيها بين ولديه هنريق وجنصون ، والجنود ، ومعمري الوندال . وابقى بعض الاراضي للاهالي .

أما الوطن الجزائري فلم يدخل عليه بعد عوده اليه أي تغيير اداري ولا استعماري . بل ابقى لسكانه نظامهم القديم وولائهم ومجالسهم البلدية وشرائعهم الذاتية ، وانما اتخذ به مراكز للجنود وكان يرسل اليه احيانا بعض أعيان دولته لاستطلاع الحالتين : السياسية والعسكرية ، ولم ينتزع منهم أملاكهم ، الا ما كان من املاك الدولة الرومانية فانه صار الى ملوك الوندال ، وعليه وكلاء وبه خدمة فلاحون ، ولم تتغير حالة الضرائب ايضا الا في المدة التي عادت فيها الجزائر الى الرومان فان الامبراطور أصدر أمرا سنة (45) باسقاط سبعة أثمان الغرامة عن الاهالي .

وكان رؤساء البربر منقادين لملك الوندال ، ويمدون جيشه برجالهم .

ووجد أتباع دوتنوس في الوندال أعظم نصير فثاروا من

الارثذوكس . وفي أيام هنريق استعملوا قوانين ضد الارثذوكس هي نفس القوانين التي شرعها بعض أباطرة رومة للارثذوكس لينفذوها على الدونويين « وتلك الايام نداولها بين الناس » .

والخلاصة أن الوندال لم يحدثوا أي تغيير بالوطن الجزائري الا ما كان من قلة عددهم به بالنسبة الى ما كان به من الرومان ، ولم يلحق سكانه منهم أي اضطهاد الا من كانوا أرثذوكس وهم أقل القليل كما سبق .

7 — ملوك الوندال وسياستهم

اعتلى عرش مملكة الوندال بافريقية ستة ملوك في مدة تزيد على مائة سنة .

1 — جنسريق (429-77) : هو الذي تولى قيادة الجيش الذي ساقه لفتح افريقية . وأسس بها دولة الوندال .

كان من أعظم ملوك افريقية وانفذهم رأيا وأبعدهم نظرا ، سياسيا ماهرا وحربيا حاذقا . لا يحارب الا حيث يرى فائدته في الحرب . ولذلك عقد معاهدتين مع امبراطور رومة . ولما تيسرت له الحرب لم يبال بالمعاهدتين . وان رأى أنه عاجز عن الحرب توقاها واستعان بدهائه . فقد جمع له مجريان (الذي تولى الامبراطورية برومة سنة 457) بقرطجنة سنة (58) ثلاثمائة سفينة ليحاربه بها ويسترجع منه افريقية . فرأى هذا الملك أنه عاجز عن صده بالقوة ، فأرسل الجواسيس الى معسكر العدو وكان به جنود من القوط . فاستمال الجواسيس هؤلاء القوطيون ، وأغرقوا السفن بمكانها . ونجا بهذا الدهاء جنسريق من شر حرب لا قبل له بها . وكان امبراطور القسطنطينية يحاول اضعاف الوندال . فأرسل جيشا بریا وآخر بحريا

لحرب جنسريق . ورأى هذا الملك عجزه فصار يناوشهم القتال ، ويث فيهم الجواسيس ، ويسمى في تفرقتهم . فتم له الفوز . واكتفى الجيشان من الغنية بالاياب . فعادا الى القسطنطينية سنة (70) .

وفي سنة (476)⁽¹⁾ عقد معاهدة مع امبراطوري الشرق والغرب على ان لا يحارب أحد منهما مملكته ويعترف بان له ملك افريقية . وهكذا ظل منصورا في كل مواقفه حتى أدركه حمامه .

2 — هنريق (477-84) : انتصب مكان أبيه . ولكن لم يخلفه في تديره ودهائه . فقد كان ضعيف السياسة شديد القسوة سفاكا للدماء . ولم ينج من بطشه حتى أقاربه وحاشيته . ويكفي أن نسوق حكاية واحدة عن أسقف قرطاجنة الاربوي ذهب اليه ليعظه ويرقق قلبه . فجازاه بأن حرقه أمام الناس ؟

ولسوء سياسته انسلخ عنه أكثر الجهات . وانحصرت دولته في السواحل وبعض دواخل الوطن .

3 — غندامند (484-96) : هو ابن جنصون . انتصب مكان عمه . ووجد الدولة في خطر من جراء سياسة عمه . فحاول ان ينهض بها ، ويكبح جماح الثوار . فلم يأت بشيء . وكان كسلفه مشتدا على الارثوذكس . فأدرك ما في ذلك من ضرر بالسياسة ، ورجع عن شدته ، وأعاد المنفيين منهم ، ورجع اليهم أملاكهم .

4 — تراسمند (496-523) : انتصب مكان أخيه . واشتد على الارثوذكس . وحسن علاقته مع القوط . وتزوج بأخت ملكهم .

5 — هلدريق (523-31) : هو ابن هنريق . انتصب مكان ابن

(1) في هذه السنة سقطت مملكة الرومان الغربية . قضى عليها اداقر ملك الهيرول . واستولى على ثلثي ايطاليا . واصطاح مع جنسريق . واقتسما صقلية .

عمه • وكان حيا محبا للسلم • وخالف سياسة اسلافه : فرفع الاضطهادات عن الارثوذكس ، وأعلن بدخول دولته تحت سيادة يستينيان امبراطور القسطنطينية ، وصار يرسم على نقوده صورة هذا الامبراطور ، وقطع علائقه مع القوط بقتل أخت ملكهم زوجة تراسمند لانها سعت في تدبير ثورة ضده •

ولم يرتض الوندال سياسته هاتيه ، فثاروا عليه ، وأودعوه السجن ، فلم يزل به حتى قتل سنة (53) •

6 — جلمير (531-534) : هو حفيد جنصون • كان في دولة هلدريق رئيسا للجنود ومكلفا بحرب بربر المغرب • وله تأثير على الجنود • فكانوا يحبونه • ولما رأى انحراف الوندال عن ملكهم داخل جنوده في الثورة عليه • فأجابوه بالامثال • فثار عليه ، وأودعه السجن ، وانتصب مكانه •

بلغ خبر هذه الثورة يستينيان ، فامتعض لها • وارسل الى جلمير : ان سرح هلدريق ، واعد له كرسيه • فكان جواب هذه الرسالة التشديد على هلدريق حتى لا يعد جلمير مثله خاضعا ليستينيان • ولما رأى الامبراطور اصرار جلمير على سياسته ارسل اليه ثانية : ليسرح هلدريق ، وليأذن له في الالتحاق به • وان لم يفعل فالحرب • فأجابه جلمير عن هذه الرسالة بقوله : « اني لم أتول الملك بالقهر • • • وهلدريق كان صاحب دسائس في الاسرة • وحق الوندال كلهم عليه هو الذي أسقطه • فبقي الكرسي شاغرا فجلست عليه بوجه شرعي ، لاني أكبر الاسرة » • وقال جوابا عن تهديده له بالحرب : « الملك الحكيم هو الذي يشتغل بحكومته • ولا يد طرفه الى ما هو خارج حدودها • ولا يتداخل في شؤون الدول الاخرى • واذا أردت قطع ما بيننا من المعاهدات فاني معذور في مقابلتك بالمثل » •

كان هذا الجواب قاطعا لآمال يستينيان في أن يفيد صديقه هلدريك
بالمكاتبة . ولم يبق له الا الاعراض عنه أو الحرب . وهي أنسب
بعظمته . فتجهز لحرب الوندال بأفريقية . واتتهت الحرب بخضوع
جليير الى قائد الروم البيزنطيين . فذهب به هذا القائد الى
القسطنطينية . ومنحه يستينيان أرضا بالاناضول قضى بها بقية حياته .

8 — اعمال الوندال

الوندال أمة حربية متعصبة لمذهبها . فلم يشتغلوا بأفريقية الا
بالغزوات البحرية ، والاضطهادات للارثوذكس . ولم يفيدوا الوطن
لا يعلم ولا بصناعة . بل كانوا سببا في نقص عمرانه وعلة لخرابه
ومادة لاذكاء نار الثورات به .

جنسريق مؤسس دولتهم والمعدود من أمهر السياسيين أمر بنسف
عمران أقسام موريطانيا وافساد سبلها عندما بلغه ان مجريان جمع
جموعه بقرطجنة ، وقاصد لحربه على طريق المغرب . وكان مشتدا
على الارثوذكس ، حتى انه سنة (37) طلب منهم الدخول في مذهب
أريوس . وأغلق كنائس من لم يلبوا طلبه منهم ونفاهم .

وهنريق جمع في سنة (83) أساقفة وقسوسا وشمامسة من
الارثوذكس ، بلغ عددهم 4976 وحشرهم في شق بنارية ، وسيقوا من
هنالك الى مجزرة الصحراء . وطلب اليه بعض أساقفة الارثوذكس
انهاء اضطهادهم بعقد مجمع في افريقية ، يستدعى اليه كل من له رتبة
في الكنيسة من جميع أنحاء العالم . فأجابه بقوله : « اني أحب ذلك .
لكن بشرط أن تضع العالم كله تحت سيطرتي » .

وغندامد اشتد أيضا على الارثوذكس أولا . وفي سنة (87)
عفا عنهم .

وتراسمند جرى على سياسة سلفه في العفو عنهم • ولكنه كان يستبيلهم الى مذهبه بمنافع يمنحهم اياها • ولم يساعدهم على نظام كنيستهم ، ونفى من الاساقفة من لم يخضعوا لاوامره •

وهلدريق أوصاه سلفه بالرفق بالارثذوكس • فجرى على وصيته • وفي سنة (524) عقد مجمعا بقرطاجنة رجاء ايجاد سبل للمفاهمة والموافقة والموافقة بين المذهبيين • فانفصل المجمع على استحالة توافقهما •

والخلاصة أن أعمال الوندال كانت منحصرة في تخريب حصون الرومان ، وامتلاك ما كانوا أخذوه عن البربر من الاراضي بجميع الشمال الافريقي ، واضطهاد الارثذوكس الروماني النزعة بنفي أساقفتهم واغلاق كنائسهم وانتزاع أملاكهم • وقد ساموهم سوء العذاب : يحرقون رجالهم ونساءهم بالنار ، أو يمثلون بهم بقطع الاعضاء أو الضرب بالسياط •

وتاريخهم حافل بتفاصيل وقائع الاضطهادات واعمال التخريب • ولكن لا تخلو تلك الاحاديث من المبالغات • على ان اجمال ذلك أنسب بنا من بيانه ، لكون أكثره خارجا عن موضوع تاريخنا ، وأغلب مسيحيي الجزائر كانوا دونويين فنجوا من تلك الاضطهادات ، بل كانوا شركاء الوندال في التعدي على الارثذوكس وادالهم الله منهم •

9 — ثورات البربر

قد علمت انه لم يكن للوندال بالوطن الجزائري غير مراكز عسكرية قليلة وأراض دولية الفلاحون بها من البربر • فكان عدد الوندال به قليلا ، وسلطتهم على أهله ضعيفة • وإذا كان الرومان على قوتهم الحرية والاستعمارية وطول أمدهم لم يقطعوا ثورات البربر

فان الوندال أعجز من أن يعمدوا سيوف أولئك الابطال الا في جسد سلطتهم .

كان جنسريق يحملهم على الهدوء بعاملتي الترغيب والترهيب . فقد كان معنيا بالجندية التي يخشون بطشها ، وكان يشركهم مع جنوده في غزواته وغنائمها ، حتى في فتح رومة وما عاد به منها من النفائس .

وبهذه السياسة شغلهم عن تدبير الثورات ، ورغبتهم في السلم . فكانت افريقية الشمالية على عهده في راحة من الثورات لم تعرفها في غير عصره . ووجد البربر اذ ذاك الفرصة لاسترجاع قوتهم الحربية ، لكنهم لم يستعملوها ضده ولم يهملوها بعد وفاته .

جاء بعده هنريق الذي لم يكن كآبيه ، فلم يعامله البربر مثله . وثاروا عليه سنة (83) بعد جمع الارثوذكس بشق نارية وتشريدتهم في الصحراء . امتدت الثورة من جبل راشد وجبال أوراس وجرجرة وما بينهما الى طرابلس . وهجم الثوار على الجهات الشمالية . قال مرسيي : كان هؤلاء الثوار منضمين من عهد جنسريق . وانضم اليهم ضباط من الارثوذكس المتحنيين . وقد دافعهم هنريق . فعجز عن اخماد ثورتهم . وانحصرت مملكة الوندال في السواحل وبعض الجهات الداخلية .

وجاء غندامند فلم يستطع ان يقف حربة البربر . وتقدم الجيتوليون على عهده الى ناحية قفطة . وفي عصر تراسمند تقدم البربر في لم شعثم واستعدادهم للثورة . وفي عصر هلدريق انتصر البربر على قائده أومير ، وأخذوا بذلك حريتهم . وكانت محاولات الوندال لاختصاصهم تذهب هباء .

كانت ثورات البربر ناشئة عن سوء سياسة خلفاء جنسريق لانهم

أهملوا الجندية وفرطوا في الاسطول • فلم ير البربر نلك القوة التي كانوا يخشونها ، ولم يجدوا تلك الغنائم التي كانوا يجرونها •
وقرب نجاح تلك الثورات أن الوندال كانوا خربوا أسوار المدن خوفا من أن يتحصن بها الرومان • فلم يجد الثوار حاجزا يقف سير ثورتهم •

في عهد خلفاء جنسريق استولى البربر على أكثر تراب الموريطانيّين • ونزل بربر أوراس الى سهول نوميديا • وخربوا بها المدن الزاهرة التي كانت تحت حماية الفرقة الثالثة الاوغسطية • وهي : تيفيست ، باغاية ، تمغادي ، لمبس • وبلغوا قريبا من قسنطينة •

قال اغسال : « حقا ان البربر أنفسهم كانوا يكتسون الوندال • لولا ان الاغريق هم الذين تحملوا بهذه الخدمة » ⁽¹⁾ •

10 — انتهاء دولة الوندال

في سنة (533) قدم الروم البيزنطيون الى افريقية لحرب جلمير • وفي شتبر تلك السنة فتحوا قرطاجنة • وبقي جلمير خارجها يجمع الوندال والبربر ليعيد عليهم الحرب • وفي منتصف دجنبر آخر السنة عادت الحرب بين الفريقين وانتصر فيها الروم • ففر جلمير الى بعض الجبال متحصنا • وحماه البربر بمدينتهم مدينس • فحاصرها الروم ثلاثة أشهر ولم يقووا على فتحها • وأخيرا طلب جلمير الامان لنفسه من الروم • فأمنوه واستسلم لهم • وذلك سنة (534) وباستسلامه انتهت دولة الوندال التي تأسست بالجزائر سنة (430) فكانت مدتها 104 ولم يضبط ابن خلدون ذلك • فقال : انها كانت نحو من ثمانين سنة •

(1) الجزائر في القديم 131 .

وبسقوط ملكهم ذهب من افريقية كل شيء وندالي . قال مرسبي : « بعد ستة أشهر من مجيء البيزنطيين لم تبق افريقية وندالية . الامر الذي يدل على ان استيلاءهم لم يتمكن منها . وذلك أنهم بعد ما فتحوها فتحا سريعا مدوا أعينهم الى جهات أخرى . فاشتغلوا بالفتح واطفاء الثورات . ولم يستعمروا الارض وينشروا المدنية . ولم يمتزجوا بالمعمرين من الرومان ولا اتخذوا روابط مع البربر . وبهذا ذهب أثرهم بأثر فقد ملكهم . أما رجالهم فقد ذهب أكثرهم في الحرب . وانتقل بعضهم مع جلمير الى المشرق ودخلوا تحت العلم البيزنطي . وانتقل آخرون الى جهات أخرى . وبقي منهم قليل بافريقية . ولكن لم يكن لهذا الباقي تأثير بها . لانهم أمة حربية ذهب جندھا وملكھا . ولم يبق لهم بعد دولتهم الا ذكرهم السيء . وكل فتح لم يرتكز على الاستعمار يذهب أثره بذهاب دولته » .

وقال بيروني : « لا يوجد دليل على ان الوندال حكموا نوميديا كلها . انما كان سلطانهم حقيقيا على الشواطئ الساحلية . وهو أشبه شيء باستيلاء الاسبان في القرن السادس عشر » وبعد ان ذكر كلاما نظير ما قدمنا عن مرسبي قال : « ويقول بعض المؤرخين : ان الوندال أخذوا شيئا من الحضارة الرومانية . وأعانوا الفلاحة . وجلبوا المياه . واخترعوا صناعة أسلحة . وهم أمة متعصبة للغتها وآدابها لا تسمح لها نفسها بتعلم اللغات الاجنبية وآدابها . ومع ذلك فان لجنسريق ابن أخ كان متضلعا في اللغة اللطينية وعلوم رومة . وشهد كثير من المؤرخين بأن تراسمند كان أعلم أهل افريقية ، وكان يحب المحاوره باللسان اللطيني في المسائل الإلهية والفلسفية مع رجال الكنيسة . وألف باللغة اللطينية كتابا يؤيد فيه مذهب أريوس ، أظهر فيه بلاغة في الانشاء ومقدرة في المنطق . والوندال — وان كانوا أقل حضارة من الرومان — استفادوا من مآستهم ، ونقلوا عنهم في أمد

قليل عوائد • وهذا مما يؤيد كفاءتهم وأهليتهم للفنون والادب •
وقد نظم جلمير أيام حضارة قصائد بديعة • ولم يبق شيء مما كتبه
الوندال حتى أن أسلحتهم ذهبت ، ولم تعش بعد القرون الوسطى ⁽¹⁾ •
ولم يبق من لغتهم الا بعض كلمات وأعلام شخصية • وهذا الفناء
التام هو الذي جرأ من بعدهم على لعنهم وتشويه سمعتهم • ولا يعقل
أن تدوم حكومة قرنا كاملا ولا غرض لها الا الهدم • بل لا بد ان
تكون لها حسنات • ويظهر أنها هدمت أكثر مما شادت » •

هذا كلام بيروني نقلناه بطوله لانه اشتهر أن الامة الوندالية
أمة متوحشة هدامة للحضارات شأنها الغزو والسلب والنهب • فلكيلا
يظن ان ذلك حقيقة تاريخية لا نزاع فيها نقلنا كلام المؤرخ مرسيي
المؤيد لهذه النظرية ثم كلام الباحثة بيروني المناقض لها والمبين لسبب
هذه السمعة السيئة •

ونحن نميل الى الرأي الثاني لاعتداله وتدعيمه بالادلة المعقولة •
بخلاف أصحاب الرأي الاول فقد بالغوا في ذم الوندال • وقد بين
بيروني سبب اقدامهم على هذا التحامل بكون الوندال فنوا فناء
تاما • أما سبب تحاملهم فلأن هذه الامة كانت حاربت المملكة الغريبة ،
وأسست دولتها على حسابها • ثم حاربت المملكة الشرقية احتفاظا
بسلطانها فلم تغلح • فمحاربتها لهاتين المملكتين الشقيقتين ووقوع
عصرها بين دوريهما سبب قوي لذلك التحامل •

وسواء صح الرأي الاول أم الثاني فان بربر الجزائر لم يستفيدوا
من الوندال لا علما ولا صناعة ولا أخلاقا ولا نظاما ، لان سلطتهم

(1) يقسم المؤرخون ادوار التاريخ الى ثلاثة : القرون الاولى ، من
فجر التاريخ الى انقسام دولة الرومان سنة 395 م ، والقرون الوسطى ،
من ذلك الحين الى فتح القسطنطينية سنة 1453 ، والقرون الاخيرة ، من
ذلك العهد الى اليوم •

عليهم كانت على ضعفها غير شاملة لجميعهم . وقد رأيت أنهم كانوا في أيام جنسريق أيام شباب الدولة متهمين للثورة . فلم يغب عن الوجود حتى أعلنوها .

على أن البربر ليس غرضهم من تسهيل طرق الاستيلاء للوندال أن يفيدوهم في شيء غير طرد الرومان . وقد نالوا هذا الغرض . وبزوال الضغط الروماني استطاعوا أن يجددوا قوتهم الحرية ويستعيدوا حياتهم الاستقلالية . هذا ما قصدوه من استبدال الوندال بالرومان . وهذا ما استفادوه منهم وبلغوا منه غايتهم . حتى أنه — كما سبق — لو لم يجعل الروم البيزنطيون بقدمهم إلى افريقية لاستطاع البربر وحدهم أن يقضوا على الوندال ويستقلوا بوطنهم .

شكل (27) - الجدار : القسم الاول عبارة عن سطح وغرفة مخصصة للعبادة .



شكل (28) — الحدار : الجيل الأخضر



البُحَاثُ الثَّانِي

في ذكرى دولة الروم

١ - تمهيد

تأسست الدولة الرومانية بايطاليا • تلك الجزيرة المتوسطة بين عالمي الشرق والغرب • فلما أخذت تعظم صارت تتوسع في هذين العالمين • وملكت فيهما من الاوطان ما صير رومة عاجزة عن القيام بادارتها •

كان ذلك العجز ناشئا أولا عن كثرة المستعمرات ، وثانيا عن محاولة بعض الامم المغلوبة للاستقلال ، وثالثا عن هجمات أمم القوط وغيرهم ، ورابعا عن تنافس عظماء الرومان على الرئاسة والاقتتال من أجلها •

وقد حاول كثير من الابطارة رفع ذلك العجز باشتراك بعض قرابتهم أو عظماء قوادهم معهم في الحكم والادارة • وكان الامبراطور ديوقلطيانس قد أشرك معه مكسيمانس ، واقتسما ادارة الامبراطورية ، ثم أشرك معه غلاريوس وقسطنطيوس خلورس • فصارت الامبراطورية الى أربعة أقسام • أحدها بلاد غاليا واسبانيا وبريطانيا • وكان على هذا القسم خلورس • ثم اعتزل الملك كل من ديوقلطيانس ومكسيمانس • واتخذ غلاريوس معه شريكين ، أحدهما مكسينوس والآخر ليقينيوس • وفي خلورس • فقام مقامه ابنه قسطنطين • وثار بايطاليا على غلاريوس مكسنتيوس ابن مكسيمانس •

وفي سنة (311) توفي غلاريوس • واقتسم شريكاه مملكته •
وتحالف مكسيموس ومكسنتيوس ، واتحد ليقينيوس وقسطنطين •
ونشبت الحرب بين الفريقين • وانتهت بفوز قسطنطين وحليفه •
فدخل رومة • وذلك سنة (312) واختص بالجهات الغربية ، وأخذ
حليفه الجهات الشرقية • ثم نشبت الحرب بين هذين الحليفين • فانتصر
قسطنطين ، وقتل حليفه بالامس وخصمه اليوم • وذلك سنة (324) •

بعد هذا الانتصار أصبح قسطنطين الامبراطور الوحيد لجميع
المملكة الرومانية • وفي سنة (330) نقل مقر الحكومة الى الشرق •
وجعل عاصمته بيزنطة • وبقيت المملكة الرومانية ذات وحدة ، غير أن
اعتيادها للانقسام واحداث عاصمة ثانية فيها فتحا لها بابا الى الانقسام
والانفصال • فلما أفضت الامبراطورية الى ثاودوسيوس قسم المملكة
بين ولديه : ارقاديوس ، جعله على العاصمة الشرقية ، وهنوريوس ،
جعله على العاصمة الغربية • ثم توفي هو سنة (395) فاستقل كل من
الولدين بناحيته ، وتم الانفصال بين العاصمتين • وأخذت الاولى في
في الصعود ، والثانية في السقوط •

هذه المملكة الشرقية هي التي يدعو العرب أهلها من الانغريق
واللطين بالروم • ويطلقون اسم الرومان على أهل المملكة الغربية •

بعد أن بلغ الروم قوة عظيمة صاروا يحاولون استرجاع كل
الممالك التي خرجت عن رومة ، ويرون لانفسهم الحق في تراثها •
فاشتبكوا لذلك مع الوندال بأفريقية ، والقوط بالاندلس ، وغيرهم •
وكانت لذلك حروب ضررها بالبشرية غير يسير •

وقد بلغ من عظمة الروم أن صارت لا يدانيها في العظمة غير
دولة الفرس • وكانت بين هاتين الدولتين العظيمتين حروب ذات أهوال
وخطوب •

وبقي الروم في عظمة سلطان الى أن ظهر الاسلام وجمع كلمة العرب ونظم قوتهم . فأخذوا يفتحون البلدان ويستولون على الاوطان . فانتزعوا من الروم غرر دولتهم من أوطان الشام ومصر وافريقية الشمالية .

أست دولة الروم بعد ان أخذ منها العرب زهرتها تذبذب وتبدل ، حتى ظهر آل عثمان من الاتراك ، وضايقوها فيما بقي لها ، وصاروا يستولون على مدنها . وجاء محمد الفاتح منهم ، فقفى على البقية الباقية منها بفتح القسطنطينية سنة (857 هـ 1453 م) .

2 — بيزنطة

عرفت ان الغرب يطلقون اسم الروم على أهل المملكة الشرقية من اللطين والاغريق . والافرنج يطلقون على هؤلاء الروم اسم البيزنطيين . وذلك نسبة الى عاصمة دولتهم مدينة بيزنطة .

وهي مدينة قديمة ذات موقع ممتاز لتوسطها بين قارتي آسيا وأروبا ، ووقوعها على مضيق البوسفور الواصل بين البحر الاسود وبحر مرمرة المتصل بالبحر الابيض المتوسط .

وقد ذكر ابن خلدون بيزنطة مرة باسم بوزنطية وأخرى بلفظ بيزنطية . وقال : انها بنيت في الثانية والخمسين من ملك منشا بن حزقيا هو . وهاك عبارته : « وفي تاسعة وثلاثين من ملكه ملك سنجاريك الصغير مملكة الموصل . قاله ابن العميد . وفي الثانية والخمسين بنيت بوزنطية ، بناها بورس الملك . وهي التي جددها قسطنطين ، وسماها باسمه » ⁽¹⁾ .

(1) ج 2 ص 105 وفي الاصل بوزنطية بالراء . وهو تصحيف .

وسنجارييف الصغير هذا هو ابن سنجارييف الذي دعاه ابن
 خلدون بهذا العلم . ويظهر من سياقة تاريخه انه المعروف عند غيره
 باسم سيناخريب (SENNACHERIB) والاختلاف قد يكون من
 أصل النقل . وقد يكون من تصحيف النساخ للخاء جيما والباء فاء .
 وسياقة حديث سنجارييف الصغير تقتضي انه المعروف في غير ابن
 خلدون باسم اسرجدون . وهو قد تولى الملك سنة (681) ق.م فتكون
 هذه السنة هي التاسعة والثلاثين من ملك منشاء والثانية والخمسون من ملكه
 توافق سنة (688) . فتكون بيزنطة أسست في هذه السنة .

وبعد ان استولى الرومان على البلاد الاغريقية لم يتنبه أباطرتهم
 لاهمية موقع بيزنطة ، حتى جاء قسطنطين ، فتنبه لذلك ، وانتقل
 اليها سنة (330م) .

وكان انتقاله لها لغرضين : ديني وسياسي . أما الديني فلانه
 تنصر ، وكانت رومة لا يزال عظماءها وثنيين . فهو لا يستطيع أن
 يؤيد ديانتهم بينهم . ويضر بنفوذه ان هو قام فيها بحماية المسيحية .
 فابتعد عنهم الى بيزنطة ، واتخذها مهدا صالحا لنمو المسيحية . وأما
 الغرض السياسي فلان الفرس كانوا يهددون دولته من ناحية الفرات ،
 وأمم القوط يهددون من ناحية الدانوب . فنزل تلك المدينة المتوسطة
 بين ذينك النهرين ليراقب حركات الاعداء ويرد غاراتهم .

ولما انتقل اليها أخذ في تعميرها على مثال رومة ، ونسبها اليه .
 فصارت تدعى القسطنطينية . ثم لما فتحها محمد الثاني من آل عثمان
 صارت تدعى اسلامبول . ومعنى ذلك مدينة الاسلام . وقد غير
 هذا العلم الى لفظ اسطنبول .

3 — الروم في افريقية

كان يستينان امبراطور القسطنطينية ينظر الى المملكة الغربية التي زال منها حكم الرومان نظر الوارث المستحق ، ويتحين الفرص لاسترجاعها ، وضمها الى الامبراطورية الشرقية . فكان لذلك يتدخل في شؤون الوندال بافريقية ، وكان سروره عظيما يوم أعلن هلدريك سيادته بها ، وكان كذلك استياء الوندال عظيما ، أفضى الى اسقاط ملكهم واجلاس جلمير مكانه . وقد عجم يستينان عود جلمير بالكتابة ، فوجده صلبا . فأراد أن يهشمه بالكتيبة لا بالكتابة .

كان يستينان في حرب مع الفرس دام أمدھا خمس سنوات . ولما أجابه جلمير ذلك الجواب اصطلح مع الفرس على أن يؤدي لهم غرامة مبلغها أحد عشر مليونا من الفرنك ، وأخذ يتهيأ لحرب الوندال .

اشترى يستينان حرب الوندال بذلك الثمن . وانه لزهيد بالنظر لخيرات افريقية . ولكن وزراءه استصعبوا قبض متباعهم لبعده عن العاصمة وشجاعة حماته من الوندال . وكادوا يردونه عن عزمه . غير أن بعض أساقفة الارثوذكس الذين يودون انقاذ اخوانهم من الاضطهاد الوندالي شجعه على الغزو ، وتنبا له بالفوز والنصر . واتفق أن كانت طرابلس وصقلية تائرتين على الوندال . وطلب رئيسا الثورة بهما اعانة هذا الامبراطور على أن يسهلا له طريق الاستيلاء على افريقية . فزاد ذلك في نشاط يستينان ، ومضى على عزمه .

وكان من رجال البلاط الامبراطوري رجل يدعى بليسير ، له نفوذ بالجيش . فاختره الامبراطور لقيادة حرب افريقية . وفوض له في اختيار الضباط . وصدر له الامر بركوب البحر .

في صائفة سنة (533) ركب بليسير البحر بجيش يشتمل على خمسة عشر الفا ثلثهم فرسان ، في أسطول يتركب من خمسمائة سفينة . وركبت معه زوجه وكاتبه المؤرخ بروكوب . وحضر ركوبهم الامبراطور نفسه ، وأحد الاساقفة ، وزودهم بالدعاء .

سار الاسطول الى أن أرسى بصقلية . فنزل الجيش للاستراحة والتزود والاستعلام عن أحوال الوندال . وذهب بروكوب الى سرقوسة ليأتي مخدموه بارشادات . فعاد اليه يحمل هذه البيانات :

- 1 — الجنود الوندالية بسرديانيا تحارب عاملها الثائر .
- 2 — جلمير نازل بالبيزاصين (جنوب تونس) .
- 3 — الوندال لا علم لهم بمجيء الجيش الرومي .

بعدئذ ارتحل بليسير بجيشه ، وأرسى بخليج قابس في يولييه . وأخذ يتنقل مع الساحل البحري ، ففتح لبتييس وحضر موت . وارسل الى سراة الوندال باسم الامبراطور : اني لم آت محاربا للامة الوندالية . وانما جئت محاربا لشخص جلمير الذي اغتصب الملك من يد هلدريق !

ولما علم جلمير بنزول الروم بافريقية جمع جموعه لحربهم . وكانت بين الفريقين معارك لم تغل من عزم جلمير وان كان وقعها عليه شديدا . وأخيرا ذهب الى جبل بابوة (PAPPUA) ⁽¹⁾ فقتلاه أهله البربر بالترحاب ، وادخلوه مدينتهم ميدينس (MIDENOS) .

نزل بهذه المدينة طمعا في أن يجد سبيلا في الذهاب الى الاندلس . وارسل الى ملك القوط بهاثوديس ليوجه له مراكب . فلباه . ولكن القدر أبى على جلمير الا أن يقع بيد أعدائه . فحوصر بتلك المدينة ثلاثة أشهر . ولما أيس من اللحاق بالاندلس طلب من

(1) اختلف في هذا الجبل : قيل هو جبل ايدوغ وقيل جبل الناطور .

بليسير الامان . فآمنه . وسلم نفسه اليه . فذهب به الى القسطنطينية .
وذلك سنة (534) .

4 _ الروم بالجزائر

بعد فرار جلمير الى جبل بابوة توجه بليسير الى بونة فاحتلها .
وبعث بمن فيها من الودال الى قرطاجنة . ثم وجه جندا عن طريق
البحر الى قيصرية . فاستولى عليها . وبلغ ذلك الجند سبعة ففتحها
أفضا . وأصدر يستيان أمرا يقول فيه : « لا بد أن ندافع عن
الخاضعين لنا ، ونصل بحدودنا الى حيث وصلت الجمهورية
الرومانية » ولكنه حلم لذيذ جعلته نقطة البربر من اضعاف الاحلام ،
وأمل حال دون تحقيقه تمسك البربر باستقلالهم وقدرتهم على حماية
أنفسهم .

جد الروم في الاستيلاء على الجزائر . ولكن لم يكن لهم
في أول الامر غير السيادة الاسمية في جهات قسنطينة وسهول سيوس
وأعالي مجردة . ولحفظ تلك السيادة جعلوا على هذا القسم خطا
من الحصون : أهم مراكزه قسنطينة وقالة .

وفي سنة (530) فتحوا أوراس والحضنة ووطن سطيف . ولكن
لم تثبت قدمهم بأوراس . فاكثفوا باتخاذ حصون قوية شماله .
وذهب خط الحدود من هذا الشمال مغربا فمر بضينة وزابي . ثم
انحنى شمالا مشتملا على سطيف .

وبقية الوطن الجزائري لم يحتل منه الروم غير بعض المراسي .
منها رسقوناي وتبازا وقيصرية وقرطنة . ولم يبلغوا هذه المراسي
الا من طريق البحر . قود ضيق البربر عليهم فيها تضيقا شديدا .
فعاثوا بها عيشة بؤس . وأحاطوها بأسوار لم تزل آثارها حتى

اليوم . وهي تدل على نقصان مساحتها بالنسبة لما كانت عليه عصر الرومان .

وقد قسم الروم جزائرهم الى قسمين : نوميديا ، وهي الجهات الشرقية من الوطن الجزائري ، وموريطانية الثانية ، وهي تلك المراسي التي ليس لهم حونها أي سلطة . وجعلوا لكل من القسمين رئيسا . وبعد مدة أضيفت موريطانيا الى عمالة سطيف .

وقد سلك يستنيان سبيل الرومان . فأسكن الجنود على خط الحدود ومنحهم الأراضي لاستعمارها . وقد علم ان هذا وحده غير كاف لحفظ ما استولى عليه جيشه . فاستمال بعض رؤساء القبائل بأن جعل لهم أرزاقا سنوية ، ومنحهم القبا شرفية ، وأنعم عليهم بالأوسمة . واحتاذ لبائهم في خدمته بأن أغرى بينهم العداوة والبغضاء . وغرهم بتأثيرات رؤساء الدين . وأخذ من قبائلهم رجالا رهبان . وجعلهم تحت اشراف قواده من الروم ، فمن رأوا منه انحرافا عن الطاعة قضموا عنه كل ما كان يناله من دولتهم .

قال اغسال : « ومع هذا كله لم يكن السلم مستمرا . فكثيرا ما اجتاز البربر الحصون الرومية . وعاثوا في البوادي فسادا . واتقاء من هذه القارات اتخذ المعرون حصونا متنوعة بباديتهم » .

5 — امراء البربر في العصر الرومي

قد علمت ما استولى عليه الروم من وطن الجزائر وأنه اقل بكثير مما بقي بأيدي البربر غير معتل . وتوجد خارج تلك الحدود امارات عظمى للبربر ، منها امارة قرب تيهرت . تركت آثارا تدل على عظمتها ، منها ثلاثة عشر هرما يسميها العرب اليوم الجدار ، يبلغ ارتفاع أكبرها أكثر من تسعين ذراعا . وهي قبور لبعض الاسر البربرية .

من أمراء البربر في هذا العصر مصيناس • كان على موريطانيا •
ويلقب نفسه : « ملك القبائل الموريطانية والرومان » والمراد من
الرومان الباقون بموريطانيا بعد ذهاب سلطتهم من أفريقية • وهذا
اللقب يدل على عظمة صاحبه حيث ان الرومان خاضعون له واخوانهم
من الروم بجوارهم ، اذ لو وجدوا سبيلا للشغب عليه والاحتفاء
بالروم لفعلوا جادين •

- ومنهم أرثياس • كان على غربي أوراس الى الحضنة •
- ومنهم بيداس • كان على جبل أوراس •
- ومنهم قطزيناس • كان على شرقي أوراس •

هؤلاء الامراء كانوا مستقلين بنواحيهم • ووجدوا القبائل التي
تحت سلطانهم وردوا لها قوتها الحرية لما ضعفت السلطة الوندالية •
واسترجع البربر على عهدهم كثيرا من الاراضي التي كان الرومان
استولوا عليها • وصار شعارهم : « أرض البربر للبربر » •

قال مرسيي : وقد وصف تجديد الوطنية البربرية لكرؤا
(LA CROIX) وهو كاتب بليغ • فقال : « الرومان ذلك الجنس
القوي الحاذق العظيم في التمدن وقوة الفتوح ، لم يكن في وقت من
الافاق امتزج بالبربر امتزاجا حقيقيا • بربر السهول والمدن وما
قاربها اختلطوا حقيقة بالرومان • ولكن بربر الصحراء والجبال لم
يلغ شيء من تأثيرات الرومان اليهم • بعد سبعة قرون من ابتداء
تسلط الرومان على افريقية وجدت الجنس البربري كما كان قبل ذلك
التسلط • ثوار القرن السادس الذين حاربهم البيزنطيون في أوراس
وايدوغ والبيزاصين كانوا مماثلين لاسلافهم الذين مر عليهم ستة قرون،
وحاربوا الرومان تحت يوغورطة: طبائع متحدة وأعمال متماثلة وكرهية
واحدة للاجنبي ومحبة واحدة للحرية وصفة واحدة في الحرب .. هذه

الامة لم تتبدل عن حالها الاولى ، ولا يخرق سياج طبائعها أي أثر خارجي • العدد الكثير الذي حارب يستنيان بعد ذهاب الوندال ، واستحالة استيلاء البيزنطيين على ملك أسلافهم الرومان ، يدلان على أن أكثر البربر لا يمكن نفوذ شيء الى طبائعهم »⁽¹⁾ •

أجاد الكاتب حقاً في وصف الوطنية البربرية ، ولكنه أخطأ في جعله وطنيتهم قد منعتهم من نفوذ شيء الى طبائعهم • فان تاريخهم ما تقدم منه وما يأتي يدل على أنهم يقبلون الرقي والحضارة لكن اذا لم يصحبها صفار •

6 — حروب الروم والبربر

بعد ذهاب بليسير بجليير الى القسطنطينية بقي على رئاسة افريقية الرومية سليمان الخصي • وما كاد بليسير يركب البحر حتى أسرع البربر الى الثورة • فحاربوا الروم • واستولوا على جميع مراكز الجند الرومي بدواخل الوطن •

قطزinas تقدم الى البيزاصين • وسرح له سليمان الجنود فحاصروهم بكهف هنالك • واستأصلهم • ثم خرج سليمان نفسه سنة (35) فهزم قطزinas • وعاد الى قرطاجنة • فعاد البربر الى الثورة وخرج اليهم ثانية • فوجدتهم متحصنين بجبل بورغون (المظنون أنه جبل بوغانم) فأخرجهم من حصنهم وهزمهم •

وفي هذا الحين كان بيداس ومصيناس يحولان بنوميديا ونبهاها بجموعهما • والتحق بيداس بعض البربر المنهزمين بالبيزاصين مستصرخين به • وأصبح موقف سليمان في أخرج ما يكون • ولكن

(1) مرسبي 1 : 168 عن مجلة افريقية •

طبيعة البربر في الانقسام وتخاذل الرؤساء نفست عليه قليلا اذ تطوع بعضهم لسليمان بالدلالة على طرق الوطن لتتبع بيداس . فخرج سليمان يطلبه حتى بلغ جبل ابيديس (جبل شلية) ولكنه لم يظفر به ولم يبصره . وكان وقت الشتاء قريبا والمؤونة غير كافية للاقامة . فعاد الى قرطاجنة .

دخلت سنة (36) وخرج فصل الشتاء . فتجهز سليمان في فصل الربيع لحرب بيداس . ولكن جنوده كانت قليلة الانقياد . فلما شق عليها تتبع هذا الامير في جباله شقت عصا الطاعة في وجه سليمان وعزمت على قتله ، فما وسعه الا النجاة بنفسه . فأعذ السير الى قرطاجنة . ومنها ذهب الى صقلية — وبها بليسير — فأعمله بناجرى . فركب بليسير البحر الى قرطاجنة لاختضاع الجنود . واثارت بعده جنوده هنالك . فعاد سريعا الى صقلية . وبقيت افريقية الرومية بعده في فوضى عامة .

كانت تلك الجنود الثائرة بافريقية متحدة تحت رئيس يدعى ستوزاس . وارسل يستيان جرمان واليا . فحارب ستوزاس . وبينما هو فار أمامه الى ناحية بها بيداس وأرياس طمعا في نصرتهما اذا بهذين الاميرين قد نزلا على جنوده واستأصلاها . ففر الى موريطانيا . وكانت هذه المعركة بمكان يدعى « سلاص فاتاري » قال مرسي : وهو اما نواحي تيفاش واما جنوب قسنطينة .

وفي سنة (39) عزل جرمان وعين مكانه سليمان الخصي . فجعل حرب أوراس نصب عينيه . وكان على بربر البيزاصين أمير منهم يدعى اتلاس . فاستماله سليمان وجعل له عطاء سنويا . وفي ربيع سنة (40) أرسل أحد ضباطه لفتح أوراس . وخرج هو بأثره . ولما بصر هذا الضابط بالعدو لم يقف لحظة عن الفرار الى باغاية . فأدركه البربر .

وحاصروه بها • وأرسلوا عليها الماء كي يفرق من بها • ولكن سليمان أدرك ضابطه ففك عنه الحصار •

بعد ذلك تتبع سليمان البربر في جبال أوراس طامعا في ادراك بيداس • وكان هذا الامير ذهب الى مدينة زربول • فلحقه سليمان • وحاصره بها • واستطاع بيداس ان ينفلت من الحصار فذهب الى مدينة ثمار • وتحصن بها • وكانت ممتنعة • فحاصرها سليمان مدة حتى فتحها • وجرح بيداس في دفاعه عنها • ونجا الى موريطانيا •

باتتقال بيداس من أوراس استطاع الروم أن يجوسوا خلاله • وغنموا أموالا طائلة لاميده • ثم ذهب سليمان الى بلاد الزاب يخضع البربر لدولته • وبلغ المسيلة • وكانت تدعى زابي • فجدها • وسماها يستيانة تخليدا لذكر امبراطوره •

وبعد جولته عاد الى قرطاجنة • وقدر له الهلاك على يد حليفة اتلاس • فقتل على ايدي جنود هذا الامير بنواحي تبسة سنة (45) •

بعد هلاك سليمان جاء ولاية ضعفاء عن حماية ما تحت أيديهم من البربر • فكانت مدتهم حروبا بينهم وبين ملوك البربر المتحدنين تارة والمتخاذلين أخرى • وقام البربر بعدة غارات على روم نوميديا وغيرها •

وفي سنة (48) جاء يوحنا طرغلطا واليا على افريقيا • وجعل حرب اتلاس أهم أعماله • واستعان عليه بقطريناس وبيداس وافسدياس (هو أحد أمراء البربر بنواحي أوراس) فأعانوه • كما كان سليمان استعان باتلاس على بيداس • وبعد ما اشتدت الحرب بين اتلاس وطرغلطا انجلت بخضوع الامير البربري سنة (48) •

عد الروم هذا الفوز انتصارا باهرا • ولكنهم لم ينصروا على البربر الا بالبربر • وهم يعدون البربر كلهم أعداء لهم سواء المحارب

والمحالف • ولذلك قتلوا الامير قطربناس غدرا سنة (63) رغم كونه حليفا لهم • وقام أبناؤه مطالبين بدمه ، ورفعوا لواء الحرب على الروم •

استمرت غارات البربر على الروم • وعجز الولاة عن إيقافها عند حد • حتى جاء جناديوس • فحاربهم وافتك منهم بعض ما كان استولوا عليه من الاراضي • ولكنهم لم يزالوا في غاراتهم حتى انهم سنة (97) بلغوا أبواب قرطاجنة وحاصروها •

والخلاصة ان تاريخ الروم بافريقية كله حروب • أكثرها للبربر • أما علة كثرة الحروب فهي تشبع البربر من مبدأ الاستقلال ، وطمع الروم في ارث الرومان من غير نظر الى الظروف ، وجور ولائهم فيما تحت نفوذهم • واما سبب نجاح البربر في الاكثر فذلك لضيق نطاق التراب الرومي ، وعجز كثير من الولاة في السياسة والحرب ، وتمرد الجنود على قوادها •

7 — البناءات والاستحكامات الرومية بالجزائر

قد رأيت ضيق نطاق ما استولى عليه الروم من الجزائر وعجز ولائهم امام تعدد غارات البربر • وذلك مما يخرج موقف الروم ويجعل حياتهم في خطر • فأنشأوا لاتقائه الاسوار الحصينة خلف المدن ، وبني الفلاحون بياديتهم الحصون المنيعة ، وشيدت حصون على خطوط الحدود والطرق التي يمكن ان يفضى البربر منها الى التراب الرومي • وقام بتلك البناءات والاستحكامات بجلبها سليمان الخصي ، وبعضها معمرو الروم انفسهم •

ومن المدن الكبرى التي أحيطت بالاسوار قرطنة وقيصرية وسطيف وميلة وتمغاد وقصر الصيحي وقالة ومدوروش وتبسة •

ومنها ما لم يزل سوره قائما حتى اليوم • ويبلغ ارتفاع بعض الاسوار
عشرين ذراعا وعرضه ست أذرع •

وقد أخذ الروم مواد الاسوار والحصون مما وجدوه من رخام
وحجارة منحوتة وغيرها من بقايا مدن الرومان التي ضربها الوندال
أو البربر • وإذا كان الوندال والبربر قد خربوا مدن الاحياء فان الروم
لم يقفوا في تحصين مركزهم عند أخذ مواد المدن الخربة بل تعدوها
الى نبش القبور وتخريب مدن الموتى لاخذ ما فيها من مواد صالحة
للبناء •

وللروم من البناءات سوى الاسوار والحصون تشييد الكنائس •
وليس لهم من البناءات العمومية غيرها • قال اغسال : « وهي مبنية
بمواد مختلفة ومزينة بلا ذوق ولا فن » •

وقد حافظ الروم — علاوة على ما أنشأوه — على ما بقي من
آثار الرومان لم ينله الخراب • ورمبوا منه ما وجدوه مثلما • وكل
ذلك انما قاموا به لحفظ راحتهم • ولكن لم ينالوا بغيتهم ، ولم تصد
استحكاماتهم البربر عن غاراتهم • قال اغسال : « وآثار البيزنطيين
الباقية بنوميديا — ما عدا التحصين — تدل على بؤس شديد » •

8 — الحالة الدينية في العهد الرومي

علمت سابقا ان الاسرائيليين كانت لهم هجرات الى الشمال
الافريقي قبل الميلاد وبعده • وقد جاء الوندال — وهم أمة حربية —
فألفوا بهذا الوطن الاسرائيليين — وهم أمة تجارية — فقربوهم ،
واستعانوا بهم على استدرار خيرات الوطن • فاستحوذ الاسرائيليون
على التجارة :، وراشوا ، وكثر عددهم • واتفقوا مع الوندال على
كراهية الارثوذكس واذائتهم •

ولما جاء الروم وجدوا أنفسهم في ضيق مع الاسرائيليين • فكان
قوادهم يرهقونهم على الدخول في المسيحية • ويدلون بيعهم كنائس •
وزال على الارثوذكس ما نالهم في الدور الوندالي ، وأصبحوا معتزين
دون سواهم من الموسويين والدفوين والاريويين •

وفي سنة (535) انتزعت الدولة الرومية من هذه الفرق جميع
أملأها ، وأعدمتها حماية الشريعة ، وحجرت عليها العمل بمذاهبها ،
وعزلتها مما كان لها من مناصب • كل ذلك جريا خلف داعي التعصب
المذهبي •

واعترف يستنيان رسميا للكنيسة الارثوذكسية بحق مراقبة
المدن وادارة العمالات • فلم تقف عند حد مراقبة الولاة وأهل الوظائف
السياسية ، بل صارت تأمرهم ، وتتدخل في جميع الشؤون الدولية
سياسية كانت أو مالية أو ادارية أو حرية • فكان من الاساقفة
والقسوس من يشتغلون ببناء استحكامات حرية • وصار البابا برومة
يرسل أوامره للقواد والولاة • قال اغسال : « وغمرت قوة الكنيسة
قوات جميع المتوظفين » •

تحت هذا الاستبداد الكنسي دخل بعض الموسويين في المسيحية
لمجرد منافع مادية • والمادة عند الاسرائيليين قبل الدين والجنس •
ولكن مدة ارتدادهم لم تطل حيث ان السلطة الرومية ادركها الضعف
قريبا • فعادوا الى دينهم الذي دخل فيه بعض القبائل البربرية ايضا •
ورجعت قبائل اخرى من البربر الى الوثنية •

هكذا كان الوطن الجزائري في العصر الرومي يشتمل على
أديان ومذاهب كلها متعادية متنافرة • فكانت من أقوى عوامل الخراب
في هذا الدور ، ولها أثرها السيء في الفوضى وفقد الامن • وانها
لكذلك حتى جاء الاسلام على أيدي الفاتحين من العرب • فنظم
ما اختل ، ووحد ما تفرق ، واستقر بالقلوب الاستقرار النهائي •

9 — الحالة الاجتماعية بالجزائر

قد رأيت ان ما استولى عليه الروم من الوطن الجزائري قليل وان أكثره بقي تحت أمراء عديدين من البربر • وقد عم الشقاء والبؤس في هذا الدور كل الوطن الجزائري سواء الذي كان منه لنظر الروم ، والذي كان لنظر البربر •

اما ما كان تحت الروم فان من عوامل بؤسه ما يأتي :

1 — تكرر غارات البربر غير الخاضعين للروم ، وتعنت هؤلاء الروم في دفاعهم •

2 — اذكاء نار الخلافات الدينية بتعصب الدولة لمذهب على سائر المذاهب • قال بيروني : « ولم يكن من غاية للحروب الدينية التي تهيج الاحقاد وتطيل أمد الفوضى الا ايجاد فرصة للنهب ، وشفاء الغليل يقتل العدو » •

3 — جور الولاة الرومانيين • قال بيروني : « واتفق المؤرخون ان سياسة البيزنطيين مع الاهالي سيئة » وقد أرهق هؤلاء الولاة الاهالي بالضرائب الفاحشة • وزاد في فداحتها جور المستخلصين لها • وعلاوة على ذلك كله كانت الجنود تماطل بأعطيتها ، فتستخلصها من الاهالي •

وقد تكونت الفوضى وعمت من ذلك البؤس ومن فقد الاخلاص سواء من الجنود لرؤسائهم أو من الرؤساء لدولتهم • قال بيروني : « في ابتداء القرن السابع لم تبق ادارة ولا هيئة اجتماعية • وبلغت الفوضى السياسية غايتها » •

وقد نشأ عن هذه الفوضى ظلمة في تاريخ هذا الدور • قال اغسال : « ان الآثار الكتابية صارت قليلة جدا حتى انه ليخيل للباحث كأن كابوسا عاما حل بهذا الوطن » •

واما ما كان تحت تصرف البربر فان من عوامل بؤسه تمسك
الامراء باستقلالهم من غير ان يكونوا متحدين ولا ذوي نظام دولي .
أما عدم اتحادهم فهو خلق قديم فيهم ، وهو سبب نجاح أولي المطامع
من الامم في وطنهم . وأما فقدهم للنظام الدولي بعد ما كانت لهم
دول قبل الميلاد فذلك أنهم بعدما تعلموا من الفينيقيين الحياة النظامية
ووسائل العمران والرقي جاء الرومان فأخذوا على أنفسهم تجهيل
البربر ما تعلموه . ابتدأوا بهدم استقلالهم وقتل عظمائهم ، ثم
حرموهم من جميع الحقوق السياسية . وكانت سياستهم سياسة
تنفير فلم يقبل البربر على حضارتهم . فلم يذهبوا حتى أنسوا البربر
ما أخذوه عن الفينيقيين من غير ان يعرضوهم شيئا ينفعهم في حياتهم
الاجتماعية . ولما جاء الوندال وكانت وطأتهم عليهم خفيفة وهم أمة
حربية لم يستفد البربر منهم غير الحياة الحربية . فعملوا للاستقلال
من غير نظام . ولما جاء الروم أرادوا أن ينزعوا منهم استقلالهم .
فدافعوا دونه . ووقعت بينهم حروب مديدة . قال بيروني : « يصعب
ان يحيط مؤرخ بحروب البربر مدة الاستيلاء البيزنطي » .

ولولا ان الرومان هم الذين افقدوا البربر الحياة النظامية لكانت
حروبهم مع الروم عائدة عليهم بالسعادة وعلى وطنهم بالعمران والرقي .
ولكنهم — وقد فقدوا كل نظام — لم يجنوا منها غير الشقاء وخراب
الوطن وعموم الفوضى .

واذا علمت ان الروم لم يعملوا فيما تحت تصرفهم الا لاشقاء
أهاليه ، وان أمراء البربر عاجزون عن أسعاد امتهم امكنتك ان تحكم
عن بينة بأن العصر الرومي كان كله جوائح نزلت بالوطن الجزائري
فأنهكت الحياة الاجتماعية أيما انهاك .

قال بيروني : « القرن الرابع الذي سقطت فيه حكومة رومة

والقرن الخامس الذي استولى فيه الوندال والقرن السادس الذي مكن فيه البيزنطيون نفوذهم بأفريقية — هذه القرون كانت قرون أهوال وحروب مبيدة » ثم قال : « وقد كانت هذه القرون علة في مرض افريقية مرضا اجتماعيا واقتصاديا . ذهبت الفنون الجميلة ، وعطلت الاراضي الفلاحية ، وتنوسيت الاساليب العلمية ، وتكاثرت اللصوصية حتى صار الناس يفزعون الى الغابات ويختفون بالشعاب ، وتعطلت التجارة ، وخشي الناس المجاعة » وقال مرسيني : « كان المؤرخ يروكوب لما نزل افريقية مع بليسير دهش من عمرانها ونشاط تجارتها وفاق أسواقها وسعادة فلاحتها . ولكن بعد عشرين عاما لم يبق شيء من ذلك ، وعم الخراب جميع افريقية . ويقال ان الحرب وحكومة يستنيان خسرتا افريقية في خمسة ملايين من الانفس » .

ومن ههنا تعلم ان ما اشتهر به الوندال من التخريب ليس شيئا يذكر أمام تخريب الروم . فان الوندال مكثوا أكثر من قرن ولم يبلغوا في التخريب وقتل الانفس ما بلغه الروم في عشرين عاما .

والخلاصة ان الحياة الاجتماعية بالجزائر على عهد الروم بلغت من الانحطاط والتقهقر والشقاء ما لم تبلغه في دور من أدوار تاريخها .

10 — السلطة الرومية وانقراضها من الجزائر

قال اغسال : « السلطة البيزنطية بأفريقية غير معلومة . وانما توجد قوانين تذكر مستعمرين ومستعبدين عائشين ببعض الاراضي . وكبار ملاكي الرومان الذين ضعفوا في دور الوندال نجعل ان تكون أملاكهم عادت اليهم في هذا الدور . والظاهر عدم عودها » .

والذي جعل السلطة الرومية غامضة هو ضعفها . ولعلك لا تتوقف

بعد قراءة ما تقدم في الحكم بضعفها منذ نشأتها في المهد الى حين وضعها في اللحد . ومنشأ ضعفها أولا بعدها عن مركز الامبراطورية . ذلك البعد الذي جعل الاباطرة لا يستطيعون امدادها بالقوة ، والذي جراً الولاة على الجور والاستبداد . وثانيا مقاومة البربر لها من غير انقطاع وفوزهم عليها في كثير من البقاع .

ولم يأت من الولاة من هو ذو قيمة ادارية وحرية غير اربعة :

- 1 — بليسير . وغاية عمله انه قضى على الوندال .
- 2 — سليمان . وغاية عمله انه فتح أوراس ووسع حكومة الروم بالجزائر وشاد البناءات . ثم مات مصطليا بنار الثورة . وعاد توسعه في وطن الجزائر ضررا على الروم لان البربر لم ينفكوا يهاجمونهم .

- 3 — يوحنا طرغليطا . بقي يدير حكومة الروم عشرين سنة لم يكن فيها غير اخضاع أتتلاس .

- 4 — جناديوس . وهذا استرجع بعض المدن التي افتكها البربر من الروم . ولكن البربر حاصروه سنة (97) بقرطاجنة . ولم ينج من الحصار الا بطلب الصلح منهم ثم غدر بهم .

ومع ضعف سلطان الروم وضيق نطاق نفوذهم وعدم كفاية ولائهم واخلاصهم كانوا مشتدين على من تحت سلطانهم من البربر . قال بيروني : « ومن المحقق ان الولاة البيزنطيين كانوا قساة اصحاب طمع » .

ولقد زاد في ضعف السلطة الرومية بالجزائر ضعف مركز الامبراطورية . فقد توفي يستينان سنة (565) وخلفه اباطرة ليست لهم عظمتهم وشغلوا عن افريقية بحروب الفرس وغيرهم . وفي سنة (602) دخل فوقاص القسطنطينية بجنود من الدنوب . وقتل الامبراطور موريس . وانتصب مكانه .

وفي هذا الحين كان الوالي بافريقية يدعى جرجير (GREGOIRE) وقائد الجيش يدعى هرقل • فثار القائد على فوقاص سنة (608) وقطع عنه القمح الذي كانت العاصمة تستورده من افريقية • فخاطبه البيزنطيون في الانتقال الى القسطنطينية على ان يعينوه على استلام العرش من يد غاصبه • وكان كبير السن • فاجابهم على ان يوجه ابنه مكانه • ونافسه جرجير • فأرسل كلاهما ولده المسمى باسمه • وبما أن هرقل هو قائد الجيوش كان الاسطول تحت قبضته • فسير ابنه بحرا • وسير جرجير ابنه برا • فسبق هرقل بن هرقل • وقتل فوقاص • وجلس على العرش • ولما خاب جرجير فيما كان يأمله من تبوأ عرش القسطنطينية أعلن انفصال افريقية عنها ، واستقل بها • وجعل عاصمته سبيلة •

بقي جرجير على رأس هاته الدولة التي لم تكن لها قوة وهي مرتبطة بالامبراطورية فكيف تحصل لها وهي مستقلة عنها وفي غير وطنها •

وفي سنة (647) هجم العرب على هذه الدولة • ففقضوا عليها لاول هجومهم • وقتلوا جرجير • واحتلوا عاصمته • ومن ذلك الحين انقرضت السلطة الرومية من الشمال الافريقي بعد ما لبثت (113) سنة •

كان انقراضها بهذه السهولة لانها لم تكن ثابتة الاركان ، فقد سبق أنها عاشت في حروب واضطرابات • وان سلطة هذه حالها لا تلفت النظر الى ما تركته من علوم وصنائع وفنون وأنظمة وعمران • بل انها لا تترك الا ما يناسبها من جهل وفوضى • فلم ينتج عنها غير خراب الازهان والاطوان •

والخلاصة ان البربر عادوا في العصر الرومي الى حياة الوحشية والهمجية تحت رؤساء لا دراية لهم بغير الحرب والسلب •

ولعل الروم لو كانوا في هذا العصر لقالوا : اننا جئنا لننقذ
البربر من الهمجية وننشر بينهم المدنية اللطينية • ولئن سألناهم عما
بلغ اليه البربر من الوحشية والفوضى بعد قرن لاجابونا بأن البربري
وحشي الاخلاق ثوري بطبعه • لا يقبل التعليم ولا يحسن النقل عن
جاره الرومي • ولعالمهم ينقطعون عن الجواب اذا قلنا لهم : هذه الامة
قد أحسنت النقل عن الفينيقيين • فبلغت بذلك أوج العز • وشادت
دولا عظمى • وبعد مدة من القرون نقول لهم أيضا : ها هي تلك
الامة قد استفادت من العرب • وأحسنت النقل عنهم • وعاد لها
عزها • فشادت ممالك عظمى كما شادتها من قبل •



مدوروش

فهرست

صفحة

صفحة

جغرافية الجزائر الطبيعية الباب الاول :

في ذكر قدماء الجزائر

اهل العصر الحجري

62	تمهيد
64	اصل قدماء الجزائر
65	آثار قدماء الجزائر
68	حياة قدماء الجزائر
71	ادوار مدنية قدماء الجزائر
73	لغة قدماء الجزائر
74	ديانة قدماء الجزائر

5	5	اهداء الكتاب
7	7	اسداء شكر
		رسالة من الاستاذ عبدالحميد
9	9	ابن باديس الى المؤلف
11	11	بين يدي الامير شكيب ارسلان
13	13	شكر واعتذار
15	15	مقدمات

مقدمة الطبعة

الكتاب الاول

في تاريخ الجزائر قبل

الاستيلاء العربي

تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء
العربي

- 163 الحضارة القرطاجنية بالجزائر
تأثير قرطاجنة على البربر
166 في الخط واللغة
تأثير قرطاجنة على البربر
167 في العقيدة
169 نشوء الممالك البربرية العظمى
171 ذكر بعض رؤساء البربر
231 انقراض الممالك البربرية
234 ذكر العواصم الكبرى للملوك البربر

الباب السادس - الرومان وحكومتهم في الجزائر

- 242 تمهيد
243 اصل الرومان
244 تأسيس دولة الرومان
249 ديانة الرومان
250 الحياة الرومانية
252 الرومان في افريقية
254 استيلاء الرومان على الجزائر
256 حدود حكومة الرومان في الجزائر
257 حشد الاحتلال
260 النظام الروماني بالجزائر
264 جمهورية المدن الخمس
273 الحياة الرومانية بالجزائر
الحياة البربرية تحت السلطة
الرومانية
277 الثورات بالوطن البربري
282 العمران الروماني بالجزائر
285 اللغة والآداب الرومانية
في الجزائر
291 ديانة الرومان بالجزائر
292 الديانة المسيحية
294 الديانة المسيحية بالجزائر
297 المسيحية والوثنية بالجزائر
303

الباب الثاني

في ذكر البربر

- 81 اصل البربر
91 هجرة البربر الى ليبيا
94 اوصاف البربر واخلاقهم
97 القبائل البربرية الكبرى
برابرة وطن الجزائر ومراكزهم
به
99 الحياة البربرية
110 نظام المجتمع البربري
115 لغة البرابرة وكتابتهم
117 المعتد البربري
121

الباب الثالث - في ذكرى الفينيقيين

- 128 تمهيد
129 اصل الفينيقيين
130 الفينيقيون بالجزائر
132 تأسيس قرطاجنة
133 ممتلكات قرطاجنة بالجزائر
135 اللغة الفينيقية وخطها
137 الديانة الفينيقية
139 نظام الدولة القرطاجنية
المعمل القرطاجني في العمران
والحضارة
144 الحروب القرطاجنية
146 حروب صقلية قبل الميلاد
147 الحروب البونيقية
149 الحرب البونيقية الاولى
151 الحرب البونيقية الثانية
152 الحرب البونيقية الثالثة
156

الباب الرابع - في ذكر البربر

- على عهد قرطاجنة وجمهورية رومة
علاقات البربر مع القرطاجنيين
162

الباب الثامن - في ذكرى البربر

- 358 تمهيد
 360 بيزنطة
 362 الروم في افريقية
 364 الروم بالجزائر
 365 امراء البربر في العصر الرومي
 367 حروب الروم والبربر
 البناء والاستحكامات الرومية
 بالجزائر
 370
 371 الحالة الدينية في العهد الروماني
 373 الحالة الاجتماعية بالجزائر
 السلطة الرومية وانقراضها
 بالجزائر
 375

ذكر بعض رجال البربر في

- 305 الدور الروماني
 311 سقوط حكومة الرومان بالجزائر
 319 الحضارة الرومانية والبربر
 ذكر اباطرة رومة مدة الاستيلاء
 على الجزائر
 320

الباب السابع - في ذكرى

الوندال ومدل امرهم

- 330 تمهيد
 332 اصل الوندال
 334 ديانة الوندال
 335 استيلاء الوندال على الجزائر
 340 تأسيس حكومة الوندال
 342 نظام دولة الوندال
 344 ملوك الوندال وسياستهم
 347 اعمال الوندال
 348 ثورات البربر
 350 انتهاء دولة الوندال

انتاج



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

نصائحها: الحبيب المصطفى

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL- GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113- 5787 - Beyrouth - Liban

